دراسات فى تاريخ وحضارة الأمبراطورية البيزنطية

- ١ -

الأمبراطورية البيزنطية
من
٣٢٤ - ١٠٢٥م

تأليف
دكتور وسام عبد العزيز فرج
(دكتوراه الفلسفة فى التاريخ من جامعة برمنجهام)
مدرس العصور الوسطى — بكلية الآداب
جامعة المنصورة

١٩٨٣

بسم الله الرحمن الرحيم

وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ

إِلَّا قَلِيلًا

صدق الله العظيم

محتويات الكتاب

اهـــداء

إلى إبني كريم وابنتي مروه

الموضوع رقم الصفحة

الفصل الرابع

عصر التوسع والفتح

مقدمة المؤلف

إن اصلاح « الامبراطورية البيزنطية » هو تعبير مضلل بل وخاطيء إلى حد بعيد . فبيزنطة Byzantium كانت مجرد مستعمرة أغريقية قديمة شيد عليها الامبراطور قسطنطين العظيم Constantine the Grate عاصمة الامبراطورية الرومانية الشرقية الجديدة سنة ٣٢٣ م ، وأصبحت تعرف بمدينة قسطنطين أو القسطنطينية Constantinople (استنبول Istanbul الحالية) .

وعلى هذا فالبيزنطيين كانو رومانا Romans مسيحيين ، وبتعبير أدق كانوا مسيحيين على المذهب الصحيح (الأرثوذكسي) وهو مذهب كنيسة القسطنطينية . وكانت امبراطوريتهم « Romania » هي الامبراطورية الرومانية فامبراطورهم (الاوتوقراطور Autokrator باليونانية) هو سليل قيصر Caesar وأغسطس Augustus فى تعاقب متصل ، ولكنه كان أيضا فى نظرهم نائب الله على الأرض . ولهذا لم يكن « للامبراطورية البيزنطية » أية بداية مميزة باستثناء اعتراف قسطنطين بالمسيحية ولكن كان لها نهاية محددة فى ٢٩ من مايو سنة ١٤٥٣ م حين استولى العثمانيون على القسطنطينية .

لم تكن الامبراطورية البيزنطية دولة قومية ، فسياسة ضم أقاليم إلى الامبراطورية : بالاستيعاب فى الكيان الامبراطورى ، أو بالفتح العسكرى أو بالتعميد ، كانت تجعل الفرد « رومانيا » وهو تعبير دينى وثقافى . ويلاحظ أن اللغة اليونانية لسواحل شرق البحر المتوسط كانت هي اللغة السائدة فى الادارة المدنية والكنيسة وفى الحياة الثقافية ، وكان المتحدثون باليونانية هم الأعضاء

البارزون لما يمكن أن نطاق علية تجاوزا « الكومنولث البيزنطى »
Byzantine Commonwealth

كانت الامبراطورية البيزنطيـة دولة مركزية متعددة المـوارد من دول العصور الوسطى . ولكنها كانت تحوى تناقضا هاما ، فمن الناحيـة النظرية كانت طبيعتها مركزية صارمة لأنها امتداد للامبراطورية الرومانية القديمة ، أما من الناحية العملية فيلاحظ أن طبيعتها الصارمة والمركزية قد طوعتهـا المساوىء التى واجهت أية حكومة مركزية ، وهى المصاعب العملية للحياة فى أوربا العصور الوسطى مثل : سوء حالة المواصلات ، والافتقار إلى الكفاءة الادارية ، والحياة الديرية التى شجعت الاتجاه السلبي للحياة بين الناس وهو اتجاه يدعو إلى عدم المشاركة فى الحياة العامة ،وفضلا عن هذا وذاك الاقتصاد المحلى الذى أخذ ينمو تدريجيا والنزعات الانفصالية التى صاحبته .

لقد كان التطور الذى أصاب المجتمع البيزنطى عبارة عن تجربة سارت فى اتجاه عكسى لتجربة معظم الكيانات السياسية الوليدة في الغرب الأوربى التى نشأت فيها حكومات مركزية من خضم اقطاعى ، ففى بيزنطة أخذت الدولة الرومانية المركزية التى عاشت واستمرت امتدادا للامبراطورية الرومانية القديمة تدخل نطاق الاضمحلال السياسى وحياة المجتمع الاقطاعى منذ القرن الثانى عشر الميلادى . ولكن يجب ألا ننسى أن التجربة البيزنطية للنظـام الاقطاعى لم تصل أبدا إلى الدرجة التى بلغتها فى الغرب الأوربى .

لقد بدأت « الامبراطورية البيزنطية » بتراث هلنسق قوامه حياة المدينة . ولكن يلاحظ أن المدن اليونانية الواقعة على شواطىء البحر المتوسـط ، وتلك الواقعة على سواحل شبه جزيرة البلقان قد سقط معظمها فى يد العرب

والسلاف منذ القرن السابع الميلادى ، ولم يتبق للامبراطورية - وى مدينة كبيرة واحدة تستحق أن يطلق عليها كلمة مدينة ، كانت من أعظم مدن العصور الوسطى ألا وهى القسطنطينية وكان اقتصادها كعاصمة للامبراطورية يجعلها حالة خاصة . وبخلاف هذا ، كان اقتصاد الامبراطورية البيزنطية زراعيا محليا ، مثل كل دول أوربا العصور الوسطى ، فأكثر من ٩٠٪ من البيزنطيين كانوا فلاحين .

وإذا نظرنا إلى موقع « الامبراطورية البيزنطية » الاستراتيجى ، نجد أنها كانت دائما محاطة بدول وشعوب تطمع فيها . وكان على الامبراطورية أن تقاتل دائما على جبهتين من الصعب تأمينها ، وأحيانا كانت تقاتل على الجبهتين فى آن واحد : فمن القرن السابع الميلادى كان على بيزنطة أن تقاتل ضد السلاف ومن بعدهم البلغار فى الغرب ، والعرب المسلمين فى الشرق . ومنذ القرن الحادى عشر كان عليها أن تقاتل ضد النورمان والفرنجة فى الغرب والأتراك السلاجقة فى الشرق . ومنذ أواخر القرن الرابع عشر كان عليها أن تقاتل الأتراك العثمانيين على كلتا الجبهتين حتى سقطت فى أيديهم .

والمعروف أن معظم الدراسات التاريخية للامبراطورية البيزنطية قد اقتصرت على الناحيتين السياسية والعسكرية . فالقليل منها يتناول الجوانب الاقتصادية أو الاجتماعية أو الدينية ،أما الدراسة الشاملة لهذه الجوانب مجتمعة فضلا عن النواحى الأدبية والفنية فليس لها عند الباحثين نصيب .

ولقد شدتنى الدراسات البيزنطية منذ فترة طويلة فاتجهت فى دراساتى العليا لدراسة جوانب من تاريخ الامبراطورية البيزنطية أما فكرة اخراج دراسة شاملة لتاريخ وحضارة الدولة البيزنطية فقد راودتنى منذ أن كنت

طالبا بمركز الدراسات البيزنطية فى جامعة بيرمنجهام Birmingham بانجلترا وأثناء اعدادى لرسالة الدكتوراه . وبعد حصولى على الدرجة العلمية وأثناء عملى فى جامعة بيرمنجهام بدأت الخطوات الأولى فى بحثى هذا وكان هدفى الرئيسى أن أقدم للمكتبة العربية دراسة فى أكثر من مجلد تتناول تاريخ وحضارة الدولة البيزنطية . ولقد حاولت فى هذه الدراسة الابتعاد عن المنهج التقليدى المتبع فى علاج تاريخ الامبراطورية البيزنطية (وهو المنهج الذى يهتم أساسا بالنواحى السياسية والعسكرية) وحرصت على تتبع العوامل التى ساهمت فى تشكيل التطور الاقتصادى والاجتماعى للمجتمع البيزنطى كما أشرت إلى بعض النظم الادارية والمالية والعسكرية واتجاهات الادب والفن.

ولما كان موضوع البحث متعدد الجوانب وشامل للعديد من العناصر لهذا فقد فضلت أن يكون عنوانه « دراسات فى تاريخ وحضارة الامبراطورية البيزنطية » .

ويسعدنى كثيرا أن أقدم للمكتبة العربية الجزء الأول من هذه الدراسة ، ويتناول تاريخ الامبراطورية البيزنطية فى الفترة من ٣٢٤ - ١٠٢٥م . ولقد حرصت فى هذا الجزء على الاشارة إلى أهم المصادر الأصلية المعاصرة لكل مرحلة تاريخية مع الاستشهاد بنصوص أصلية منها بعد ترجمتها إلى العربية ، وكان هدفى من وراء ذلك أن يكون تحليلى التاريخى مدعما بنصوص من هذه المصادر

ولقد اتبعت فى حواشى هذه الدراسة نظام المختصرات Abb ev:ation الحديث والخاص بالدراسات البيزنطية ، والذى صدر بخصوصه دليل تم نشره فى دورية :

Du barton Oaks Papers , 26 (1972) , 362-65,
27 (1973) , 329 - 39.

كذلك قمت بتجميع حواشي كل فصل في نهاية الفصل .

ولما كان هذا المجلد يتناول الجزء الأول من الدراسة التاريخية ويغطي الفترة من ٣٢٤ - ١٠٢٥م فقط، لهذا فقد أثرت أن أضع قائمة المصادر والمراجع ومفتاح نظام المختصرات في نهاية الجزء الثاني الذي يغطي الفترة من ١٠٢٥- ١٤٥٣م .

ولا يسعني في النهاية إلا أن أتقدم بوافر الشكر والامتنان لأساتذتي وزملائي وأصدقائي في مصر وانجلترا لجميل رعايتهم ودوام تشجيعهم . كما أنتهز الفرصة لأشكر أسرتي الصغيرة لما تحملته من عناء في سبيل توفير الوقت والهدوء لإخراج هذا البحث.

والله أسأل أن يوفقنا إلى سواء السبيل .

وسام عبد العزيز

الاسكندرية ١٩ من مايو سنة ١٩٨٢

بسم الله الرحمن الرحيم

الفصل الأول

الامبراطور قسطنطين العظيم

والعاصمة المسيحية

٣٢٤م - ٥٢٧م

- دقلديانوس والحكومة الرباعية .
- قسطنطين والمسيحية
- روما الجديدة
- البرابرة فى الخارج
- المراطقة فى الداخل

حين اعتلى الامبراطور دقلديانوس العرش سنة ٢٨٤ م (١) كان عمر الامبراطورية الرومانية اكثر من ثلاثة قرون . ويمكن القول انه منذ سنة ٣٦٣ م كان هناك بشكل مستمر تقريبا حاكمان للامبراطورية الرومانية ، يقيم الاول فى القسم الغربى من الامبراطورية ويحضر إلى روما من آن لاخر، والثانى يقيم فى القسم الشرقى من الامبراطورية، ومعظم الوقت فى القسطنطينية . ومع هذا كانت الامبراطورية الرومانية حتى ذلك الوقت تعد امبراطورية واحدة فاذا صدر مرسوم فى احد القسمين الشرقى او الغربى سواء بالنسبة لنظام التعاقب على العرش او لاضطهاد مجموعة من الهراطقة ، فانه عادة يكون مقبولا بلا جدال فى القسم الاخر من الامبراطورية . اكثر من ذلك كان الموظف ينتقل من أحد قسمى الامبراطورية إلى القسم الاخر وهو يترقى من وظيفة إلى أخرى ، مثال لذلك خريسانثوس Chrysanthus الذى كان اخر الولاة الرومان على بريطانيا (٢) ، فهذا الرجل بدأ حياته الوظيفية فى القسطنطينيه .

ورغم كل مظاهر وحدة الامبراطورية فقد كان هناك مايشير الى انفصال كل قسم عن الاخر . فمثلا كان لكل قسم من اقسام الامبرطورية السجل الخاص بالوظائف المدنية والعسكرية . فالسجل الخاص بالوظائف الامبراطورية الرومانيه والذى يعرف باسم Noitia Dignitatum كان يقع فى مجلدين : مجلد خاص بالقسم الشرقى من الامبراطورية ، والمجلد الآخر خاص بالقسم الغربى (٣)

على أية حال اختفت أخر بقايا القسم الغربى من الامبراطورية الرومانية

سنة ٤٧٦ م بعد غزوات لم تنقطع من قبل القبائل الجرمانية التى اخذت تقتطع اجزاءه بالتدريج . ولكن اذا كان القسم الغربى من الامبراطورية الرومانية قد سقط في ايدي الجرمان سنة ٤٧٦ م ، فان القسم الشرقى من الامبراطورية عاش واستمر فى رجله الالف عام التى هي عمر التاريخ الوسيط تقريبا . لقد اطلق مؤرخو القسم الشرقي من الامبراطورية (الذى عاش واستمر مدة عشرة قرون بعد سقوط القسم الغربى) على سكان هـذا القسم الشرقى اسم الرومان Romans واطلقـوا على لغتهم اسم اللغة الرومية Romaic رغم انها لم تكن سوى اللغة اليونانية البيزنطية (وهى اللغة اليـونانية التى سادت فى العصور الوسطى) وظلوا يسمونها اللغة الرومية حتى استقلت بلاد اليونان فى العصر الحديث (٤)

إن دراستنا هذه إن هى إلا درلسة لذلك القسم من الإمبراطورية الرومانيه الذى عاش واستمر فى الشرق بعاصمته القسطنطينية، وهو القسم الذي اصطلح المؤرخون على تسميته الامبراطورية البيزنطية لان القسطنطينية تم تشييدها على بقايا بلدة قديمة كانت تسمى بيزنطة وانها لتسمية غريبة ، فبلدة بيزنطة رغم كونها بلدة قديمة لم تلعب أى دور هام فى التاريخ حتى أصبحت مدينة القسطنطينية . ولقد اطلق الاثريون فى القسطنطينية عل سكان الامبراطورية اصطلاح « البيزنطيين » فى بعض الاحيان حين كان اسم « الرومان » أو « أهل القسطنطينية » اصطلاحين يفتقران إلى الدقة ولا يعبران عن الحقيقة. على أيه حال انتقل اصطلاح « البيزنطيون » الى الغرب واستعمله المؤرخون المحدثون من باب التسهيل والتميز . ولكن لاشك أنها تسمية غير دقيقة ومضللة إلى حد ما .

وبجدير بالذكر ان الاجتهاد فى تحديد سنة معينة كبداية لتاريخ الامبراطورية البيزنطية هو مسألة عقيمة اختلف حولها المؤرخون المحدثون . ويجب الا ننسى ان التقاليد والنظم الاداريه والماليةوالعسكرية التى سادت الامبراطورية الرومانية لم تختف بين يوم وليلة بسقوط روما والغرب الاوربي، بل ستمرت فى القسم الشرقى من الامبراطورية لعدة قرون . وان اختفاء بعض تلك النظم والتقاليد او تطورها او ظهور غيرها كان يرجع أساسا الى الظروف التى احاطت بهذا القسم الشرقى من الامبراطورية الذى عاش واستمر الف عام تقريبا ، والذى اصطلح المؤرخون على تسميته بالامبراطورية البيزنطيـة .

عاشت الامبراطورية البيزنطية حياة طويلة حتى سنة ١٤٥٣ م ، وهذه فى حد ذاتها ظاهرة تسترعى الانتباه . كيف استطاعت هذه الامبراطورية (التى لم يكن امامها فى سنة ٤٧٦ الكثير من الوقت لتبقى مثل كل التاريخ الرومانى) ان تعيش وتستمر وتزدهر ؟ فماذا حدث ؟ ولماذا بقيت ؟

لا يساعدنا ادوارد جيبون E . Gibbon فى الاجابة على هذا السؤال . فهذا المؤرخ الذى عاش فى القرن الثامن عشر والذى قال ان سبب سقوط الامبراطورية الرومانية كان انتصار البربرية والدين - لم يكن امامه الا أن يتحدث بحقد عن نظام قام واستمر على الدين(٥) . على اية حال لم يكن جيبون منصفا فى علاجه لتاريخ الامبراطورية البيزنطية .

٦ لقد انجبت الامبراطورية البيزنطية مجموعة رائعة من الشخصيات العظيمة مثل : القائد الموهوب بليزاريوس Belisarius ؛ الذى هزم الوندال والق

والامبراطور العجيب هرقل الذى حول انتصار الفرس إلى هزيمة واسترد لبيزنطة كل اقاليمها الشرقية . وتبع هاتين الشخصيتين اسماء لامعة فى التاريخ البيزنطى مثل الامبراطور ليو الثالث Leo III الذى هزم العرب امام القسطنطينية والامبراطور نقفور فوكاس Nikephoros Phokas الذى استرد للامبراطورية كريت وقبرص وطرسوس وانطاكية ، والامبراطورية يوحنا تزيمسكس John Tzimiskes الذى حقق للامبراطورية انتصارات رائعة من الدانوب إلى الشام ، والامبراطور باسيل الثانى Basil II سفاح البلغار ، والاعمال العظيمة التى قام بها اباطره اسرة كومنين K mueno هذه الشخصيات البطولية واجهت اعداء اشداء والجدير بالذكر ان اعداء الامبراطورية لم يعرفوا الدرع والخوذه فقط بل عرفوا شيئين آخرين لم يعرفها اعداء الرومان القدامى إلا وهما ركاب السرج والتعصب الدينى و غم هذا فقد تصدت الامبراطورية البيزنطية لاعدائها بنجاح وتمكنت من أن تسوس الهون Hun ، وتخضع السلاف Slavs كذلك قاومت العرب المسلمين فى صبر طويل حتى رأت حماسهم الدينى يضيع هباء بعد أنغماسهم فى رفاهية الفترة التى اعقبت الفتوح الكبرى ثم جاء بعد العرب ، الأتراك السلاجقة وكانوا فرسانا اكثر تعصبا ، وحاربهم البيزنطيون بكل عنف .

هناك ايضا الفن البيزنطى الذى بدأنا نعجب به بعد أن اصبحت دراسته تزداد عمقا يوما بعد الاخر (٦) ، وهناك ايضا أحسن الكتابات التاريخية التى تكمل تقريبا حلقة الكتابة التاريخية التى قدمتها بلاد اليونان منذ زمن بوليبيوس Polybius فى القرن الثانى قبل الميلاد . وفوق هذا وذاك قدمت الامبراطورية البيزنطية إلى العالم المعروف آنذاك عملة دولية كانت أداة التبادل التجاري في

كل مكان . ولقد وصف احد كتاب القرن السادس الميلادى هذه العملة بأنها كانت : « مقبولة فى كل مكان من أول الارض إلى اقصاها . فهى موضع إعجاب كل الناس فى كل الممالك لانه لاتوجد مملكة لها عملة أخرى يمكن ان تضاهيها »(٧) .

انتجت الامبراطورية البيزنطية كل هذا حين كان الغرب الاوربى مسرحاً للاضطرابات والدماء وهو يعيش الفترة المبكر من تاريخه فى العصور الوسطى

كيف حدث هذا ؟ وكيف صنع البيزنطيون كل هذا ؟

لاشك أن الاجابة على هذا السؤال ستصبح أقل صعوبة إذا أوضحنا كيف استطاع الامبراطور قسطنطين العظيم Constantine the Great وخلفاؤه ان يصنعوا الاساس ويبنوا القاعدة التى لعبوا فوقها ادوارهم .

لاعتقد الامبراطور دقلديانوس Diocletian (٢٨٤ ـ ٣٠٥ م) انه من الممكن انتشال الامبراطورية الرومانية من فوضى واضطرابات القرن الثالث الميلادى . وذلك ببناء حكم مركزى صارم ، وادخال نظام بيروقراطى واسع المدى ، وايضا بفصل تام بين السلطتين المدنية والعسكرية (٨) . وفى سنة ٢٨٦ وفى سبيل تنظيم ادارة الامبراطورية الرومانية الشاسعة استحدث دقلديانوس نظام « الحكومة الرباعية » وذلك بتحويل حكومه الامبراطورية الى ما يشبه الشركة العائلية . وعلى هذا فقد قسم الامبراطورية الى قسمين على رأس كل قسم منها امبراطور له سلطة مطلقة ، يقيم احدهما فى الشرق ـ واحتفظ دقلديانوس لنفسه بمنصب الامبراطور المقيم فى الشرق ـ والآخر

يقيم في الغرب . وعلى الفور قام دقلديانوس باختيار ماكسيميان Maximianus ـ احد قواد الامبراطورية البارزين ـ ليشغل منصب الامبراطور الآخر ليصبح شريكا له في الحكم وامبراطورا على القسم الغربي من الامبراطورية.

ولم يكتف دقلديانوس بذلك بل قام بتعيين قائدين اخرين مساعدين لكل من امبراطور القسم الشرقي وامبراطور القسم الغربي ويحمل كل منهما لقب قيصر .

وبهذا اصبح هناك امبراطور في القسم الشرقي من الامبراطورية يساعده ويخلفه على عرش الامبراطورية قيصر ، وامبراطور في القسم الغربي من الامبراطورية يساعده ويخلفه قيصر . وهكذا تم تعين جاليريوس Galerius قيصراً ومساعداً لدقلديانوس في الشرق ، في الوقت الذي تم فيه ايضا تعين قسطنطيوس Constantius قيصراً ومساعدا لماكسيميان في الغرب. وجرى توثيق الوحدة السياسية بين الاربعة بالوحدة الاسرية والمصاهرة ، واقتسم الاربعة فيما بينهم اركان الامبراطورية الرومانية الواسعة(٩) والجدير بالذكر ان هذا الاصلاح الادارى الذى قام به الامبراطور دقلديانوس كان يهدف الى القضاء على مشاكل الامبراطورية الرومانية الشاسعة في الداخل والخارج بتوزيع المسئولية التى كانت تقع على عاتق فرد واحد هو شخص الامبراطور ، على اربعة افراد. وكان دقلديانوس يقصد ايضا ان يفوت الفرصة على الفيالق الرومانية وتدخلها في اختيار الاباطرة : (١٠) . غير ان هذا النظام الجديد سرعان ما عصفت به الانواء وانهار بعد ذلك على يد قسطنطين ابن قسطنطيوس قيصر الغرب ولا ـ

اما عن ظروف انهيار هذا النظام الجديد فالذى حدث هو ان الامبراطور دقلديانوس اعتزل العرش في سنة ٣٠٥ م وأرغم زميله امبراطور الغرب على الاعتزال ايضا وعلى الفور تم ترويج كل من جاليريوس وقسطنطيوس

امبراطورين ، وتم فى نفس الوقت تقريبا تعين قيصرين جديدين وهما القيصر سفروس Severus قيصر في القسم الغربى من الامبراطورية ، والقيصر ماكسيمين Maximin فى القسم الشرقي (١١) على اية حال هذا الاتجاه الذى تجاهل مبدأ حق الابن فى وراثة عرش أبيه حكم فى النهاية على هذا النظام الادارى الجديد بالفشل . فى سنة ٣٠٦م توفى فجأة قسطنطيوس امبراطور الغرب ، وعلى الفور اعلن الجيش الرومانى المتمركز فى بريطانيا تأييده لابنه قسطنطين ونادوا به امبراطوا فى مدينه يورك York فى بريطانيا ، وفى نفس العام قام ماكسنتيوس Maxentius ابن امبراطور الغرب السابق ماكسيميان بالثورة فى روما وقام بدعوة والده ـ الذى سبق ان اعتزل مع دقلديانوس ـ ليجلس على عرش القسم الغربى من جديد . وحين حاول قيصر الغرب الجديد سفروس التصدى له ، استطاع ماكسنتيوس Maxentius ان يلحق به هزيمة ساحقة ، وسقط فى المعركة سفروس Severus قتيلا . وفي محاولة لانقاذ الموقف أعان امبراطور الشرق جاليريوس Galerius قبوله لقسطنطين كقيصر لاقليمى غالة Gaul وبريطانيا ، وقام جاليريوس بتعين ليسينيوس Licinius امبراطوراً على القسم الغربى من الامبراطورية .

على ايه حال لما كان ليسينيوس لايستطيع القضاء على ماكسنتيوس Maxentius ، لهذا لم يكن امامه سوى ان يرضى بابقاء حدا كما على اقاليم الليريا Illyricum الا ان الموقف ازداد تعقيداً حين اعلن اسكندر Alexander ـ حاكم شمال افريقيا ـ تتويج نفسه امبراطوراً . وهكذا أصبح هناك سبعه رجال يدعى كل منهم أنه امبراطور ويحكم كل منهم جزءاً أو اكثر

من اجزاء الامبراطورية الرومانية وهم: قسطنطين Constantine ، مكسيميان Maximian ، مكسنتيوس Maxentius ، اسكندر Alexander ليسينيوس Licinius ، جاليريوس Galerius ، ماكسيمين Maximin . على ايه حال تمخضت الحرب الأهلية والصراع بين هؤلاء القادة السبعة عن بقاء اثنين فقط ، وتم التخلص من الخمسة الأخرين على النحو التالى : (١٢)

استطاع ماكسنتيوس Maxentius هزيمة اسكندر حاكم شمال افريقيا . اما ماكسيميان Maximian فقد اختلف مع إبنه وتركه والتحق بمعسكر قسطنطين Constantine . وحين حاول الثورة ضده ، استطاع قسطنطين قتله (١٣) . امـا جاليريوس Galerius امبراطور القسم الشرقى فقد توفى سنه ٣١١ م . وتم تقسيم ممتلكاته بين كل من ليسينيوس Licinius وماكسيمين Maximin . وفى سنة ٣١٣ م استطاع قسطنطين هزيمة منافسة ماكسنتيوس Maxentius كذلك حقق ليسينيوس Licinius انتصاره الكبير على ماكسمين Maximin فى نفس العام .

وهكذا بقى بعد هذه الحرب الاهلية كل من قسطنطين Constantine وليسينيوس Licinius ، فقاما باقتسام الامبراطورية الرومانية طوال الفترة الممتدة من سنه ٣١٣ وحتى سنة ٣٢٤ م . وفى النهاية وفى سنة ٣٢٤ م نجح قسطنطين — الذى برهن منذ البداية وهو فى مقتبل عمره على مقدرة حربية فائقة واقدام وكفاءة ادارية — فى تحقيق انتصاره الكبير والحاسم على غريمة ليسينيوس Licinius ، وبهذا اصبح قسطنطين

سيد الامبراطورية الرومانية كلهـا . على أية حال لقـد أثبت الحروب الاهلية التى اندلعت عقب اعتزال دقلديانوس ان السلام والاستقرار الذى عم الامبراطورية طوال عهده الذى امتد من ٢٨٤ م الى سنة ٣٠٥ م لم يكن راجعا الى النظام الادارى الجديد الذى ادخلة الامبراطور ، بل كان راجعا فى المقام الاول الى شخصية دقلديانوس نفسه (١٤)

بدا للوهلة الاولى ان قسطنطين الذى حقق الانتصار النهـائى وانفرد (بالسلطان) كله ، موهبة عسكرية فذه وصلت بالسيف الى عرش الامبراطورية الرومانية ، الا ان التاريخ اثبت ان قسطنطين هذا كان بالتأكيد اكثر من موهبة عسكرية فذة . فلا شك أنه من تلك الشخصيات التاريخية العالمية التى تحير المؤرخين دائمـا لانهم مختلفون عنهم فهم رجال لهم بصيرة تنفذ الى اعماق المجهول القادم ، ولهم بعـد نظر يستطيع استشراف المستقبـل البعيـد الغامض . ولاشك ان المؤرخين يصعب عليهم تحـديد ابعـاد تلك البصيرة . لقد اعطى قسطنطين الامبراطورية الرومانية عاصمة جديدة حين حول تلك البلدة الصغيرة بيزنطة الى مدينة القسطنطينية ، كذلك اعترف هذا الرجل بدين فى إمبراطوريته فجعله دينـاً شرعياً ، وسرعان ماصبح دينـاً للدولة ورمزا لوحدتها ، وذلك حين اعترف بالمسيحية ثم اعتنقها وجعلها دينا رسمياً للامبراطورية الرومانية . ولقد اتخـذ هذين القرارين الخطيرين فى شكلهما النهائى فى سنه ٣٢٤ م

كان قسطنطين اكبر أبناء قسطنطيوس Constantius . ولد فى ١٧ من فبراير سنه ٢٩٠ م فى مدينة نيش Naissus (فى يوغسلافيا الحاليه) ، وكان ثمرة زواج أبيه من هلنا Helena وحين اصبح قسطنطيوس

Constantius قيصراً على القسم الغربى من الامبراطورية الرومانية فى ظـل نظام « الحكومه الرباعية » اضطر الى ان يطلق هلنا Helene كى يتزوج ثيودورا Theodora ابنة ماكسيميان Maximian امبراطور القسم الغربى من الامبراطورية . وفى نفس الوقت ارسل قسطنطيوس Constantius ابنه الصغير قسطنطين الى بلاط الامبراطور دقلديانوس ليتعلم ويتهذب . وهناك ارتفع شأنه حتى أصبح محاميا منتخبا للدفاع عن حقوق الناس ، وفى اثناء تلك المرحلة من حياته شاهد قسطنطين بنفسه الاضطهاد العنيف الذى مارسه دقلديانوس ضد المسيحية . (١٥) وحين اعتلى والده العرش واصبح امبراطوراً على القسم الغربى ، طلب قسطنطين من الامبراطور جاليريوس Galerius أن يأذن له فى الرحيل ليلحق به ، إلا أن جاليريوس أخذ يماطله ويتهرب منه ، فلم يجد قسطنطين أمامه سوى أن يهرب .

وبالفعل انضم قسطنطين لأبيه فى بولونيا Boulogne وأخذ يستعد للاشتراك فى حملة على بريطانيا . وبعد ذلك وفى ٢٣ يوليوسنة ٣٠٦ م توفى قسطنطيوس فجأة ونادى الجيش فى بريطانيا بقسطنطين أمبراطوراً (١٦) .

والجدير بالذكر انه منذ البداية كانت الامبراطورية الرومانيه تقوم على التجاور - اكثر من الاندماج - بين مجتمعين : المجتمع الرومانى والمجتمع اليونانى والمعروف ان الرومان استخفوا دائما باليونانيين بسبب افتقارهم للشخصية ، اما اليونانيون فقد نظروا إلى الرومان بازدراء بسبب افتقارهم للثقافة ، ولاشك أن كلا الاتهامين يفتقر إلى النظرة الشاملة المنصفة . ولكن فى عهد قسطنطين العظيم كان لليونانيين بعض الحق فى ازدرائهم للرومان ، فالأدب الرومانى كان

شبه ميت، بينما كان المثقفون اليونان غاية فى النشاط ، وأن كان علينا الا نسرف فى تصور هذا النشاط الادبى اليونانى ،لان الكثير منه نقل الينا ماهو سطحى او غامض المعنى ، ولكن كان هناك نشاط ادبى وفكرى .

ومما لاشك فيه ان القسم الشرقى من الامبراطورية كان يمثل مركز ثقل اقتصادي ايضا،فثراء اقاليم مصر والشام وآسيا الصغرى لايحتاج إلى اثبات(٤٧) وعلى هذا فالقسم الشرقى من الامبراطورية استحق ان تكون فيه عاصمة الامبراطورية الرومانية الموحدة .هذا من ناحية ، من ناحية أخرى كان هذا القسم سيحتاج الى عاصمة خاصة به إذا انقسمت الامبراطورية . ولعل الباحث لايبعد عن الحقيقة إذا قال أن بعد نظر قسطنطين جعله يعتقد ان انقسام الامبراطورية شيء محتمل بل وقريب .

على اية حال لم تكن فكرة انقسام الامبراطورية غريبة ، لانها كانت جزءا من مشروع الاصلاح الادارى الذى ادخله دقلديانوس . لقد اختار دقلديانوس الشرق مركزاً له وباشر الادارة والحكم فى المدينة التى فضل الاقامة فيها إلا وهى نيقوميديا Nicomedia ، وهى مدينةجميلة قريبة من بلدة بيزنطة على الجانب الاسيوى من بحر مرمرة والجدير بالذكر ان نيقوميديا كانت المكان الذى صدرت فيه القرارات الامبراطورية الخاصة باضطهاد المسيحين ، ولعل هذا احد الاسباب التى جعلت قسطنطين يعدل عن اتخاذ نيقوميديا عاصمة للامبراطورية (٤٨)

كانت بلدة بيزنطة فى الحقيقة اختياراً افضل للعاصمة بموقعها الجغرافي

اعطاها سيادة على البحر وجعلها تبدو كقلعة منيعة ، ولاشك ان التحسينات التى ادخلت على أسوار المدينة فى القرن الخامس اكدت هذه المناعة (١٩) لقد كان الموقع ممتازاً فى مواجهة مصدرين للخطر جبهة الدانوب ، وجبهة الحدود الشرقية ، فهى تقع فى منتصف الطريق تقريبا بين جبهتى الدانوب والفرات والطريق منها سهل إلى كلا الجبهتين سواء بالبر أو بالبحر . كذلك كان الموقع ممتازاً للتجارة واصبحت بالفعل مركزاً للتجارة العالمية . وكثيراً ما ينتاب المؤرخ الشك فيما إذا كان قسطنطين قد فكر فى كل هذا ، ولكن وكما سبق ان ذكرنا يبقى قسطنطين شخصية تثير حيرة المؤرخين

وجدير بالذكر ان قسطنطين يذكر فى احد القوانين التى اصدرها انه وضع اساس العاصمة الجديدة بأمر من الله وربما يكون الامبراطور قد قصد من بنائها ان يخلد انتصاره الكبير والنهائى على ليسينيوس Licinius والذى منحه له الله ببناء تلك العاصمة الجديدة فى موضع بلدة بيزنطة (٢٠) ويمكن أن نتخيل الامبراطور وهو يرسم حدود الخندق التقليدى حول موقع المدينة المقترح ، ويمكن ايضا أن نسمع كلماته فى ذلك الوصف الذى رواه المؤرخ ادوارد جيبون :ـ

« وتصدر الامبراطور نفسه الموكب سيرا على الاقدام وفى يده حربة ، وأشار إلى الخط الذى تتبعه هو ومن معه ليكون حداً العاصمة الجديدة ، حتى اعترت معاونيه الدهشة من ان محيط المدينة يزداد اتساعاً ، وتجرأوا على القول بانه تجاوز المساحة المعقولة لمدينة عظيمة ، فأجاب قسطنطين ساواصل السير حتى يرى الدليل الخفى الذى يسير امامى انه من المناسب ان اتوقف » (٢١) .

ولقد احتاج بناء هذه العاصمة الجديدة ست سنوات وتم افتتاحها اخيرا فى ١١ من مايو سنة ٣٣٠ م. ويبدو ان قسطنطين اطلق عليها في البداية اسم « روما الجديدة » ، ولكنها سرعان ماحملت اسم قسطنطين وأصبحت تعرف بالقسطنطينية Constantinople ولقد حرص الامبراطور على أن تصبح العاصمة الجديدة مدينة عامرة بالسكان ، وسرعان ما قطنها ربع مليون نسمة (منهم ١٠ آلاف متسول) (٢٢) ومن اجل تجميل هذه العاصمة الجديدة قام الامبراطور بنقل العديد من التحف الفنية من مدن القسم الشرقى من الامبراطورية وزين بها القسطنطينية. وحتى يدفع حركة العمران والبناء فى القسطنطينية ، شجع الامبراطور السكان الاثرياء على البناء بمنحهم اراضى مملوكة للدولة مجانا (٢٣)

لم يختلف المؤرخون فى شىء مثل اختلافهم حول دوافع قسطنطين فى اتخاذ المسيحية دينا ، وهل كان هذا الاتجاه لدى قسطنطين نابعا عن معتقد دينى صادق ام كان للدوافع السياسية شأن كبير ؟ فهل اعتنق قسطنطين المسيحية وآمن بالسيد المسيح ورفع شعاره منذ أن نادى به الجند فى بريطانيا امبراطور ؟ ام أن اتخاذ قسطنطين للمسيحية دينا كان مقامرة لان السكان المسيحيين فى ذلك الوقت فى امبراطورية الرومان لم يشكلوا اكثر من ١٠ ٪ (او اكثر قليلا) من السكان . واذا كان هذا كذلك فهل كان لهذه الشخصية الفذة بعد نظر عميق ادرك به « الضرورة التاريخية » لدين عالمى ليكون دينا للامبراطورية العالمية ؟ مرة أخرى يبقى قسطنطين رجلا يثير حيرة المؤرخين (٢٤).

على ان الآراء على اختلافها و تعددها لاتخرج عن شق السؤال الاساسى الذي سبق طرحه ، إلا وهو هل كان اتخاذ قسطنطين المسيحية دينا نابعاً عن معتقد دينى صادق ؟ ام كان وراءه دوافع سياسية ؟ (٢٥) ويدعم شق السؤال الأول مؤرخو الكنيسة ، بل أنهم يضيفون إلى حوارى السيد المسيح شخص قسطنطين ليصبحو ا ثلاثة عشر . و كان يوسيبيوس القيسارى Eusebius ofCaesa ea أول من زاد قائمة الحواريين واحداً وهو الذى أورد لنا قصة اهتداء قسطنطين إلى المسيحية فى مؤلفة حياه قسطنطين Vita Constantine على لسان الامبراطور نفسه . وعلى منوالة نهج مؤرخو الكنيسة بعد ذلك وعلى رأسهم سقراط Socrates وسوزمين Sozomen ويدعم الشق الثانى معظم المؤرخين المحدثين الذين تناولوا بالنقد قصة رؤيا قسطنطين التى سجلها لنا يوسيبيوس القيسارى والتى حدثت للامبراطور فى خريف سنه ٣١٢ م وأثناء زحفه إلى ايطاليا للقاء فاصل مع غريمة ماكسنيتوس Maxentius فى فترة الحرب الاهلية التى اشرنا اليها من قبل (٢٦)

على أية حال اظهر قسطنطين موقفا واضحا ميالا للمسيحين منذ أن شاهد تلك الرؤيا ، ولقد عبر قسطنطين عن ميله هذا بالكلمة وبالفعل فرفع تلك الشارة التى رآها فى رؤياه فحقق النصر على مكسنتيوس Maxentius فى معركة الصخور الحمراء Saxa Rubra (وتعرف ايضا باسم القنطرة الملفية Malvian Bridge فى ٢٨ اكتوبر سنه ٣١٢ م ودخل بعدها روما دخول الظافرين (٢٧) . ومنذ البداية اظهر قسطنطين تسامحاً مع المسيحين واظل الكنيسه بوارف رحمته ، و إستطاع بذكاء ان يربط بين العطف على المسيحية والاخذ بيد اتباعها وبين الصالح العام للدولة .

ولم يمكث قسطنطين فى روما كثيراً بعد انتصاره على خصمه ، إذ توجه فى مارس سنة ٣١٣م إلى ميلانو Milan حيث وافاه هناك ليسينيوس Licinius وعقد اجتماع هام بين الطرفين تمخض عن تحالف وزواج سياسى وفيه وافق قسطنطين على تزويج أخته قسطنديا Constantia من ليسينيوس . وشهدت مدينة ميلانو بالاضافة إلى احتفالات الزواج اجتماعات هامة عقدها الحليفان للاتفاق على سياسة واضحة تجاه المسيحيين الذين قضوا فترة طويلة يقاسون من اضطهاد الدولة لهم ولاشك أن قسطنطين قد لعب دوراً فى اقناع ليسينيوس بضرورة منح المسيحية الشرعية (٢٨) على أية حال اتفق الطرفان على اطلاق حرية العقيدة لكل سكان الامبراطورية شريطة إلا تتعارض هذه الحرية مع الصالح العام للدولة (٢٩) .

والجدير بالذكر أنه لم تصلنا سجلات تلك الاجتماعات ، ولكن السياسة الجديدة التى اتفق عليها الطرفان تظهر واضحة فى رسالة بعث بها ليسينيوس Licinius – بعد انتصاره الكبير على ماكسيمين Maximin فى معركة هرقليا فى ٣٠ ابريل سنة ٣١٣م – الى نائبه فى نيقوميديا ، Nicomedia . ولقد تضمنت هذه الرسالة التى اذاعها النائب الامبراطورى فى نيقوميديا ، السياسة التى اتفق كل من قسطنطين وليسينيوس على اتباعها والخاصة بمنح الحرية الدينية لسكان الامبراطورية . ولقد شاع خطئاً تسمية هذه الرسالة « بمرسوم ميلانو » (٣٠) ولقد حفظ لاكتانتيوس Lactantius النص اللاتينى الأصلى لهذه الرسالة ، ثم اورد لنا يوسيبيوس Eusebius ترجمة يونانية للنص اللاتينى الأصلى (٣١) .

على أية حال لم يكن اتفاق ميلانو . الذي نادي باطلاق حرية العقيدة

لكل سكان الامبراطورية واعتبر المسيحية ديانة شرعية مثل الديانات الوثنية الإخرى التى سادت الامبراطورية ـ أول اتفاق من نوعه اعطى الشرعية للمسيحية ، فقدسبقه إلى ذلك مرسوم صدر سنة ٣١١م فى عهد الامبراطور جاليريوس . ويميل بعض المؤرخين إلى اعتبار اتفاق ميلانو تأكيداً وتجديدا لمرسوم جاليريوس الذى تضمن العفوعن المسيحيين والسماح لهم باقامة شعائرهم الدينية وأباح لهم بناء وتعمير دور عبادتهم (٣٣) .

وهكذا كان لقسطنطين الدور الرئيسى فى اخراج اتفاق ميلانو الذى اعطى للمسيحية الشرعية التى كانت تفتقدها حتى الآن(٣) . موقف قسطنطين هذا يتمشى مع موقفه الواضح منذ البداية والميال للمسيحية والذى يرجعه البعض إلى تلك الفترة التى عاشها فى البلاط الامبراطورى فى نيقوميديا حيث شاهد هناك اضطهاد المسيحيين على يد دقلديانوس ومن بعده جاليريوس . وسواء كان تعاطف وميل قسطنطين نابعاً عن ايمان أو راجعا إلى فطنة سياسية ، فلا شك أن موقفه هذا خدم طموحه وأغراضه السياسية . فى الوقت الذى اتخذ قسطنطين جانب المسيحية ونجح فى استغلال أخطاء منافسيه على العرش الامبراطورى والذين نكلوا بالمسيحية واضطهدوا اتباعها ، نجد أنه لايثير شكوك رعيته الوثنية . وكانت النتيجة أن المسيحيين فى كل انحاء الامبراطورية نظروا إليه على أنه زمز الخلاص وأمل المستقبل .

على أية حال فى الوقت الذى سار فيه قسطنطين فى سياسته الدينية على سياسة التسامح التى تم الاتفاق عليها فى ميلانو وحظى المسيحيون ورجال الدين المسيحى فى المناطق التى خضعت لسلطانه بامتيازات عديدة وحريات

واسعة ، لم يحاول ليسينيوس Licinius أن يكون جاداً فى تنفيذ اتفاق ميلانو، وكانت النتيجة أن مسيحى القسم الشرقى من الامبراطورية الخاضع له اخذوا ينظرون بحسد وغيره إلى زملائهم القاطنين فى القسم الغربى التابع لقسطنطين لما يتمتعون من نعم وامتيازات منحها لهم قسطنطين . وتطورت الامور بسرعة إلى نوع من انعدام الثقة بين ليسينيوس Licinius ورعيته المسيحية(٣٤) وابتداء من سنة ٣١٩ أو سنة ٣٢٠ م بدأ ليسينيوس اضطهاده للمسيحيين بحجة أنهم من صنائع قسطنطين أو على اتصال به فى وقت توترت فيه العلاقات بين ليسينيوس Licinius وقسطنطين(٣٥) ولكن تجدر الاشارة إلى أن اضطهاد المسيحين فى أواخر فترة حكم ليسينيوس لم يأخذ نفس صورة العنف التى شهدتها اضطهادات كل من دقلديانوس وجاليريوس(٣٦) . وهكذا وجد قسطنطين فرصته الكبرى وذريعته لمهاجمة ليسينيوس Licinius بحجة انقاذ مسيحى القسم الشرقى من الامبراطورية من اضطهاد الاخير(٣٧) . وتمخض الصراع بين المتنافسين عن انتصار ساحق لقسطنطين فى موقعة خريسوبولس Chrysopolis والتى وقعت فى ١٨ سبتمبر سنة ٣٢٣م . وهكذا حقق قسطنطين حلم حياته واصبح سيد الامبراطورية الرومانية الوحيد (٣٨) .

وكان كل مايشغل بال قسطنطين أن يظل سيداً مطلقاً لامبراطورية موحدة ، وبهذا حرص طوال فتره حكمه إلا يثير شكوك رعيته الوثنية والتى تمثل معظم سكان امبراطوريته(٣٩) وإذا كان قد سمح للمسيحيين بممارسة طقوس دينهم واعاد إليهم املاكهم المصادرة ، وأباح لهم حرية بناء كنائس جديدة بل وجعل خزانة الدولة تشارك فى بناء عدد من الكنائس ، إلا أنه لم يصدر ضد الوثنية مرسوم اضطهاد ، أو حتى مارس أي شكل من أشكال الاضطهاد

ولكن لاشك أنه أدرك ببعد نظره وبصيرته أن نجم الوثنية إلى أفول ، وأنها تسير إلى نهاية محتومة فلم يحاول أن يبعث فيها الحياة ولم يتعجل يوم نهايتها ايضا . وكانت سياسته تجاه المسيحية نقطة تحـــول خطيره فى تاريـخ الإنسانية (٤٠) .

ولأن قسطنطين كان مهتما بوحدة الامبراطورية ، نجد أن حدوث أى انقسام أو جـدل بين المسيحيين رغم قلة عددهم كان يزعجه لأنه يمكن أن يؤدي بطريقة أو أخرى إلى التأثير على وحدة الامبراطورية . ومن هنا جاء اهتمام الامبراطورية بحل الخلافات التى تعانى منها الكنيسة . وكانت الحركات الدينية التى تخرج على اجماع رجال الدين داخل الكنيسة تسمى هرطقات . وعلى هذا نجد حين ظهرت الهرطقة الدوناتية فى كنيسة شمال أفريقيا نجد قسطنطين يبذل جهدا كبيراً من أجل حلهـا . نفس الشىء يتكرر مع الحركة الدينية التى عرفت باسم « المليتية » Melitian والتى تركزت فى مصر (٤١) . ثم ظهرت بعدها الحركة الدينية الهامة التى تعرف بالاريوسية نسبة إلى أريوس Arius رجل الكنيسة السكندري . وترجع أهمية الحركة الاريوسية التى ظهرت أول الأمر فى كنيسة الاسكندرية إلى أنها طالت وأثارت الجدل والخلاف الدينى فى كل كنائس القسم الشرقى من الامبراطورية ، بمعنى أن الاريوسية لم تقتصر على النطاق المحلى لكنيسة الاسكندرية بل انتشرت فى كل مكان واصبحت حديث الناس فى كل الولايات الشرقية للامبراطورية .

ولاشك أن فترة الاضطهاد التى قاست منها المسيحية ، وبالذات أيام دقلديانوس ، هى التى سببت ما ظهر فى الكنيسة من أمور الجدل حول العقيدة

والتخاصم حول مسألة التنظيم الكنسي ، وهو امر اورث الكنيسة بصفة عامة شقاقاً ما بعده شقاق وسبب للدولة مشكلة ما كانت لتحل بسهولة . كذلك كان طبيعيا أن تنشأ الاتجاهات العقيدية الجديدة في الاسكندرية ، فقد كانت هذه المدينة لقرون مضت مركزاً النشاط الفكرى ، فلما ظهرت المسيحية وجاءتها كان من الصعب على الاسكندرية أن تتخلى في ظل المسيحية عن مركزها المرموق المتوسط بين الشرق والغرب والذى تلتقى فيه الثقافات المختلفة . وعلى هذا فقد قدر للاسكندرية أن تؤدى دوراً بارزا في فكر المسيحية وانتشارها ربما اكثر من أية مدينة أخرى ، ألم تقدم الاسكندرية للعالم المسيحى أشهر ابنائه في الفكر اللاهوتى وعلى رأسهم كلمنت السكندرى Clement of Alexandria (١٥٠ — ٢١٥ م) ، وأوريجن Origen (١٨٥ — ٢٥٤ م) وغيرهما ؟

كان الخلاف في الرأى بين أريوس Arius وانصاره من ناحيه، واسكندر اسقف الاسكندرية ومن بعده اثاناسيوس Athanasius من ناحية أخرى يدور حول مسألة شغلت أذهان رجال الفكر واللاهوت وآباء الكنيسة فترة طويلة من الزمن وهي العلاقة بين الأب والابن والروح القدس أو الكلمة المقدسة . أى أن الخلاف قام حول مسألة تحديد مكانة الابن في دائرة الثالوث المقدس . فيقول أريوس أن الابن مخلوق لا يساوى الاب في الجوهر، ليس الكلمة الحق الطبيعية للاب ، ليس حكمته الحقة . انما هو احد الخلائق ، ومن ثم فهو بطبيعته عرضة للتغيير والتغاير شأن كل الخلائق . والكلمة بعيدة عن جوهر الأب . وعلى هذا فني رأى أريوس وأتباعه أن الأب هو الاله الحق في مقابل الابن الذى ليس الهـا حقا . فهما متعارضان بالضرورة على أساس التعارض بين غير المخلوق والمخلوق . والسبب في هذا هو أن الكلمة (اللوجوس المتجسدة)

ليست هى الاله الحق . وبالتالى فاخرج من هذه الكلمة ليس هو الاله الحق ، بل مخلوق ، ولذلك فالابن مخلوق ومكانته أقل من مكانة الأب (٤٢) .

اما اثاناسيوس فقد رفض آراء اريوس وثار عليها وظل محافظاً على مبدأ المساواة فى الجوهر (اهوموسيه Homoousios) بين الأب والابن ، فى صلابة رأى ونفس طويل وذكاء . وقف اثاناسيوس بهذه الصلابة يحابه بها العالم اجمع بعد أن أوشك كله أن يصبح أريوسيا وتعرض بسبب ذلك للطرد من اسقفيته اكثر من مرة (٤٣) .

والجدير بالذكر أن آراء اريوس Airus كانت تتفق مع ثقافة الشرق وفلسفاته الهلنستية ، أما اثاناسيوس فكانت آرائه تتفق مع بساطة الفكر الشائعة فى الغرب . والمعروف أن الغرب لم يعمل فكره ابداً من أجل العقيدة فقد كان دون متاهات لاهوتها ثقافة ومقدرة ولذا تعلق باثاناسيوس وجعل من قضيته قضية وربطها بايمانه وظل وفيا له حتى مات .

على أية حال استمر الخلاف بين اتباع أريوس واثاناسيوس حتى بعد موتهما وعقدت فى خلافهما عدة مجامع دينية كبرى تعرف باسم المجامع المسكونية وهى مجامع عالمية تشترك فيها جميع الكنائس المسيحية ، ويعتقد المسيحيون ان قرارات هذه المجامع كان يوحى بها من الرب وان طاعة هذه القرارات امر واجب وأساسى .

اصيب قسطنطين بخيبة أمل كبيرة حين اكتشف - بعد أن أصبح سيداً لكل الامبراطورية - الانقسام الذى استفحل خطره فى كنائس الاسكندرية

والمشرق ، بسبب النزاع حول آراء أريوس Arius ، وكان من أسباب حزن قسطنطين أن يرى فى موطن المسيحية ، الشرق أمله ، انقساماً . ولو كان الخلاف الدينى انحصر فى الجدل بين أريوس واسكندر ، أو بين أريوس وأثاناسيوس داخل أبواب الكنيسة ، ماكان الامبراطور ليهتم به / ولكن أن يخرج هذا هذا الخلاف من باب الكنيسة وينتشر بين النـاس على جهلهم فهذا أمر آخر جد خطير يهدد وحدة وسلامة الامبراطورية ، عزم قسطنطين على تداركه منذ البداية . وعلى هذا قام الامبراطور بالدعوة إلى عقد أول مجمع مسكونى دعيت إليه كل كنائس الامبراطورية فى الشرق والغرب ، وقرر قسطنطين عقد المجمع فى مدينة نيقيه Nicaea فى اقاليم بثينيا فى آسيا الصغرى .

على أيه حال فى ٢٠ من مايو سنة ٣٢٥ م افتتح مجمع نيقيه أولى جلساته. وحضر هذا المجمـع المسكونى الأول حـوالى ٢٧٠ أسقفا (٤٤) . وفى الجلسة الافتتاحية القى الامبراطور قسطنطين خطابا هاماً اوضح فيه أنه ينظر دائما إلى اليوم الذى تعتنق فيه كل الامبراطورية العقيدة المسيحية بالاقتناع وليس بالاضطهاد . كذلك ذكر لاعضاء المجمع ماكان دائما يردده عن كون المسيحية هى الدين الحق لان اله الكون قدم له المعجزات التى قادته فى رحله مقدسة من بريطانيا إلى الشرق . ثم راح يحـدثهم بعد ذلك عن الأسباب التى دفعته إلى توجيه الدعوة اليهم للاجتماع وامله الكبير فى أن تلتقى أراؤهم على قول واضح لاخلاف عليه حتى تتحقق الوحدة ويسود السلام . على أية حال اصيب قسطنطين بخيبه أمل كبيره حين اكتشف أن المسيحين يختلفون حـول جوهر العقيدة المسيحية. أما عن المجتمعين فى نيقية فقد اتفقوا على أدانه الأريوسية واعتبارها هرطقة . ولم تنتهى مشكلة الأريوسية عند هذا الحد ، ففى المجمع الدينى المحدود

الذي عقد في صور سنة ٣٣٥ م ناصر المجتمعون الاريوسية ، ولكن مالبث الأمر أن تبدل بشكل نهائي في المجمع الديني الذى عقد في القسطنطينية سنة ٣٨١ م بدعوة من الامبراطور تيودوسيوس الأول (٣٧٩ - ٣٩٥ م) أذ أصدر المجتمعون فيه، بتأثير من الامبراطور قرارهم ، بادانه الاريوسية كهرطقة (٥).

وجدير بالذكر أن الخلافات الدينية داخل الكنيسة الشرقية بين انصار أريوس وانصار اثاناسيوس ، وجدت طريقها إلى عامة الناس ولم تعد قاصرة على رجال الدين وهكذا انتقل الجدل الديني إلى الشارع في القسطنطينية وبدأ رجل الشارع يتساءل ويفكر وشيئا فشيئا بدأ يستمتع بتلك المناقشات التي لاتنتهي حول طبيعة السيد المسيح ومكانته في الثالوث المقدس ولقد اكد هذا جريجوري اسقف نيسا Nyssa حين زار القسطنطينية حوال سنة ٢٧٠ م بقوله

« إذا اردت أن تغير قطعة من العملة الفضية ، فإن الرجل الذى يغيرها لك سيخبرك بماذا يختلف الابن عن الأب ، وإذا سألت عن ثمن رغيف الخبز ستسمع ضمن اجابة الخباز أن الابن أقل درجة من الاب ، وإذا استفسرت عما إذا كان الحمام معداً ، ستسمع ضمن الاجابة من القائم على الخدمة في الحمام العام ، أن الابن خلق من العدم »(٦) .

هذه صورة لاهتمامات الناس في القسطنطينية (في الربع الاخير من القرن الرابع) العاصمة المنيعة لدولة أصبح لها دين عالمي واحد هو المسيحية . على أية حال من هذه العاصمة المنيعة و بهذا الدين العالمي تبرز الملامح الأولى لدولة

قدر لها أن تعمر اكثر من الف عام اطلق عليها المؤرخون فيما بعد اسم الامبراطورية البيزنطية .

يمكن القول أن خلفاء قسطنطين ، الذين حكموا فى مدينته القسطنطينية ـ باستثناء العهد السريع العارض للامبراطور جوليان المرتد(٣٦١ ـ ٣٦٣) ـ كانوا مجموعة من الاباطرة الذين افتقروا إلي مؤهلات قسطنطين من حيث الكفاءة الادارية ، أو البراعة فى فن الحرب والقتال ، أوفى بعد نظره وحكمته. اما ذلك العهد السريع العارض للامبراطور جوليان المرتد (٣٦١ ـ ٣٦٣ م) فله أهميته التاريخية لان الوثنية كانت لها فيه صحوة ، وكانت هذه الصحوة تشكل مشكله أساسية واجهت المسيحية بعد الاعتراف الرسمى بشرعيتها[٤٧]. وطوال عهد هذا الامبراطور الذى دام عامين سيطر على المسيحيين نوع من الرعب والفزع وخوف الاضطهاد [٤٨] اما الجموع الوثنية فقد راحت تعبر عن مشاعرها الحبيسة طيلة خمسين عاما المضطرمة بالحقد والكره الدفين للمسيحية واتباعها . على أيه حال كانت صحوة الوثنية هذه مؤقته ولم يقدر لها الاستمرار لان جوليان حاول أن يضع عقارب الساعة إلى الوراء إلى الوثنية بعباداتها المتعددة واضطهادها للمسيحية وبمقتل الامبراطور ٣٦٣ م انتهت هذه الصحوة العارضة .

كانت مشاكل خلفاء قسطنطين تدور فى معظمها حول قرارى ذلك الامبراطور العظيم إلا وهما : العاصمة المنيعة القسطنطينية ، وديانة الدولة المسيحية . بمعنى أن مشاكل خلفاء قسطنطين كانت تدور فى الواقع حول كيفية مواجهة البرابرة فى الخارج (الدفاع عن عاصمتهم المنيعة) والهراطقة فى

الداخل (محاولات التوفيق بين المذاهب المسيحية والمذهب الرسمي للدولة) . وفي مواجهة كلتا المشكلتين يمكن القول ان خلفاء قسطنطين خسروا معارك عديدة ، ولكنهم كسبوا الحرب فى النهاية .

فبعد مرور أربعين عاماً على وفاة قسطنطين ، حدثت بعض الاضطرابات فى آسيا الوسطى (حاول بعض علماء المناخ ارجاع أسبابها إلى حدوث جفاف مفاجىء) كان من نتيجتها ان تحركت قبائل الهون المتبربرة غرباً (٤٩) . ويبدو أن الهون Huns كانوا غاية فى الوحشية والضراوة لدرجة ان كتابات المعاصرين لتلك الاحداث صورت تقدمهم غربا كما لو كان غزواً قام به اناس من كواكب بعيدة غريبة على كوكب الارض (٥٠) ولقد نتج عن تقدم الهون غربا حدوث هجرات بشرية على نطاق واسع ، اذ اهتز العالم التيوتونى واخذت القبائل الجرمانية تهرب امام هجوم الهون المتبربر غربا (٥١) ونتيجة لضغط زحف الهون غربا اضطرت قبائل جرمانية بأكملها الى عبور حدود الامبراطورية الرومانية بحثاً عن الطعام والمرعى ومن هذه القبائل : القوط الغربيون Visigoths والوندال Vandals ،والبرجنديون ومن بعدهم الفرنجة .
لم تكن اعداد الجرمان ضخمة ولكنهم كانوا جنوداً من الطراز الاول ، وكان الضغط الذى يتعرضون له كبيراً (٥٢) . ولهذا لم يتوقف الجرمان بعد عبور حدود الامبراطورية إذ توغلوا إلى داخل أقاليم الامبراطورية فمثلا جاء الوندال من الاقاليم المحيطة ببحر البلطيق وتوغلوا داخل اقاليم الامبراطورية ، وبعد رحلة طويلة عبر أيطاليا واسبانيا استقروا فى شمال افريقيا . مثل آخر الفرنجة والبرجنديون عبروا الحدود إلى أقليم غالة وتوسعوا من قواعدهم هناك شرقاً . وهاجمت عناصر جرمانية اخرى مثل السكسون Saxons الجزر البريطانية (٥٣)

والجدير بالذكر ان القسم الشرقي من الأمبراطورية الرومانية ، شعر

الا بضغط هذه الهجرات البشرية . فنتيجة لضغط قبائل الهون ، اضطر القوط الغربيون الى التحرك غربا حتى وصلوا الى حد نهر الدانوب الذى كان يمثل جزءا من حدود الامبراطورية ، ولما استمر الضغط الذى يتعرضون له من الخلف استأذنوا الامبراطور فالنز Valens (٣٦٤ - ٣٧٨ م) ليسمح لهم بعبور النهر والاقامة داخل الاراضى الرومانية . وفى سنة ٣٧٦ م سمح لهم الامبراطور بالاستيطان فى اقليم تراقيا ومنحهم أرضاً هناك واشترط عليهم احترام السيادة الرومانية ، وكان من شروط الاتفاق ان ينزع القوط أسلحتهم ، ولكن سرعان ماوجدوا انفسهم فريسة سهلة للموظفين الرومان الذين استغلوهم اشنع استغلال لدرجة ان الموظفين كانوا يبيعون لهم الطعام بسعر باهظ ، وفى مقابل ذلك كانوا يشترون اطفالهم كعبيد . ولما ضاق القوط ذرعاً بهذه الحالة ثاروا ، ورفعوا السلاح .

وحين علم الامبراطور فالنز بثورتهم - وكان فى انطاكية - عاد مسرعاً فوصل القسطنطينية فى ٣٠ من مايو سنة٣٧٨م . وبدلا من انتظار الامدادات التى كانت فى الطريق اليه من القسم الغربى من الامبراطورية ، توجه لقتال القوط . والتقى الجمعان بالقرب من ادرنة Adrianopole ، وهزم الجيش الرومانى هزيمة ساحقة وقتل الامبراطور فالنز فى هذه الموقعة التى جرت فى ٩ من أغسطس سنه ٣٧٨ م . وتعتبر هزيمة الجيش الرومانى فى أدرنه أسوأ هزيمة منيت بها الجيوش الرومانية طوال خمسمائة سنة ، فقد قضى القوط تماماً على الجيش الرومانى المرابط على نهر الدانوب (٥٤) .

وخلال الثلاثين عاما التى تلت تلك الكارثة كان كل مايهم الرومان هو : معرفة اتجاهات تفكير زعماء الجرمان وماذا هم فاعلون . فى هذا الوقت كان الناس يقولون فى الغرب انه لايصــــدر قرار بغالة دون موافقة الفرنجة، ومع

وبعود القوط الغربيون بقيادة جايناس Gainas فى القسطنطينية والاريك Alaric فى الليريا يمكن القول ان نفس الشيء كان يحدث هناك . فالذى حدث هو أن الحكومة الامبراطورية جندت اعداد من الجرمان بقادتهم ضمن الجيش الرومانى وذلك فى عهد الامبراطور ثيودوسيوس الاول Theodosius I (٣٧٩ – ٣٩٥ م) واستمر هذا النظام لبعض الوقت بعد وفاة هذا الامبراطور. على أية حال فى ٣٩٧ م تقريبا عينت الحكومة الامبراطورية الزعيم القوطى الاريك Alaric قائداً للفرق الرومانية المرابطة فى الليريا Magister Militum per Illyricum (٥٥) ، كذلك تم تعين القائد القوطى جايناس Gainas قائداً لفرق الجيش الرومانى المرابطة بالقرب من العاصمة القسطنطينية Magister Militum praesentalis (٥٦) وفى يناير سنة ٤٠٠م دخل جايناس بجنوده القوط داخل العاصمة القسطنطينية وأثار بالتالى حفيظة سكان العاصمة الذين كرهوا وجود البرابرة داخل عاصمتهم فضلا عن تعرضهم لسلب الجنود القوط ، ونجح جايناس فى فرض سيطرته الفعلية على الامور فى العاصمة القسطنطينية فى وجود الامبراطور اركاديوس Arcadius (٢٩٥ – ٤٠٨ م)

على اية حال كانت المشكلة الرئيسية التى تواجه الحكومة الامبراطورية هى ايجاد مأوى مناسب للبرابرة الجرمان ، مكان تختاره وتحدده الادارة الامبراطورية حتى تتمكن من اعادة بناء خطوط دفاعية جديدة وحتى يتم تجنيد جيش جديد يتمركز على هذه الخطوط الدفاعية التى انهارت عقب كارثة ادرنه . هذه المشكلة التى واجهت الحكومة الامبراطورية لم تكن مشكلة سهلة ، ولقد استطاع رجال الادارة الامبراطورية فى القرن الخامس الميلادى

حل هذه المشكلة بشكل مؤقت عن طريق دفع مبالغ من المال لزعماء الجرمان وتوجيهم بذكاء فى اتجاه الغرب .

وكانت المشكلة العاجلة - التى كانت لاتحتمل اى انتظار - هى كيفية اخراج البرابرة (القوط الغربيون) من القسطنطينية وجعل هذه العاصمة المنيعة خالصة لأهلها على أية حال تم حل هذه المشكلة بضربة حظ أو صدفة ، وهى واحدة من تلك الحوادث والصدف المثيرة التى اعادت نفسها مرات كثيرة فى ظروف مختلفة طوال تاريخ الدولة البيزنطية

وقع هذا الحادث فى ١٢ من يوليو سنة ٤٠٠ م ، ونعتمد هنا على رواية الاسقف سينسيوس Synesius (٥٧) . فتقول الرواية ان جزءاً من الجيش القوطى كان فى داخل القسطنطينية ، وكان الجزء الباقى خارجها حين قام القائد القوطى جايناس Gainas بعمل تغير وردية لجنوده ، واختار وقت الفجر حتى يتجنب اى شغب من جانب العامة الذين كانوا لايخفون كراهيتهم للجنود القوط وبينما كان الجنود خارجين من العاصمة بكل مهماتهم (بما فيها الاسلاب التى اغتصبوها من سكان العاصمة) ويقتربون من بوابة الخروج ، مروا بامرأة متسولة ، وما ان رأتهم المرأة حتى اخذت تصيح بعبارات سباب ضد البرابرة القوط وعلى الفور قام احد جنود القوط برفع سيفه ليقتلها ، فتدخل رجل لانقاذها ، وبسرعة تطور الامر الى شغب وهياج بين العامة والجنود القوط داخل المدينة . وفى الحال اغلق بعض رعاع العاصمة بوابة المدينة ، ونتج عن ذلك ان القوات القوطية المرابطة فى الخارج انتابها الخوف وتراجعت اما بالنسبة للجنود القوط الموجودين داخل العاصمة فقد حاصرهم سكان المدينة وقضوا عليهم فى شوارع المدينة .

على أية حال اذا كان التاريخ ملىء بالحوادث ، فلا شك أن البعض منها يكون له بالعودة اهمية كبرى (٥٨) مثل حادث المرأة المتسولة عند بوابة القسطنطنية الذى رواة لنا الاديب سينسيوس Synesius الذى عاصر تلك الاحداث . فرغهم ان سنة ٤٠٠ م لم تكن اخر سنه وجد فيها برابرة جرمان فى خدمه الامبراطور ، الا انها كانت تحدد نهاية وجود الجنود البرابرة داخل اسوار العاصمة ، ومنذ ذلك التاريخ اصبحت القسطنطينية سيدة بيتهـا . (٥٩)

كانت المشكلة التالية لرجال الادارة الامبراطورية هى مشكاة «الهون» Huns ، فقد استطاع «الهون» بقيادة اتيلا Attila أن يسودوا كل النطاق الجرمانى الشمالى . ولم يكن أمام الادارة الامبراطورية فى القسطنطينية سوى ان تشترى الوقت وذلك بدفع مبالغ كبيره من المال لاتيلا (٦٠) ، وربما تكون الادارة الامبراطورية قد ادركت ان امبراطورية الهون - التى ضمت اقاليم شاسعة فى فترة زمنية قصيرة انما تقوم حول شخص اتيلا نفسه .

على ايه حال قدمت العاصمة المنيعة بسيطرتها على المضايق (البسفور Bosporus ، بحر مرمرة ، مضيق الدردنيل Dardanelles) الفائدة المرجوة . فقد اصبحت اقاليم آسيا الصغرى يصعب الوصول اليها ، وغدت بعيدة عن مسرح غزوات الجرمان ، وأصبح فى امكانها بالتالى ان تقدم المال السائل (وكانت الضرائب الزراعية يتم تحصيلها بالعملة الذهبية Solid) الذى مكن حكومة القسطنطينية من دفع الجزية التى طلبها اتيلا وكسب رضاه . وعلى هذا وفى سنه ٤٥١م إتجة أتيلا غربا ليلقى هزيمته من الجيش الرومانى الخاص بالقسم الغربي من الامبراطورية الرومانية في موقعة تروا Troyes فى سهل

شالون Chalons وكان الجيش الرومانى بقيادة اتيوس Aetius الذى كان يعاونه فى هذه المعركة جماعات جرمانية على رأسها قوة من القوط الغربيين (٦١) وتعتبر موقعة تروا Troyes هذه من المواقع الهامة فى تاريخ الغرب الاوربى لان انتصار الرومان قد اوقف تقدم اتيلا الى الغرب .على اية حال ، غير اتيلا اتجاهه الى الجنوب حيث هاجم ايطاليا ، وحاصر روما ، ولكنه عدل عن الحصار عندما دفعت له مدينة روما جزية . لهذا رجع اتيلا بجيوشه شمالا على انه مالبث ان توفى سنة ٤٥٣ م وبوفاته تفككت قواته وذهبت إمبراطوريته ادراج الرياح .

ويمكن القول أنه إذا كان اباطرة القسم الشرقى من الامبراطورية قد هزموا فى موقعة ادرنه Adrianople سنة ٣٧٨ م وعدد قليل آخر من المواقع إلا أنهم انتصروا فى النهاية وتخلصوا من الجرمان .واتضحت معالم المستقبل بالنسبة لهذا القسم الشرقى من الامبراطورية ، فلن يكون هناك جايسرك الوندالى Gaiseric ، ولا كلوفس Clovis الفرنجى أو غيرهما من زعماء القبائل الجرمانية ، في القسطنطينية ويمكن أن نلاحظ هذا التباين والاختلاف بين حاضر ومستقبل كلا من القسم الشرقى والقسم الغربى من امبراطورية الرومان فى الأدب الذى قدمه ذلك العصر فبالنسبة لكبار رجال الكنيسة فى الغرب الاوربى في مطلع القرن الخامس الميلادى ، مثل القديس أوغسطين st . Augustine اسقف هيبو Hipp (٦٢) ، وسالفيان المرسيلى SalvianofMarseilles (الذى يعتبر أبو علم الاجتماع فى الغرب الاوربى) (٦٣) ، كان العالم يائساً بشروره وعلى الإنسان أن ينتظر بسلبية خلاصه فى السماء . ولقد عبر الاول عن هذه المعانى فى مؤلفه مدينة الله De Civitate Dei وعبر الثانى عنها فى مؤلفه المعروف باسم « حكومة الله » De gubernatione Dei ولاشك أن كلا

المؤلفين يقدمان صورة قاتمة للاحوال السيئة التى سادت الغرب الاوربى وقت غزوات البرابرة الجرمان (٦٤)

ولكن بالنسبة لاثنين من مؤرخى الكنيسة فى الشرق فى منتصف القرن الخامس الميلادى، وهما سقراط Socrates (٦٥) وسوزومن Sozomen (٦٦)، كان هناك الامل بل كان هناك البهجة ايضا. لذلك لم يكن غريبا ان يؤدى طريق او غسطين وسالفيان الى كارثة سنة ٤٧٦م، وهى السنة التى شهدت عزل رومولوس أجستولوس Romulus Augustulus أخر امبراطور رومانى فى الغرب على يد احد زعماء البرابرة الجرمان، واعلنت بالتالى نهاية القسم الغربى من الامبراطورية الرومانيه (٦٧). واذا كان طريق اوغسطين وسالفيان قد ادى فى النهاية الى سقوط الغرب الاوربى وقيام ممالك جرمانية على انقاضة، فان طريق سقراط وسوزومن، بالامل والتفاؤل، حمل بشرى نجاة القسم الشرقى من امبراطورية الرومان الذى كتبت لة حياة جديدة تعرف باسم الامبراطورية البيزنطية.

على أية حال، توقف سقراط Socrates فى تاريخة عند سنة ٤٣٩م وكلة ثقة فى مستقبل الكنيسة، الا انه لم يصب فى هذا. فاذا كانت مشكلة البرابرة الجرمان فى الخارج على وشك ان تحل، فان مشكلة الهراطقة داخل الامبراطورية كانت على وشك أن تبدأ مرحلة اخرى

١ الهراطقة من الداخل ١

سبق ان بينا كيف شعر الامبراطور قسطنطين بخيبة الامل بسبب النزاع الذى اثارة أريوس واتباعة بخصوص العلاقة بين الاب والابن، وكيف دعى الامبراطور لعقد اول مجمع مسكونى سنة ٣٢٥م من أجل حسم هذا النزاع

الدينى دونجدوى ، إلا أن الامبراطور ثيودوسيوس Theodosius قضى على مذهب أريوس بالاضطهاد فى نهاية القرن الرابع الميلادى (وأن كان لم يقضى على الجرمان الذى اعتنقوا هذا المذهب) . على أية حال فى القرن الخامس ثار نزاع آخر ، اكثر حدة وأشد عنفاً ، بخصوص مدى اندماج العنصر الانسانى والعنصر الالهى فى شخص السيد المسيح ، وبالتالى طبيعة السيد المسيح فقد ركز نسطور Nestorius بطريرك القسطنطينية وإتباعه من بعده على العنصر الانسانى (٦٨) وعلى الفور ثار نزاع دينى من جديد كان فيه بطريرك الاسكندريه هو الطرف الآخر. وبسرعه أدين نسطور وأتباعه ، وتم التخلص منهم وتفيهم ليعيشوا كأقلية لاجئين فى بلاد ما بين النهرين خارج حدود الامبراطورية إلا أن النزاع الدينى سرعان ماتجدد . فاذا كان النساطرة قد اكدوا على العنصر الانسانى ، فان المونوفيزيين Monophysites (أصحاب مذهب الطبيعة الواحدة) بزعامة كنيسة الاسكندرية أكدوا على العنصر الالهى وبالتالى على الطبيعة الالهية الواحدة التى اسوعبت كل شىء (٦٩) . ونشب نزاع دينى بينهم وبين انصار المذهب الصحيح (الارثوذكسى) - وهو المذهب الرسمى للدولة - الذين احتفظوا دائما بذلك الموقف الوسط الذى يمكن وصفه بأنه لايقسم الاشخاص ولايخلط المادة .

كان هذا النزاع الدينى الجديد والمعارك التى صاحبته اكثر خطورة (من الناحية السياسية) على الامبراطورية من النزاع الذى أثاره أريوس Ariu وإتباعه من قبل . والسبب فى ذلك أن الانتماء الاقليمى اخذ يعبر عن نفسه فى شكل الطائفية الدينية. فقد مالت الاجزاء الجنوبية الشرقية من الامبراطورية - وتضم ولايات الشام وفلسطين ومصر - تجاه المذهب المونوفيزى (مذهب

الطبيعة الواحدة) بينما كانت آسيا الصغرى والبلقان تتبعان المذهب الصحيح (الارثوذكسى) ، وكان بابا روما ومن خلفه الغرب الاوربى يتبع المذهب الصحيح (الارثوذكسى) أيضا

ولقد عقدت ثلاثة مجامع دينية من أجل حسم تلك الحرب اللاهوتية . ففى مجمع افسوس Ephesus الاول سنة ٤٣١ م أدان الاساقفة المجتمعون تعاليم نسطور Nestorius واتباعه، وفى هذا المجمع ظهر الدور القيادى الذى أخذت تحظى به كنيسة الاسكندرية وعلى رأسها البطريرك سيريل Cyril . وحين عقد مجمع افسوس Ephesus الثانى فى سنة ٤٤٩م تأكد دور كنيسة الاسكندرية فقد جاءت قرارات هذا المجمع تؤيد المذهب المونوفيزى (مذهب الطبيعة الواحدة) وتؤكد المكانة السامية التى وصلت لها كنيسة الاسكندرية بقيادة بطريركها الجديد ديسكوروس Discorus . ولم يكن هذا شيئا ترضى عنه كنيسة روما أو كنيسة القسطنطينية [٧٠] . ولذا تجدد الخلاف الدينى واضطر الامبراطور إلى الدعوة لعقد مجمع مسكونى هو مجمع خلقدونة سنة ٤٥١م ومنذ البداية كانت النية واضحة أن اتجاه هذا المجمع هو القضاء على مكانة كنيسة الاسكندرية التى اخذت ترتفع بالتدريج ، وذلك بادانة مذهب الطبيعة الواحدة. وبالفعل وبعد مناقشات طويلة وضغط من جانب الامبراطور ، جاءت قرارات مجمع خلقدونة المسكونى الرابع وقد أدانت المونوفيزية (مذهب الطبيعة الواحدة) وأكدت المذهب الرسمي للدولة إلا وهو المذهب الصحيح (الارثوذكسى) . ونصت قرارات هذا المجمع على وجود طبيعتان متميزتان واحدة بشرية وأخرى الإهية لاتنفصلان فى شخص السيد المسيح الواحد [٧١]

ومنذ ذلك الوقت وقع الامبراطور في مشكلة دائمة . فاذا أيد المونوفيزيين

(أصحاب مذهب الطبيعة الواحدة) فانه يكسب بهذا ولاء الولايات الجنوبية الشرقية من امبراطوريته ، ولكنه سيثير فزع بطريرك القسطنطينية ، وإذا استطاع الاحتفاظ بآسيا الصغرى والبلقان – وهذا أمر مشكوك فيه – فانه من المؤكد سيخسر ممتلكاته فى الغرب فضلا عن البابا وكنيسة روما . أما إذا ظل على مبدأ كنيسة القسطنطينية وفى جانبه البابا ، فانه يثير كراهية وبغض الولايات الجنوبية الشرقية من امبراطوريته . ولقد حاول الاباطرة ورجال الدين والمهتمين بعلم اللاهوت البحث عن صيغة وسط ترضى جميع الاطراف، ولكنهم فشلوا فى ايجاد تلك الصيغة الواحدة التى يرضى عنها الجميع فنى كل مرة حاول أحد الاباطرة تقديم صيغة وسط لمشكلة طبيعة السيد المسيح ، رفضت ولايات مصر والشام وفلسطين حتى مجرد التفكير فيها . وتطورت الأمور شيئا فشيئا وارتبطت الاقليمية بالطائفية لدرجة أن المؤرخ السريانى المونوفيزى زكريا المتيلينى Zachariah of Mytilene يصور القوات البيزنطية فى الاسكندرية كما لو كانوا جنود جيش احتلال (٧٢)

على أية حال كان اضطهاد الحكومة البيزنطية للمونوفيزيين عاملا من العوامل التى أدت إلى ترحيب سكان ولايات مصر وفلسطين والشام بالفاتحين العرب ، وهكذا سقطت تلك الولايات كالثمار الناضجة فى يد العرب المسلمين فى القرن السابع الميلادى (٧٣) . لاشك أن الامبراطورية خسرت ولايات لها أهميتها الإقتصادية ، ولكن تلك الخسارة لم تعتبر فى نظر الحكومة البيزنطية كارثة كبرى . فما بقى تابعا لحكومة القسطنطينية من أقاليم ، مثل أقاليم آسيا الصغرى وأقاليم شبه جزيرة البلقان ، أصبحت تشكل وحدة سياسية وحضارية قائمة بذاتها مترابطة . وكانت ادارة تلك الاقاليم مركزية تتركز فى القسطنطينية

المدينة التى فاقت فى أهميتها كل المدن الاخرى، وبضياع ولايات مصر والشام وفلسطين يمكن القول أن مشكلة النزاع المذهبي حول طبيعة السيد المسيح قد انتهت فى الواقع داخل نطاق الامبراطورية البيزنطية وهكذا ثبت أن سقراط Socrates كان محقا فى تفاؤله الذى عبر عنه منذ أكثر من قرنين من الزمان .

على أية حال كانت الكنيسة الامبراطورية والعاصمة المنيعة ثمار عهد الامبراطور قسطنطين العظيم . فبحكمته و بصيرته قدم هذا الامبراطور لدولته دينا جديدا ليكون رمزاً ، لوحدتها ، وعاصمة جديدة منيعة ظلت شامخة طوال ألف عام تفخر بانها المدينة الوحيدة التى إستحقت أن تحمل لقب « مدينة » طوال العصور الوسطى. وأمام هذا كله لايسع الباحث إلا أن يعتبر قسطنطين العظيم بحق مؤسس الامبراطورية البيزنطية .

هوامش

الفصل الأول

١ - أعتلى الامبراطور دقلديانوس *Diocletianus* عرش الامبراطورية حين نادى به الجيش الرومانى امبراطوراً فى العشرين من نوفمبر ٢٨٤ م ، والمعروف ان دقلديانوس ينتمى إلى اسرة بسيطة ، ولكنه إستطاع ان يرتقى فى سلك الجندية حتى أصبح قائداً للحرس الامبراطورى . ويقترن اسم هذا الامبراطور بأعنف وآخر اضطهاد للمسيحية . ولكن مما لاشك فيه أن دقلديانوس بذل جهدا كبيرا من أجل اصلاح أحوال الامبراطورية وكانت أهدافه تتلخص فى العمل على استقرار أحوال الامبراطورية باعادة تنظيم ادارتها ، واعادة تنظيم الجيش وزيادة عدده ، واصلاح الادارة المالية فى الامبراطورية وترشيد مواردها للمزيد عن عهد هذا الامبراطور أنظر :

La tac VII 361 3 VII. 189 -

276) *Eusebius*, *Ecclesiastica*, I, 73 - 387 (- *PG* XX.

45 - 906) ; *Seston*, *Dioclètien*.

٢ - عن نهاية الحكم الرومانى فى بريطانيا وتاريخه أنظر

Jones, *Decline*, 7 and 8

٣ - ال *Notitia Dignitatum* عبارة عن قوائم أو سجل للوظائف الادارية والمناصب العسكرية فى الامبراطورية الرومانية ، ويتوقف السجل فى القسم الشرقى من الامبراطورية فى سنة ٤٠٨ م أما فى القسم الغربى فيمتد حتى سنة ٤٢٣ م . ويعرف السجل الخاص بالقسم الشرقى باسم *Not. in*

Partibus Orientis ، أما ذلك الخاص بالقسم الغربى فيعرف باسم Not. in Partibus Occidentis والجدير بالذكر أن سجل الوظائف الادارية والمناصب العسكرية هذا يعتبر مصدرا من الطراز الأول بالنسبة لأحداث القرن الخامس الميلادى للمزيد أنظر

Notitia Dignitatum ; Bury Notitia , 131 54.

٤ - عن اللغة اليونانية البيزنطية وكيف تطورت من اليونانية الكلاسيكية الى اليونانية الوسيطة ، أنظر

Browning Greek 59 - 73.

وخاصة الفصل الثالث الخاص باللغة فى فجر التاريخ الوسيط

٥ - جيبون اضمحلال ، وخاصة الجزء الاول .

٦ - عن الفن البيزنطى أنظر الدراسات التالية

Ainalov, Byz. Art. ; Pierce. & Tyler, Art Byzantin Talbot Rice Art of Byzantium Weitzmann , Mythology

٧ - Cosma Isndicopleustes , 80.

المعروف أن كوزماس بدأ حياته كتاجر ورحالة مغامر ، وجاب فى

رحلاته بلدانا عديدة ، ثم دخل سلك الرهبنة بعد ذلك ، وكتب مؤلفاً حاول فيه أن يبين من واقع الكتاب المقدس ان الارض مسطحة

٨ - رأفت عبد الحميد الدولة والكنيسة ، ج١، ٤٦ . عن تفاصيل اصلاحات دقلديانوس المالية والعسكرية والادارية ، أنظر

Jones , Decline . 30. — 38.

٩ - من الناحية العملية قام كل من امبراطور القسم الشرقى ، وامبراطور القسم الغربى باختيار مساعديهما (وكان كل واحد منهما يحمل لقب قيصر) . كذلك قام كل امبراطور بتزويج ابنته للقيصر الذى اختاره ، أنظر :

Jones , Decline , 29.

وأنظر كذلك

جيبون اضمحلال ، ج ١ ، ٢٨٨ - ٢٩٠ ، محمد الشيخ دقلديانوس ، ٦ - ٧

١٠ - رأفت عبد الحميد : الدولة والكنيسة ، ج ١ ، ٤٦

١١ - *Jones* , Decline , 29.

١٢ - عن تفاصيل هذه الحرب الاهلية ، والدور الذى اخذ الجيش الرومانى

يلعبه وتدخله فى اختيار الاباطرة ، انظر :

جيبون : اضمحلال ، جـ ١ ، ٣١٣ـ ٣١٩ ؛

Brown , Late Antiquity . 22 - 24.

١٣ـ Jones Constantine , 71 - 72.

١٤ـ Jones , Decline , 30.

١٥ـ Jones Decline , 39.

١٦ ـ رأفت عبد الحميد : الدولة والكنيسة ، جـ١ ، ٦٥ . وانظر كذلك ،

Jones Constantine , 67.

١٧ ـ وفضلا عن الثراء الاقتصادى ، كانت اقاليم القسم الشرقى ذات كثافة سكانية . للمزيد عن موضوع توزيع الكثافة السكانية فى الامبراطورية الرومانية فى تلك الفترة انظر

Lot , Fin du Monde , 72 Stein , Geschichte , 1, 3 ; Ostrogorshy State , 44.

١٨ ـ بخصوص المراسم الامبراطورية التى اصدرها دقلديانوس لاضطهاد المسيحية ، انظر :

Jones , Constantine, 57 - 65.

١٩ - تم تجديد أسوار العاصمة فى عهد الامبراطور أناستاسيوس الأول *Anastasius I* (٤٩١ - ٥١٨ م) ، وبالتحديد فى سنة ٤٩٧ م وكان الغرض هو تأمين القسطنطينية فى اعقاب هجوم البرابرة على البلقان وتهديدهم للعاصمة سنة ٤٩٣ م ، انظر :

Bury , Roman Empire , *I* 435 , *n*. 5.

٢٠ - *Jones* Decline , 49.

٢١ - جيبون اضمحلال ، جـ١ ، ٤٩٨ .

٢٢ - وحتى يشجع عامة الناس على الانتقال الى مدينة الجديدة ، اعلن قسطنطين فى ١٨ من مايو سنه ٣٣٢ ، اعتزام الدولة توزيع ٨٠ الف حصة خبز يوميا فى القسطنطينية ، انظر :

Jones , Decline , 50.

٢٣ - *Jones* , Decline , 49.

٢٤ - قارن مختلف الاراء التى عبر عنها المؤرخون المحدثون كما وردت فى :

Batiffol , Paix , 256 - 59 ; *Maurice* , Constantine le Grand , 30 - 36 ; *Boissier* , Fin du Paganisme, *I*, 28; *Lot* Fin du Monde , 32 - 38 ; *Stein* , Geschichte , *I*, 146 - 47 *Grégoire* , Conversion , 264.

٢٥ ـ للمزيد عن مسيحية قسطنطين انظر الدراسة الهامة التى قدمها لنا د رأفت عبد الحميد : الدولة والكنيسة ، ج ١ ، ١٠٣ - ١٤٠ وأنظر كذلك

Jones , Con tantine 68 - 224.

٢٦ - يعتبر يوسيبيوس القيسارى *Eusebius of Caesarea* أحد معاصرى قسطنطين وشاهد عيان لعهدهَ . فقد كتب عن انتصار قسطنطين على ماكسنتيوس *Maxentius* فى خريف سنة ٣١٢ م وسجل ذلك فى مؤلفين هامين ففى مؤلفه الأول المعروف بتاريخ الكنيسة *Historia Ecclesiastica* ، يذكر يوسيبيوس أن قسطنطين خرج بجيشه لقتال ماكسنتيوس ، وفى الطريق « دعا فى صلاته لاله السماء ، والسيد المسيح منقذ الجميع » . وكما هو واضح لم يذكر هنا شىء عن الرؤيا أو الصليب . قارن :

Eusebius , *Ecclesiastica* IX , 9.

وفى مؤلفة الثانى عن حياة قسطنطين *Vita Constantini* (وهو مؤلف كتبه يوسيبيوس بهد انتصار قسطنطين على ماكسنتيوس بحوالى ٢٥ عاما)ـ يروى يوسيبيوس ان الامبراطور نفسه (اى قسطنطين)قص عليه القصة التالية واقسم له على صحتها .وملخص تلك القصة انه أثناء سير الامبراطور للقاء ماكسنتيوس ،رأى الأول (قسطنطين) ، حين مالت شمس النهار الى الغروب ، هالة تضىء كبد السماء تحيط بصليب كتب تحتـه بأحرف من نور Tauto Nika (او باللاتينية

ومعناها « بهذا تحقق النصر » ، نعقدت لسانه (Hoc Signo Vince

الدهشة . وفى الليلة التالية جاء السيد المسيح الى قسطنطين فى رؤيا حلم ، وهو يحمل نفس العلامة ، وامره ان يصنع شكلا للصليب يتقدم به ضد أعدائه ليحقق النصر . وبالفعل أمر قسطنطين رجاله بصنع ذلك الصليب ، انظر

Eusebius , *Vita Constantini* *I*, 29 – 30.

وانظر تعليق جونز على هذه القصة

Jones , *Decline* 40.

٢٧ ـ رأفت عبد الحميد الدولة والكنيسة ، جا ، ٨٠ - ٨١ ، وانظر ايضا:

Jones *Decline* 40.

٢٨ - *Jones* *Decline* , 42.

٢٩ ـ رأفت عبد الحميد الدولة والكنيسة ، جا ، ١١٤ .

٣٠ - عن مايعرف باسم مرسوم ميلان انظر

Seeck *Edikt Von Milan* , 381 — 86 ;

Seeck *Geschichte des Untergangs* , *I* 495

Vasiliev, *Byz. Empire* , *I*, 51.

٣١ - *Lactantius* , 48 *Eusebius* *Ecclesiastica*, *X*, 5.

وانظر كذلك : رأفت عبد الحميد : الدولة والكنيسه ، جا ، ١١٤

٣٢ ـ قارن نص مرسوم جاليريوس الصادر فى ٣٠ من ابريل سنة ٣١١ م فى : Lactantius, 34.

وهناك ترجمه عربية كامله له مع التعليق فى :

رأفت عبد الحميد : الدولة والكنسية ، جـ١ ، ٧٣ - ٧٤ .

٣٣ ـ فرغم صدور مرسوم جاليريوس قبل ذلك بعامين ، الا انه فيما يبدوا لم ينفذ بالشكل المرضى ، ولعل السبب فى ذلك هو وفاة جاليريوس بعد صدور المرسوم بأيام قليلة ، وقيام خلفه ماكسيمين Maximin باتباع سياسة الاضطهاد ضد المسيحية ، انظر:

رأفت عبد الحميد : لدولة والكنيسة ، جـ١ ، ٧٤ .

٣٤ ـ رأفت عبد الحميد الدولة والكنيسة ، جـ١ ، ٩٠ .

٣٥ ـ Jones Decline, 42

٣٦ ـ رأفت عبد الحميد الدولة والكنيسة ، جـ١ ، ٩٦ .

٣٧ ـ Jones Decline. 42.

٣٨ ـ رأفت عبد الحميد الدولة والكنيسة ، جـ١ ، ٩٨ .

٣٩ ـ كانت هذه سياسة حكيمة من جانب الامبراطور ، لأن المسيحيين

كانوا اقلية حتى ذلك الوقت ، وكانت الطبقات الارستقراطية ؛
والبيروقراطية الادارية ، والجيش فى معظمها طبقات وثنية ، أنظر :

Davis , *Medieval Europe* , 14.

٤٠ـ رأفت عبد الحميد الدولة والكنيسة ، حـ ١ ، ٢٦٩ .

٤١ ـ عن المشكلة الدوناتية ، والهرطقة المليتية ، انظر
رأفت عبد الحميد الدولة والكنيسة ، حـ ١ ، ١٤٣ ـ ١٦٣ ، ٢٠٦ ـ
٢١٥

٤٢ـ *Jones* , *Decline* , 42 43
وأنظر أيضا رأفت عبد الحميد الدولة والكنيسة ، حـ ١ ،
١٦٩ ـ ١٧٣

٤٣ ـ رأفت عبد الحميد : الدولة والكنيسة ، حـ ٢ ، ٥١٦

٤٤ـ *Jones* , *Decline* , 43

٤٥ـ *Jones* *Decline* , 46 , 134.

٤٦ـ *Gregory of Nyssa* , 557.

٤٧ ـ عن جوليان وارتداده للوثنية ، أنظر :

Jones , *Decline* , 59 — 62.

٤٨ - ويصف مؤرخ الكنيسة سوزومن *Sozomen* حالة المسيحيين وقتذاك بشكل دقيق في قوله

« لقد قاسى المسيحيون من عذاب التوقع والإنتظار لهذه الضائقة اكثر من معاناتهم لها بالفعل ، فقد مضى زمن الفوا فيه الدعة والآمان بعد طول هوان ، وطاف بخيالاتهم ويلات العذاب التى لقيها الآباء والأجداد من قبل زمن الاضطهاد ». أنظر

Sozomen, 1002 1003.

٤٩ - عن أسباب تحرك الجرمان إلى تخوم الامبراطورية ، أنظر

محمد الشيخ المماﻟك الجرمانية ، ١٤ - ١٥

٥٠ - عن الهون وتحركهم بين عامى ٤٣٣ ، ٤٦٨م بقيـــادة اتيلا *Attila* وهجماتهم على الامبراطورية ، ارجع الى ما بقى من مؤلف بريسكوس *Priscus of Panium*. فهذا المؤلف يعتبر مصدرنا الرئيسى الوحيد الذى عاصر تلك الاحداث وكان شاهد عيان لها ، فمن المعروف ان بريسكوس كان ضمن السفارة التى ارسلتهـا الادارة الامبراطورية للتفاوض مع اتيلا انظر :

Priscus of Panium [illegible] 121 255.

قارن ايضا :

Thompson, *Attila*; *Bury*, *Roman Empire*, I, 101 — 104, 271 — 313.

٥١ - *Jones*, *Decline*, 365.

٥٢ - عن أعداد الجرمان الذين أغاروا على الامبراطورية انظر :

Bury, *Roman Empire*, *I*, 104 - 105

٥٣ - محمد الشيخ : الممالك الجرمانية ، ١٩ - ٤٦ .

٥٤ - *Ostrogorsky*, *State*, 52 ; *Vasiliev*, *Byz. Empire*, *I*, 87; *Jones* *Decline*, 67-68

٥٥ - *Ostrogorsky*, *State*, 55 *Jones* *Decline*, 75.

٥٦ - *Ostrogorsky*, *State*, 55 ; *Jones* *Decline*, 75, 221.

٥٧ - *Synesius of Cyrene*, *Cols.* 1089 - 1091.

٥٨ - كان لذلك الحادث نتائج بعيدة المدى ، فقد ازداد الشعور المعادى للجرمان فى القسطنطينية والقسم الشرقى للامبراطورية بصفة عامة . كذلك تم اعادة تنظيم الجيش الرومانى فى هذا القسم على أساس عدم السماح بتجنيد فرق كاملة من الجنود البرابرة تحت إمرة قادتهم ، وبدلا من ذلك أصبح البرابرة الجرمان يجندون كمرتزقة وأكثر فى

ظل القيادة الرومانية وتحت إمرة قادة من الرومان ، أنظر

Grosse Militargeschichte, 262 f.

٥٩ - Bury Roman Empire, I, 133 - 34

٦٠ - Jones, Decline, 82.

٦١ - Bury, Roman Empire, I; 291 - 94.

٦٢ - كتب القديس أوغسطين مؤلفه « مدينه الله » فى الفترة ما بين ٤١٣م،
٤٢٦ م للرد على دعاوى الوثنيين الذين راحوا يفسرون سقوط روما فى
يد الأريك Alaric زعيم القوط الغربيين سنة ٤١٠ م على أنه دليل على
غضب الآله ، بسبب اعتناق الناس المسيحية . أنظر

Augustine, De Civitate Dei, 2 Vols.

قارن كذلك

Bury, Roman Empire, I, 302 - 305; Davis, Medieval Europe, 38 - 42.

٦٣ - كتب سالفيان مؤلفه « حكومة الله » De Gubernatione Dei بين
عامي ٤٣٩، ٤٥١م ، وعبر عن مشاعر المسيحيين فى الغرب الأوروبى
وحيرتهم وقت الدمار والاضطراب الذى عم بسبب غزوات الجرمان

للغرب . كما عبر عن الأسئلة التى أخذوا يبحثون عن إجابة لها ، مثل : كيف نكون نحن المسيحيون المؤمنون بالاله الحق ، نعيش فى مثل هذا الفقر والفزع والبؤس أكثر من غيرنا ؟ .

هل تخلى الله عن أمور هذا العالم ؟ ولماذا تغلب البرابرة الجرمان علينا ؟ أنظر للمزيد

Salvian of Marseilles, De Gubernatione Dei ;

Bury , Roman Empire , I, 307 — 308;

Jones , Decline , 337 , 368.

٦٤ - Bury Roman Empire , I, 307.

٦٥ - كان سقراط أحد مواطنى العاصمة القسطنطينية ، وأكمل كتابة « تاريخ الكنيسة » الذى بدأه يوسيبيوس Eusebius وغطى سقراط الفترة الممتدة من ٣٠٦ - ٤٣٩ م . أنظر

Socrates , 28 - 842 Vasiliev, Byz. Empire , I, 120

Bury Roman Empire , II 418.

٦٦ - كان سوزمن Sozomen من نواحى مدينة غزة بفلسطين ، وكتب لنا تاريخا آخر للكنيسة غطى فيه الفترة الممتدة من ٣٢٤ - ٤١٥ م أنظر

Sozomen, 843 - 1630, Vasiliev, Byz. Empire. I 120; Bury, Roman Empire. II, 418.

٦٧ ـ عن عزل أدواكر Odavacar (الزعيم الجرماني لقبائل الهرول Heruls، والروجيون Rugians) لآخر أمبراطور روماني في الغرب سنة ٤٧٦ م، أنظر تحليل

Bury, Roman Empire. I, 404 - 411.

٦٨ ـ عن تعاليم نسطور Nestorius، أنظر

Vasiliev, Byz. Empire. I. 98 - 99 Bury, Roman Empire, I, 351 - 54 Ostrogorsky State, 58 - 60; Jones, Decline. 85.

٦٩ ـ كلمة مونوفيزى Monophysite مشتقة من كلمتين كلمة Μόνος ومعناها «واحد»، وكلمة φύσις ومعناها «طبيعة»، فهو مذهب الطبيعة الواحدة، أنظر

Vasiliev Byz. Empire, I, 99 Bury, Roman Empire, I. 351, 355.

٧٠ ـ Bury, Roman Empire, I, 357 - 58; Jones, Decline, 86.

٧١ ـ Bury , Roman Empire I, 357.

٧٢ ـ Zacharis of Mitylene , Chronicle (Syriac) , 61.

والجدير بالذكر أن حولية زكريا هذه تغطى الفترة الممتدة من ٤٥٠ ـ ٤٩١ م .

٧٣ ـ Vasiliev , Byz. Empire , I, 209.

الفصل الثانى

الامبراطور جستنيان الاول وخلفاؤه

٥٢٧ — ٦١٠ م

- عالمية الامبراطورية
- ثورة نيقة
- طرق التجارة فى القرن السادس الميلادى
- كنيسة الحكمة المقدسة
- تقيم عصر جستنيان .
- جستنيان الامبراطور
- حروب جستنيان لاسترداد الغرب
- مجموعة القوانين المدنية
- سياسة جستنيان الدينية
- المشاكل التى واجهت خلفائه الفرس والآفار والسلاف

لما كان حكام الامبراطورية الرومانية يتمتعون بسلطان كبير فوق مساحة ضخمة من العالم المعروف فى نهاية العصر القديم ، فقد كانوا قادرين فى بعض الاحيان على توجيه الامبراطورية وجهة معينة ، وبالتالى تحديد مصير عصر بأكمله . إن فترة حكم الامبراطور جستنيان الاول *Justinian* امتدت من ٥٢٧م الى ٥٦٥م الا انه كان يشارك فى حكم الامبراطورية منذ ٥١٨م بشكل أو بآخر ، وبعد موته سنة ٥٦٥م اصبح على خلفائه ان يتصدوا للمشكلات الخطيرة التى نتجت عن سياسته . لكل هذا يمكن أن نعد القرن السادس الميلادى بحق قرن جستنيان ، كذلك فان جستنيان يعد آخر امبراطور رومانى يجلس على العرش البيزنطى ، لان جستنيان كان هو الذى قام بآخر محاولة ناجحة ليعيد توحيد كل اقاليم روما القديمة تحت حكم رجل واحد ، وليبعث الحياة من جديد فى الامبراطورية العالمية التى لا تنقسم والتى وجدت فى أيام اغسطس .

وكما سبق ان أوضحنا فى الفصل السابق ، فقدت الامبراطورية الرومانية فى القرن الخامس معظم قسمها الغربى ، واقام الجرمان عليه ممالك جرمانية فأقام القوط الشرقيون مملكة فى ايطاليا ، والقوط الغربيون مملكة أخرى فى اسبانيا ، ونجح الوندال فى اقامة مملكة لهم فى شمال افريقية ، والفرنجة مملكة قوية لهم فى غالة . اما بالنسبة للشرق ، فعلى حدود الامبراطورية الشرقية كانت تقع الامبراطورية الفارسية ، وكانت منافسا قويا لروما اكثر من أى مملكة من ممالك الجرمان . الا ان الفرس كانوا فى نظر الرومان مشكلة مألوفة ودائمة ، ولم تكن الأقاليم التى أقام الفرس فيها رومانية فى أى يوم من الأيام .

على أية حال فانه فى الوقت الذى تعرض فيه القسم الغربى من الامبراطورية للسقوط فى يد الجرمان لم تكن الادارة الامبراطورية فى القسطنطينية تستطيع تقديم العون له ، فوقفت عاجزة سلبية ، لأن الخطر الذى هدد القسم الشرقي من الامبراطورية والقسطنطينية أيضا كان كبيرا وكان على الادارة الامبراطورية فى القسطنطينية أن تتبنى سياسة شرقية Pars Orientalis ، تركز فيها القسطنطينية كل الجهد من أجل الدفاع عن ولاياتها الشرقية ذات الثراء الاقتصادى الأكبر ، وذات الكثافة السكانية الاكثر . (١) ونجحت الادارة الامبراطورية فى العاصمة فى الصمود أمام كل الاخطار الخارجية واجتازت اول اختبار لها من أجل البقاء فى القرن الخامس الميلادى .

ومع حلول القرن السادس الميلادى كان القسم الشرقى من الامبراطورية قد إجتاز بالفعل مرحلة الخطر السابقة ، وأصبحت الادارة الامبراطورية فى القسطنطينية فى مركز يمكنها من تبنى سياسة ايجابية تجاة الغرب ، بل وتحاول إسترداد الاقاليم المفقودة فيه . والجدير بالذكر أن فكرة وحدة الامبراطورية كانت لاتزال قوية فى أذهان الجميع ، على حين كانت الامبراطورية مقسمه الى قسمين لاغراض إدارية . كذلك أستمرت فكرة عالمية الحكم الرومانى قوية أيضا ولم تقض عليها الغزوات الجرمانية .(٢) وظل الامبراطور الرومانى يعد رأس العالم الرومانى Orbis Romanus ، والعالم اليونانى (المسيحى) Oikoumene أيضا . واذا كانت الاقاليم الغربية قد وقعت فى يد الجرمان ، فان الادارة الامبراطورية لم تعتبر تلك الاقاليم قد ضاعت منها الى الابد ، بل اعتبرتها فى حيازة مؤقتة تحت إدارة ملوك الجرمان . وكما هو معروف قام ملوك الجرمان من جانبهم ، ومنذ البداية ، بالاعتراف بالسيادة النظرية

للامبراطور الرومانى ، ومارسوا بالتالى سلطاتهم كاتباع وممثلين له . وفى ظل هذه الحقائق ، كان استرداد الاقاليم الرومانيه واجبا طبيعيا يقع على عاتق الامبراطور [redacted] بالنسبه للامبراطور جستنيان والكثيرين من معاصريه كان استرجاع الاقاليم الغربية هو الواجب الحقيقى والمقدس الذى يجب ان تتصدى له الادارة الرومانية لتخلص تلك الاقاليم المفقودة من نير حكم البرابرة الغزاة الذين اعتنقوا الهرطقة الاريوسية وفرضوها على سكان تلك الاقاليم من الرومان . أى العمل على العودة الى الحدود القديمة لامبراطورية رومانية واحدة لها ديانة واحدة هى المسيحية على المذهب الصحيح (الارثوذكسى) . (٣)
ويمكن القول ان جستنيان قد كرس معظم وقته وموارده لتحقيق هذا الهدف .

بالنسبه للظروف التى ادت الى اعتلاء جستنيان الاول العرش الامبراطورى فيمكن تلخيصها كالاتى حين توفى الامبراطور اناستاسيوس الاول *Anastasius I* (٤٩١ - ٥١٨م) انتهى عهد الاسرة الليونية ، وانتقل الحكم الى رئيس الحرس الامبراطورى المسمى جستين الاول *Justin I* الذى أسس اسرة جديدة واستمر حكمه من ٥١٨ - ٥٢٧م . وكان جستين هذا مزارع الليرى تتدرج فى سلك الوظائف العسكرية حتى أصبح فى سن الخامسة والستين يشغل منصب قائد الحرس الامبراطورى *Comes excubitorum* فى أواخر عهد الامبراطور اناستاسيوس الاول *Anastasius I* (٤) ويقال ان جستين هذا كان أميا ، أما عن ظروف اعتلائه العرش فيكتنفها الغموض .

على ايه حال لم ينجب جستين الاول ذكورا ، ولكن كان هنالك عدد

وفى العملات الذهبية والنحاسية الرائعة التى ضربت فى عهده .(١٠)

لا شك أن بروكوبيوس Procopius يعتبر المؤرخ الرئيسى لعصرجستنيان. فبحكم وظيفته كسكرتير ومثمن فى حاشية القائد بليزاريوس Belisarius من ٥٢٧م وحتى ٥٢٩م كان شاهد عيان للكثير من الاحداث الهامة التى وقعت فى عهد جستنيان والتى قام بتسجيلها مثل حروب الامبراطورية ضد الوندال Vandals ، والقوط ، والفرس ، التى سجلها فى مؤلف (من ثمانية كتب) عن تاريخ الحروب De bellis libri (١١) . كما كتب مؤلفا ثانيا يصف فيه إنشاءات الأمبراطور جستنيان المعمارية De Aedificiis .(١٢) ولكن ولاسباب ليست معروفة الا لشخص بروكوبيوس Procopius ، كتب لنا ايضا مؤلفا ثالثا هو التاريخ السرى لعصر جستنيان Historia Arcana (يبدو أنه كان للقراءة الخاصة) ، قدح فيه الامبراطور وزوجته ، واساء اليها واتهمهما بارتكاب اعمال الشر والخداع . وهكذا ظهر بروكوبيوس فى صورة الكاتب المنافق ، فهو يمدح جستنيان فى مؤلفيه الأولين ، ثم يعبر عن الحقد الذى يملأ قلبه فيشوه صورته فى تاريخه السري بشكل مثير . (١٣)

على أية حال فان الباحث يجد فيما كتبه بروكوبيوس Procopius أن جستنيان كان رجلا ذا عزيمة عندما يواتيه التوفيق ولكنه فى وقت الازمات كان يقدم رجلا ويؤخر اخرى . متعصب للمسيحية على المذهب الصحيح ولكنه يتحلى فى نفس الوقت بصفات الراهب هو رجل لا يتوقف عن العمل ولا يهدأ كرس نفسه وحياته للعمل من أجل الامبراطورية ، ومع هذا

فهو لا يعرف التعب ولا ينام الا قليلا ، لدرجة انه عرف بالامبراطور الساهر . ومع ان عقله كان من ذلك النوع الذى يهتم بالتفصيلات ، الا أنه كان قادرا على العمل فى اطار أفكار عامة ومبادىء واضحة ، واهتمامات عدة . ولاشك أن ثقافته ومواهبه العقلية كانت تفوق المستوى العادى للاباطرة الرومان ويميل بعض المؤرخين المحدثين الى الاعتقاد بأنه لو كانت الظروف لم تهىء لجستنيان فرصة اعتلاء العرش ، فلا شك انه كان سيتفوق فى موقع آخر ومهنة أخرى بالتأكيد (١٤) والجدير بالذكر ان بروكوبيوس *Procopius* نفسه كان معجبا بطبيعة الزهد التى تحلى بها الامبراطور ، ولقـــد وصفه بهذه الكلمات :

« يمكن القول ، بصفة عامة ، أن جستنيان لم يهتم بالنوم كثيرا ، ولم يكن مفرطا فى طعامه او شرابه ، اذ كان يلتقط طعامه باصابعه قبيل الخروج والسبب فى ذلك أن الامبراطور إعتبرها أمورا غير هامه رغم أنها ضرورية بالطبيعة وكثيرا ما كان جستنيان يصـوم ليومين وليلتين متصلتين خاصة خلال فترة الصيام ، وكثيرا ما كان يعيش على الاعشاب البرية والماء . اما بالنسبة للنوم فقد كان جستنيان لاينام لأكثر من ساعة ثم يقضى بقية الليل وهو يذرع المكان جيئة وذهابا . والسبب فى هذا أنه قرر أن يكون يقظا دائما ، يعمل ويكافح ويفكر من أجل غرض واحد ألا وهو إنزال الكوارث على مواطنيه كل يوم . » (١٥)

وقبل ان يعتلى جستنيان العرش ، وقع فى حب الممثلة ثيودورا *Theodora* ،

من أبناء أخته إهتم بهم الامبراطور وحرص على أن يتلقوا تعليما مناسبا ثم أخذ يعينهم فى الوظائف العسكرية. فمثلا عين واحد منهم ويدعى جرمانوس Germanus قائدا للفرق الرومانية العسكرية فى ترقيا Thrace ، وبرع جرمانوس هذا كقائد عسكرى ممتاز (٥) الا ان جستين كان يحب واحد آخر من ابناء أخته ، الا هو بتروس ساباتيوس Petrus Salbatius ، ومن شدة تعلق الامبراطور به تبناه وأعطاه اسما جديدا هو جستنيان Justinian . (٦) ومنذ البداية تدرج جستنيان فى مناصب القادة العسكريين وكان له تأثيره الكبير على عمه ، وسرعان ما اصبح يشغل منصب قائد الفرق الرومانية المركزية magister militum Praesentalis (أى قائد الفرق الرومانية فى البلاط الامبراطورى) . (٧) وحين مرض جستين الاول فى ربيع سنة ٥٢٧م مرضا خطيرا ، طلب كبار الشخصيات فى القسطنطينية من الامبراطور المريض ان يتوج جستنيان امبراطورا مشاركا . وبالفعل تم الاحتفال بهذا التتويج فى ٤ من ابريل سنة ٥٢٧م ، الا ان الامبراطور جستين الاول توفى فى اليوم الاول من اغسطس من نفس العام تاركا جستنيان امبراطورا منفردا . (٨)

كان عمر جستنيان الاول ٤٥ عاما حين أصبح امبراطورا ، وكانت افكاره وآراؤه بخصوص السياسة التي سيسير عليها قد تشكلت . بالنسبة لمظهره فاننا نستطيع أن نتخيل كيف يبدو اذا قرأنا الاوصاف التى كتبها عنه المؤرخون المعاصرون من امثال بروكوبيوس القيسارى Procopius of Caesarea ويوحنا مالالاس John Malalas (٩) كذلك يمكننا ان نرى صورا واضحة لهذا الامبراطور فى الصور المزينة بالفسيفساء فى كنائس مدينة رافنا Ravenna .

وخالف العرف وتزوجها (١٦) وكانت ثيودورا ذات جمال آخاذ ، وجاذبية وذكاء . وحين تم تتويج جستنيان امبراطوراً ، تم تتويج ثيودورا بالتالى امبراطورة . ولقد استمتعت ثيودورا بحياتها الجديدة فقد كانت محط الانظار (كالسيدة الاولى فى البلاط الامبراطورى) . واذا كان جستنيان كما اشرنا من قبل يميل الى التقشف فى حياته ، كانت ثيودورا تتمتع بنعيم ورفاهية حياتها الجديدة وتشارك فى الاحتفالات التى تجرى فى البلاط الامبراطورى . ولانها جاءت من بيئة متواضعة ، لهذا كانت مكروهه من جانب الطبقة الأرستقراطية .

كذلك قام بروكوبيوس *Procopius* فى تاريخه السرى بتشويه صورتها ، وذكر أنها كانت المسيطرة على عقل وإراده زوجها (١٧) ولا يستطيع الباحث أن يتقبل هذا الحكم بسهولة . فاذا كان صحيحا أن الامبراطور تعلق بها وشغفته حباً ، واذا كان صحيحاً أيضا أنهـا شاركته افكارة بالكامل ، وبالذات تلك الخاصة بعالمية الأمبراطورية ، وواجب استرداد الاقاليم الغربية المفقودة ، واذا كان صحيحاً ان الامبراطور نفسة اعترف فى أحد مراسيمه بفضل النصيحة التى أسدتها له ثيودورا التى يصفها « بالامبراطورة التقية التى وهبها لنا الله » (١٨) ، الا انه - رغم هذا كله - يصعب على الباحث ان يقول انه كان لثيودورا تأثير أساسى على السياسة العامة للدولة البيزنطية كما إدعى بروكوبيوس . ويمكن القول أن تأثيرها على زوجها كان محدوداً فى المسائل الشخصية . والجدير بالذكر انه بينما كان جستنيان - الذى ولد فى الليريا - ينتمى الى العالم اللاتينى ويفكر بالتالى كرجل رومانى ، كانت ثيودورا - التى ولدت فى بفلاجونيا *Paphlagonia* يونانية او يمكن وصفها بشكل أدق بأنها كانت بيزنطية . وعلى هذا اختلفت وجهات نظرها فى أمور كثيرة

ولكنهما كزوجين كان كل منهما يكمل الآخر ، وكان جستنيان متعلقا بها ، وكان موتها سنه ٥٤٨ م يحدد نقطة تحول فى حياته (١٩) .

لقد شارك فى صنع عظمة عصر جستنيان عدداً من الرجال الموهبين الذين نجحوا فى ترجمة احلام جستنيان الى واقع ملموس . كان هناك رجل الادارة الاول يوحنا القبدوقى John of Cappadocia الذى عينه جستنيان فى وظيفة الوزير الامبراطورى الاول فى الشرق Praetorian Prefect (٢٠). ورغم أن يوحنا لم ينال تعليما متقدما اذ كان يجيد القراءة والكتابة فقط ، الا انه كان عبقرية فذه فى الادارة المالية ولقد وصفه بروكوبيوس بانه أبرع رجال عهده فى هذا المجال (٢١). لقد كان هذا الرجل هو الذى زاد الضرائب ليوفر السيولة النقدية لدفع النفقات الباهظة لمشروعات جستنيان الطموحة ومع أنه كان دقيقاً فى ادارته المالية وفى اجراءاته ، الا انه إكتسب عدداً من الاعداء وكان على رأسهم الامبراطورة ثيودورا نفسها ، وكانت ثيودورا مسئولة الى حد ما عن عزله من منصبة الادارى فى سنة ٥٤١ م (٢٢)

وكان هناك أيضا تريبونيان Tribonian رجل القانون الذى رأس اللجنة التشريعية التى قامت بجمع وتسجيل وترتيب مجموعة القوانين الرومانية Corpus Juris civilis وهى المهمة التى كلفه بها الامبراطور فى ١٣ من فبراير ٥٢٨ م (٢٣) . اكثر من هذا كان هناك القواد العسكريون العظام من أمثال بليزاريوس Belisarius ، ونارسيس Narses الذين حاربوا على كل الجبهات ضد الفرس فى الشرق ، وضد الواندال والقوط فى الغرب .

وكان هناك العلماء أمثال انثميوس الترولى Anthemius of Tralles وايزيدور المليتى Isidore of Miletus وهما المهندسان المعماريان اللذان قاما

بناء كنيسه الحكمة المقدسة *Hagia Sophia* (٢٤) . والجدير بالذكر أن عظمة ... العصر عبرت عن نفسها في مجالات العلوم والآداب والفنون بصفة عامة، وفي مجالات الشعر ، والرسم ، واللاهوت ، والعلوم ، والطب ، وكتابة التاريخ . فهذا بروكوبيوس *Procopius* مؤرخ العصر يكتب باسلوب غاية في الروعة ، ويظهر فيه تأثره الواضح بكل من هيرودوت *Herodotus* وثوكيديدس *Thucydides* ، حتى أن البعض يعتبر بروكوبيوس اعظم مؤرخ يوناني ظهر منذ ايام بوليبيوس *Polybius* (٢٥) وهناك اجاثياس *Agathias* وهو كاتب معاصر آخر ، اكمل تاريخ بروكوبيوس (من ٥٥٢ - ٥٥٨ م) ، ولكنه لم يقتصر على كتابة التاريخ ، إذ كتب شعراً . وهناك رومانوس ميلوديوس *Romanus Melodus* الذي وضع القواعد لكتابة الترانيم الكنسية البيزنطية (٢٦) وهناك التاجر الملاح كوزماس *Cosmas* يروي مغامراته ويربط رحلاته بنظام الكون كما تخيله (٢٧) .

كانت الحياة داخل الامبراطورية بصفة عامة وفي القسطنطينية بصفة خاصة مع مطلع القرن السادس الميلادى تعاني من بعض الاضطرابات التي كانت ترجع إلى عدة عوامل اهمها انتشار الفقر وبالذات في الاقاليم ، عدم انتظام عملية جباية الضرائب بسبب سوء الادارة المالية وبسبب ازدياد نفوذ كبار الملاك في الاقاليم . وفوق هذا وذاك كان الاضطراب يرجع إلى ازدياد نفوذ الفرق التى كانت تتنافس على سباق العربات والخيل في الهيبودروم *Hippodrome* في قلب القسطنطينية (٢٨) وكان الهيبودروم هو المكان المفضل لسكان العاصمة وخاصة العامة ، إلا أن هذه الفرق سرعان ما تحولت إلى ما يشبه الاحزاب السياسية واصبح لها ميول سياسية واجتماعية ودينية نضلا

عن استمرار تعلقها بسباق العربات . وعلى هذا اصبح الهيبودروم باحزابه المختلفة يعبر عن اتجاهات الرأى العام و بالذات فى العاصمة(٢٩) . ومع مطلع القرن السادس ازدادت اهمية حزبين أو فريقين من الفرق الأربعة التى تنافست فى الهيبودروم *Hippcdrome* ، وهما : حزب أو فريق ذو الزى الازرق وحزب ذو الزى الاخضر . وكان من المألوف أن يتشاجر أنصار كل فريق مع الفريق الآخر فى شوارع العاصمة فيضطر الامبراطور إلى إرسال الحرس الامبراطورى لفض الشغب . ولما كان كل فريق يمثل اتجاها سياسيا ودينيا واجتماعيا ، لهذا كان الامبراطور فى أغلب الاحيان يتخذ جانب فريق ضد الآخر (٣٠) .

على أية حال فعندما اعتلى الامبراطور جستنيان العرش قرر الامبراطور ان يتصدى لتلك المشاكل بمنتهى الحزم . فبالنسبة لجباية الضرائب والادارة المالية ، قام جستنيان بتعين يوحنا القبدوقى *John of cappadocia* على رأس الجهاز الادارى فاعاد تنظيمه و اصلحه بالاجراءات الهامة التى اتخذها والتى ضمنت وصول الضرائب إلى الخزانة الامبراطورية بشكل منتظم . كذلك عمل الامبراطور على الحد من نفوذ طبقة كبار الملاك فى الاقاليم وتأكيد سلطة الحكومة المركزية (٣١) . اما بالنسبة لتنافس فريقا الزرق والخضر فى العاصمة ، فقد حرص الامبراطور على إلا يتخذ أى جانب . اكثر من هذا اتخذ الامبراطور اجراءات قوية للحد من نفوذ هذين الحزبين . إلا أن اجراءاته هذه ضد كلا الفريقين جعلتها يتحدان للمرة الأولى رغم تناقضها التقليدى ، ضد جستنيان . وساعد على اشتعال الموقف استياء سكان العاصمة من الاجراءات المالية ، المتشددة التى اصدرها يوحنا القبدوقى ضمن اجراءات

تنظيم الادارة المالية . وسرعان ما اندلعت ثورة عنيفة فى العاصمة ، ودوى الهيبودروم بصيحة غريبة « عاش الخضر والزرق الرحماء » (٣٢) . واندفع الناس فى شوارع القسطنطينية وهم يهتفون « *Nika* » « نيقة » (أى النصر) فى يوم ١٤ من يناير سنة ٥٣٢ م واخذ الثائرون يحرقون المبانى فى العاصمة وفى اليوم التالى تجمعوا فى الهيبودروم وطالبوا بعزل محافظ العاصمة ، وكلا من يوحنا القبدوقى *John of Cappodocia* ورجل القانون تريبونيان *Tribenian* وحين استجاب لهم الامبراطور ، تطور الموقف إلى مطالبتهم بعزل جستنيان نفسه ، وقاموا باعلان احد اقرباء الامبراطور السابق اناستاسيوس الأول امبراطورا جديدا فى الهيبودروم . وهكذا تأزم الموقف وبدا جستنيان فى موقف خطير ، لان الجيش الرومانى كان مشغولا على الجبهة الشرقية بقتال الفرس ، لدرجة أن الامبراطور فكر فى الهرب لينجو بنفسه ، لولا تدخل زوجته ثيودورا *Thecdora* التى وبخته ودفعته كى يتصدى للثورة بمنتهى الحسم . وفى هذا الوقت كان بليزاريوس *Belisarius* قائد الجيش الرومانى فى الشرق *Magister militum Per Orientem* موجودا فى القصر بناء على استدعاء سابق له من قبل الامبراطور . كذلك كان موندوس *Munaus* قائد الفرق الرومانية فى الايريا موجوداً ايضا فى العاصمة . وكان مع الأول فرقة من الحرس التى تعرف باسم *buccellarii* وكانت هذه الفرقة تشكل القوة الضاربة فى جيش بليزاريوس وكانت تصحبه فى كل مكان ، وكان مع الثانى قوة صغيرة من الجند المرتزقة تنتظره خارج أسوار العاصمة . وهكذا تم توجيه قوات بليزاريوس وقوات موندوس إلى الهيبودروم ، فتغير الموقف تماماً وتحولت المعركة إلى مذبحة انتصرت فيها القوات الامبراطورية ، وقتلت ما يقرب من

ثلاثين ألف مواطن ، وتم القضاء على كل العناصر التى ايدت أو استغلت تلك الثورة (٣٣) . وكانت ثورة نيقة *Nika* هذه هي الأزمة الداخلية التى واجهها جستنيان وبعدها لم يواجه الامبراطور فى الداخل أى معارضة واستتب له الامر فى الداخل ، وتمكن بالتالى من توجيه انتباهه نحو السياسة الخارجية .

سياسته الخارجية

أن الحروب العديدة التى وقعت فى عهد جستنيان كان بعضها دفاعى ومعظمها هجومى . فالحملات الهجومية التى شنتها الامبراطورية فى عهد هذا الامبراطور كانت ضد الممالك الجرمانيه فى الغرب ، اما الحروب الدفاعية فقد كانت ضد الامبراطورية الفارسية فى الشرق وإلى حد ما ضد السلاف فى الشمال .

على أية حال كانت الامبراطورية البيزنطية متورطة فى حرب ضد الفرس منذ أواخر عهد جستين الأول بسبب الخلاف حول مملكة ايبريا *Iberia* التى تقع إلى الشمال الشرقى من آسيا الصغرى ، وكانت هذه المملكة (مثل ارمينيا) تشكل دولة حاجزة بين الفرس والبيزنطيين (٣٤) . على أية حال فى خريف سنة ٥٣١ م توفى الملك الفارس كافادس *Cavades* وخلفه كسرى *Chosroes* الذى أراد أن يتفرغ للمشاكل الداخلية ، ولهذا رغب فى انهاء الحرب مع بيزنطة . وعلى هذا وفى ربيع سنة ٥٣٢ م وافق كسرى على التوقيع على معاهدة سلام دائم مع الامبراطورية البيزنطية . وعادت الحدود بين الدولتين إلى ما كانت عليه قبل الحرب ، كذلك وافق الامبراطور جستنيان على حسم الخلاف حول مملكة أيبريا وذلك بأن تدفع الحكومة البيزنطية مبلغ ١١ ألف رطل من الذهب مقابل تخلى الفرس عن مطالبهم فى أيبريا (٣٥) .

كان جستنيان مستعدا لدفع هذا الثمن المرتفع مقابل السلام على الجبهة

الشرقية ، لأنه كان يرغب أيضا في التفرغ لمشروعاته في الغرب فقد كان الأعداء الرئيسيون للامبراطورية في نظر جستنيان هم الجرمان . وهكذا فإن مشكلة الجرمان ظهرت مرة أخرى في الامبراطورية البيزنطية في القرن السادس الميلادي كما كان الحال في القرن الخامس مع فارق واحد : أن الجرمان في القرن الخامس الميلادي كانوا خطراً يهدد ويهاجم الامبراطورية ، أما في القرن السادس فقد تغير الموقف وأصبحت الامبراطورية هي التي تهدد وتهاجم الممالك الجرمانية في الغرب (٣٦) .

على أية حال نتج عن عقد إتفاقية السلام بين الفرس والبيزنطيين ، أن أصبح في إمكان الحكومة الامبراطورية نقل الفرق العسكرية التي كانت تقف على الحدود الشرقية ، للامبراطورية إلى الغرب ، وتوجيهها من أجل إسترداد الولايات الغربية من الامبراطورية التي إستولى عليها الجرمان . وقد يجد البعض متعة في تصور الامبراطور جستنيان وهو العقل المدبر جالسا في مقر قيادته في القصر الامبراطوري بالعاصمة ، وهو يوجه حملة ضخمة أحسن إعدادها والتخطيط لها لتعيد فتح الولايات الغربية التي فقدتها الامبراطورية ، إلا أن الحقيقة كانت مختلفة ، فهذا المشروع الضخم الخاص باسترداد الغرب الأوربي تم على مراحـــــل : مرحلة وراء الاخرى كلما أتيحت الفرصة . وتهيأت الظروف .

ولقد بدأ هذا المشروع باسترداد شمال إفريقية من الوندال . وكانت مملكة الوندال أكثر الممالك الجرمانية ميلا إلى العدوان ، وكانت بالتالي مكروهة أكثر من غيرها . وكان الوندال قد أقاموا قوة بحرية كبيرة وبدأوا يمارسون

زال
أصل أوروبا

أعمال القرصنة المنظمة فى البحر المتوسط. أكثر من هذا كان الوندال أريوسيين متعصبين ، وقاموا باضطهاد المواطنين الرومان (فى شمال أفريقية) الذين اتبعوا المذهب الصحيح للكنيسة. وكان جايسريك *Gaiseric* (٤٢٨ - ٤٧٧ م) - أول ملوكهم - قد بدأ حركة الاضطهاد الدينى ضد المواطنين الرومانى ، ومن بعده سار إبنه هونريك *Hunneric* (٤٧٧ - ٤٨٤ م) على نفس السياسة إلا أن الاضطهاد توقف فترة فى عهد الملك جونثاموند *Gunthamnud* (٤٨٤ - ٤٩٦م) ولكنه سرعان ماتجدد فى عهد الملك ترازاموند *Thrasamund* (٤٩٦ - ٥٢٣م) وفى عهد الملك هيلدريك *Hilderic* توقف الاضطهاد الدينى وتحسنت علاقات مملكة الوندال بالامبراطورية البيزنطية بعض الشىء (٣٧) . ويبدو أن سياسة هيلدريك الحسنة مع القسطنطينية لم تلق رضى الوندال ، وأعتقدوا أن تقدمه فى السن هو سبب ضعفه. ولهذا قام جليمر *Gelimer* أكبر أفراد الاسرة الوندالية الحاكمة سناً ، بعزل هيلدريك ، وتوج نفسه ملكا على الوندال (٣٨) .

على أية حال إنتهز جستنيان هذه الفرصة وإعترض على عزل الملك هيلدريك الذى كانت تربطه بالقسطنطينية روابط طيبة وإقترح جستنيان على معاونيه فكرة التدخل العسكرى . إلا أن قواده العسكريين إعترضوا ولفتوا نظر الامبراطور إلى الفشل الذى منيت به حملات سابقة ضد الوندال. كذلك إعترض يوحنا القبدوقى على هذا المشروع أيضا بسبب تكلفته المالية الباهظة (٣٩) . ولكن جستنيان أصر على إرسال حملة ضد مملكة الوندال ، وعين بليزاريوس *Belisarius* قائدا لها وكان جستنيان يرى أنه بارسال تلك الحملة ضد الوندال ، فانه لايشن حربا عدوانية بل على العكس كانت الحملة التى أرسلها الامبراطور عادلة ومقدسة من أجل تحرير ولاية رومانية من نير

حكم أجنبي إستبدادي، ولقد بارك بطريرك القسطنطينية هذه الحملة لأنها ستعمل على القضاء على هراطقة يتبعون مذهبا لاتقره الكنيسة (٤٠) . وهكذا أبحر بليزاريوس *Belisarius* فى يونيو سنة ٥٣٣ م على رأس ٢٠ ألف مقاتل فى أسطول مكون من ٥٠٠ سفينة نقل جنود، تقوم على حراستها ٩٢ سفينة حربية، إلى شمال أفريقية، وإستطاع إنزال جنوده على الساحل بسهولة، حيث رحب به السكان الرومان . وفي معركة فاصلة واحدة إستطاع بليزاريوس أن يسحق الجيش الوندالى . وسلم الملك الوندالى جليمر *Gelimer* فى مارس سنة ٥٣٤ م وأرسل بليزاريوس عدد كبير من أسرى الوندال إلى القسطنطينية (٤١) . وقام الامبراطور باعادة تنظيم إدارة ولاية شمال افريقية وجعلها تضم ٦ أقاليم بالاضافة إلى إقليم سابع هو جزيرة سردينيا *Sardinia* (٤٢) وبعد رحيل بليزاريوس تجدد القتال فى شمال افريقية بين القوات الامبراطورية وقبائل البربر وإستمر القتال لمدة خمسة عشر سنة اخرى وانتهى فى سنة ٥٤٨م وهكذا تم إسترداد ولاية شمال افريقية بعد قرن من الزمان تقريبا (٤٣) .

وكانت المرحلة التاليه فى مشروع جستنيان الطموح هو إسترداد ايطاليا والمعروف أن ايطاليا كانت مقر مملكة القوط الشرقيين . على أية حال بعد وفاة ثيودريك *Theoderic* سنة ٥٢٦م (مؤسس مملكة القوط الشرقيين فى ايطاليا) خلفه على العرش القوطى حفيده أثالاريك *Athalaric* الذى لم يكن عمره قد تجاوز العاشرة (٤٤) ، لهذا قامت والدة الطفل امالاسونثا *Amalasuntha* (إبنه ثيودريك *Theoderic*) بالوصاية على حكم إبنها . واستمرت أمالاسونثا *Amalasuntha* على سياسة والدها الموالية للامبراطورية وحرصت على أن يتلقى إبنها أثالاريك تعليما رومانيا . ولكن المعارضه بدأت تظهر داخل المملكة القوطية . فقد استاء

القوط ان تحكمهم إمرأة كما أنهم اعترضوا على سياستها الموالية للحكومة الأمبراطورية فى القسطنطينية ، وأصروا على ضرورة أن يتلقى أثالاريك Athalaric تعليما قوطيا بدلا من التعليم الرومانى ، ليشب قوطياً مخلصاً ولم يكن أمام امالاسونثا الا أن تذعن لهذه الضغوط ، ولكنها إنزعجت حين لاحظت ان إبنها الصغير بدا يقبل على شرب الخمر ويفرط وأدركت أن ابنها هالك لامحالة وبالفعل توفى إبنها فى الثانى من اكتوبر سنه ٥٣٤م .(٤٥) على أيه حال ، بعد اتصالات سرية مع جستنيان استجمعت الأم شجاعتها وتوجت نفسها ملكة على القوط بعد أن قتلت ثلاثة من معارضيها . وحتى تقوى من مركزها أمام شعبها تزوجت امالاسونثا Amalasuntha من إبن عمها ثيوداد Theodahad الذى كان معروفا باعجابه بالحضارة البيزنطية . واعتقدت الملكة أنها تزوجت رجلا ليس له أى مطامع سياسية ، سيترك لها شئون الحكم الا أن الأيام أثبتت خطأ إعتقادها ، اذ سرعان ما قاد زوجها ثيوداد Thecdahad حركة المعارضة القوطيه ضد الملكة ، وقام بعزلها عن العرش ثم قتلها بعد ذلك فى إبريل سنة ٥٣٥م (٤٦)

وكانت هذه هى فرصة جستنيان ، فقد اعترض الأمبراطور بلهجة شديدة على قتل الملكة القوطية التى كانت صديقة وحليفة الحكومة الامبراطورية وارسل جستنيان على الفور حملتين عسكريتين فى أن واحد الى اطراف المملكة القوطية فى محاولة من جانبة الضغط على ثيوداد Thecdahad ليقبل التسليم للإمبراطورية .

وعلى هذا تقدم القائد موندوس *Mundus* قائد الفرق الرومانية فى الليريا *magister militum per Illyricum* وإحتل والماشيا *Dalmatia* دون أية صعوبة) وفي نفس الوقت ، أبحر بليزاريوس *Belisarius* بقوة صغيرة الى صقلية وكانت أوامر جستنيان أن يحتل الجزيرة دون قتال اذا أمكن. بالفعل نجح بليزاريوس فى احتلال صقلية بسهولة. وبينما كانت الجيوش الامبراطورية تستولي على صقلية ودالماشيا ارسل جستنيان مبعوثا خاصا يعرض على ثيوداد *Theodahad* شرط عقد السلام . (٤٧)

حقا لقد بدا كما لو أن التوفيق والعناية الالهية قد حالفا جيوش جستنيان . وفى سنة ٥٣٦م استهل جستنيان احد مراسيمه بهذه الكلمات :

« لقد منحنا الله القدرة لنجبر الفرس على عقد السلام ، ولنقضى على الوندال ، والالان *Alans* ، والبربر ، وان نسترد كل شمال افريقية ، وصقلية وانا واثقين ان الله سيمنحنا القوة والقدرة لنسترد بقية امبراطوريتنا التى مدها الرومان الاوائل الى حد المحيطين ، ثم فقدها الرومان بعد ذلك بسبب قلة اكتراثهم . » (٤٨)

على اية حال تردد ثيوداد *Theodahad* بالنسبه لشروط السلام التى عرضها جستنيان ثم رفضها فى النهاية وعلى هذا صدرت الاوامر لبليزاريوس *Belisarius* بالتقدم شمالا ، وبالفعل تقدم بليزاريوس بقواته القليلة التى لم تتجاوز العشرة الاف مقاتل ، واستولى على نابلى *Naples* التى قاومته ،

ثم دخل روما *Rome* سنة ٥٣٦م (٤٩) . وهنا عزل القوط ثيوداد *Theodad* وقاموا بتتويج فيتيجيز *Vitigis* ملكا عليهم وتقدم القوط بقيادة ملكهم الجديد والقوا الحصار على روما فى فبراير سنة ٥٣٧م ، الا ان بليزاريوس *Belisarius* صمد حتى وصلته امدادات فى شتاء ٥٣٧م — ٥٣٨م ، فاضطر القوط الا رفع الحصار (٥٠) . تقدم بليزاريوس شمالا واستولى على اقليم ليجوريا *Liguria* وفيه مدينة ميلانو *Milan*، كما استولى على ريمينى *Rimini* على الجانب الاخر لجبال الابنين *Apennines* وفى نفس الوقت وصل جيش بيزنطى آخر الى الساحل الشرقى لشبه الجزيرة الايطالية .ورغم كل هذه الامدادات ، كان القوط يتفوقون من ناحية العدد على البيزنطيين . ورغم كل ماحققه بليزاريوس من نجاح حتى الان ، الا أن الموقف سرعان ماتطور وتغير لصالح القوط مؤقتا ، بسبب قيام مملكة الفرنجة بنبذ سياسة الحياد التى سارت عليها حتى ذلك الوقت ، وقرر ملك الفرنجة ثيودبرت *Theudebert* الوقوف الى جانب القوط وأرسل لهم قوة من عشرة الاف رجل (٥١) . واستطاع القوط بمساعدة الفرنجة استرداد ميلانو *Milan* وقتلوا معظم الرجال فى المدينة وأخذوا كل النساء والاطفال كعبيد معهم الا ان بليزاريوس نجح فى استرداد زمام المبادرة من جديد . وبينما كان بليزاريوس يتقدم ضد القوط ، كانت مفاوضات جستنيان مستمرة معهم أيضا ، ووافق القوط على الانسحاب شمالا الى ماوراء نهر البو *Po* على أن يسامو كل مايقع الى الجنوب بين نهر البو الى الامبراطورية . وكان جستنيان راضيا عن هذا

الاتفاق ، بينما كان بليزاريوس يفضل الاستمرار فى القتال من أجل تحقيق نصر شامل بدأ يلوح فى الافق . على أية حال وأثناء المفاوضات إستطاع بليزاريوس أن يخدع القوط ، وفى مايو سنة ٥٤٠م دخل رافنا *Pavenna* العاصمة واستولى على خزانة القوط الملكية وقبض على ملكهم فيتيجيز *Vitigis* ، ثم أبحر عائدا بكل شىء إلى القسطنطينية . (٥٢)

بدت الحرب ، وقد انتهت ، وكانت هذه هى لحظة المجد والعظمة التى شعر بها جستنيان ، ولكن الوهم سرعان ماتبدد . ففى نفس العام (اى سنة ٥٤٠م) نقض كسرى فارس إتفاق السلام مع الامبراطورية ، وقام بغزو الشام حيث إستولى على عدد كبير من المدن ونهب مدينة انطاكية ، دون ان أن يعترضة أحد (٥٣) . وفى العام التالى هاجم الفرس الجزء الشمالى الشرقى آسيا الصغرى وبالذات اقليم لازيكا *Lazica* حيث إستولوا على قلعة بترا *Petra* (٥٤)

وفى نفس الوقت قام القوط الشرقيون ، الذين كانوا فيما يبدو على اتصال بالفرس (٥٥) ، باستئناف القتال ضد البيزنطيين بقيادة قائدهم الجديد القدير توتيلا *Totila* . وأستطاع توتيلا *Totila* أن يبعث فى القوط روح الكفاح ضد الجيوش الامبراطورية الموجود فى ايطاليا ، ونجح فى إستئناف القتال لعشر سنوات أخرى. إستطاع القوط بقيادة توتيلا *Totila* مباغتت البيزنطين وهزموا القادة الذين تركهم بليزاريوس فى ايطاليا وطردوا الجيش البيزنطى من معظم ايطاليا وانحصر الجيش البيزنطى فى رافنا ورما والأطراف الجنوبية لشبه الجزيرة الايطالية وأصبح على الامبراطور جستنيان أن يختار بين

التصدى للفرس وطردهم من الشام والقوقاز ، وبين التصدى للقوط الشرقيين وإنقاذ ايطاليا كان الاختيار صعبا ، لهذا حاول جستنيان أن يتصدى لاعداء الامبراطورية علي الجبهين قدر الامكان .

على أية حال عاد بليزاريوس *Belisarius* سنة ٥٤٤ م الى ايطاليا بقوة صغيره لاتتناسب مع الموقف المتدهور فى شبة الجزيرة الايطالية ، وحاول أن يجمع شتات الجيش الذى تركه فى ايطاليا ، ورغم هذا استمر توتيلا *Totila* يحرز تقدما ، حتى نجح فى إسترداد روما سنة ٥٤٦ م . وفى ٥٥٠ م بدأ القوط غزو صقلية ، وبدأ الموقف يتدهور بشكل خطير بالنسبه للبيزنطيين . (٥٦)

أما على الجبهة الشرقية فقد نجح جستنيان فى إقناع كسرى بعقد هدنة لمدة خمس سنوات فى سنة ٥٤٥ م فى مقابل ان تدفع الحكومة الامبراطورية مبلغ ٥ آلاف رطلا من الذهب . واستطاع الامبراطور أن يسترد قلعة بترا *Petra* من الفرس سنة ٥٥١ م ، وجدد الهدنة مع الفرس مرة أخرى فى نفس العام ، ومرة ثالثة سنة ٥٥٧ م . واخيراً عقد جستنيان مع الملك الفارسى سنة ٥٦٢ م إتفاقية سلام لمده خمسين عاما ، وفيها تخلى كسرى عن كل ماكان قد استولى عليه من قلاع فى اقليم لازيكا *Lazica* ، وتعهد جستنيان فى مقابل هذا أن يدفع لكسرى فارس مبلغ ٣٠ الف صلدى *Solidi* كل عام جزية . وفى مقابل هذا يتعهد كسرى الدفاع عن جبهة القوقاز وحمايتها من هجمات أية عناصر متبربرة شمالية . (٥٧)

على أية حال إذا كان الخطر الفارسى قد تم إحتوائه ، الا أن تدهور الموقف فى إيطاليا إستمر ، وأدت الانتصارات التى أحرزها توتيلا *Totila*

هنالك إلى إدراك الامبراطور جستنيان لمدى خطورة المرقف وضرورة تركيز كل الإمكانيات والموارد الامبراطورية من أجل استرداد ايطاليا من جديد . ولكن إسترداد ايطاليا هذه المرة كان مشروعاً أصعب وتطلب الكثير من الجهد وسفك دماء كثيرة . بالنسبه لبليزاريوس ، فبسبب قلة القوات التى كانت تحت امرته فانه لم يستطيع ان يحقق الكثير ، وإضطر جستنيان الى اعفاءه من القيادة العليا فى ايطاليا (٥٨)

لم يتم تحقيق اى نصر حاسم على القوط حتى سنة ٥٥١ م حين قاد نارسيس *Narses* ـ الذى تولى القيادة العليا فى ايطاليا ـ أكبر جيش امبراطورى يخرج الى ميدان القتال فى عهد الامبراطور جستنيان . وقام الامبراطور بتوفير مبالغ ضخمة من المال ، إستطاع القائد الجديد ان يدفع منها بعض مرتبات الجند المتأخرة وأن يجند عدداً كبيراً من الجند المرتزقة استعداداً لمعركته الفاصلة ضد القوط .

على اية حال حين التقى نارسيس *Narses* بتوتيلا *Toti'a* والقوط الشرقيين، إستطاع القائد البيزنطى أن يلحق بالقوط هزيمة ساحقة فى موقعة بوستاجاللورم *Busta Ga'l rum* (وهي تقع على الطريق الذى يربط روما ورافنـا) . وفى هذه المعركة التى دارت فى ربيع سنة ٥٥٢ م سقط توتيلا *Tetila* قتيلا .(٥٩) وبعد ذلك ببضعة شهور (فى أكتوبر سنة ٥٥٢م) أحرز نارسيس انتصاراً آخر على القوط . ولم يبق أمام نارسيس سوى طرد الفرنجة حلفاء القوط ، خارج شبه الجزيرة الايطالية ، والاستيلاء على بعض القلاع التى تحصنت بها فلول القوط فى الشمال. ومع حلول سنة ٥٥٤م تم القضاء على آخر معاقل المقاومة القوطية ، وتم القضاء نهائيا على الحكم القوطى لايطاليا وصقلبة . (٦٠)

وجدير بالذكر ان الحكم القوطى فى ايطاليا لم يترك سوى آثار ضئيلة ، فلم يكن للقوط أى تأثير على سكان شبه الجزيرة الايطالية ، او على لغتهم، والسبب فى هذا هو أن القوط ظلوا معتنقين للمذهب الأريوسى ، وبالتالى عاشوا فى شبه عزلة عن سكان البلاد الاصلين ولكن هزيمة القوط فى النهاية كلفت الامبراطورية عشرين عاماً من الحروب المتصلة ، وصلت فيها معاناة الناس الى الذروة ، وأصاب الدمار كل أنحاد ايطاليا وكانت مظاهره لاتعد ولاتحصى . ولاشك أن القوط والبيزنطيين ساهموا فى هذا الخراب والدمار الذي عم كل أنحاء شبه الجزيرة الايطالية ، فقد سلب جنود القوط وجنود الامبراطور الناس ونهبوا ممتلكاتهم (٦١)

وزاد من تعاسة أهل البلاد قيام جستنيان بارسال لجنة لأعادة تنظيم الادارة المالية فى ايطاليا سنة ٥٤٠ م كان على رأسها اسكندر الذى استعمل كل وسائل العنف والقسوة فى تقدير وجباية الضرائب بأثر رجعى منذ سقوط ايطاليا فى يد الجرمان . ولقد أدت هذه القسوة الى تحول مشاعر الكثير من سكان البلاد الاصليين بعيداً عن الامبراطورية (٦٢) ولكن جستنيان لم يكن بالرجل الذى يحسب التكاليف ، فمن أجل توحيد الامبراطورية وتحقيق مشيئة الله (لأن الامبراطورية الموحدة كانت هى النظام الذى أراده الله لهذا العالم فى نظر جستنيان ومعاصريه) ، كان يجب إستغلال كل موارد الامبراطورية .

وفى نفس الوقت الذى كان القائد نارسيس *Narses* مشغولاً فى قتال القوط الشرقيين وإسترداد ايطاليا ، وجد الامبراطور جستنيان ذريعة ليتدخل فى

إسبانيا ويغزو مملكة القوط الغربيين . والمعروف أنه حين توفى ثيودريك Theoderic ملك القوط الشرقيين سنة ٥٢٦ م ، إنتهت فترة وصايته على حفيده أما لاريك Amalaric وإستقل الأخير بحكم مملكة القوط الغربيين فى اسبانيا . (٦٣) وحين هزم الفرنجة أما لاريك سنة ٥٠١ م ، أثار هذا غضب شعبه عليه فقاموا بقتله ، وأصبح القائد القوطى الشرقى ثيوديس Theudis (الذى كان ثيودريك قد عينه حاكما على اسبانيا أيام وصايته) ملكا على القوط الغربيين (٦٤) و بعد حكم دام سبعة عشر عاماً ، قتل ثيوديس Theudis هذا فى سنة ٥٤٨ م ، وإندلعت الاضطرابات فى المملكة القوطية فى اسبانيا وثار السكان الرومان هناك على القوط ، وأرسل أحد زعماء القوط يطلب العون سنة ٥٥١ م من الامبراطور جستنيان . ووجد جستنيان الفرصة سانحة ، ورغم أن الوضع فى ايطاليا كان لايزال سيئا ، الا أنه أرسل جيشاً إستطاع أن يفتح جزءاً من جنوب اسبانيا باسم الزعيم القوطى اثاناجيلد Athanagild (حليف الامبراطور) . انزعج القوط الغربيين لهذا التدخل الامبراطورى وعلى الفور قاموا بقتل أجيلا Agila - وهو الملك الذى أقاموه عليهم وقت الاضطرابات - وأعلنوا اختيارهم أثاناجيلد Athanagild ملكا عليهم . ولما تحققت أغراض الأخير باعتلاء العرش القوطى ، لم يعد بحاجة ا الجيش البيزنطى ، ولكن الجيش البيزنطى استمر يحتل الجزء الجنوبى الشرقى من اسبانيا ، وكان هذا الجزء يضم مدن قرطاجة الجديدة ، ومالقة Malaca ، وقرطبة Corduba . (٦٥)

وهكذا ومع حلول سنة ٥٥٥م كان فى إمكان الامبراطور جستنيان ان يفخر بأن البحر المتوسط أصبح مرة أخرى بحيرة رومانيـة وفى الولايات

والاقاليم التى تم إستردادها اعيد تنظيم الادارة الامبراطورية فيها على نفس النظام الذى كانت عليه إدارة تلك الاقاليم قبل ضياعها كما لو كانت ظروف هذه الاقاليم لم تتغير خلال مرحلة الحكم الجرمانى لها . ويمكن القول أنه بالنسبة الكثيرين فى شبه الجزيرة الايطالية الذين عاشوا فى ظل الحكم القوطى ثم وجدوا هذا الحكم ينتهى بعد أهوال حرب تحرير مريرة ، كانت الدعاية الامبراطورية الصادرة من القسطنطينية البعيدة تبدو جوفاء . فقد كان الخراب والدمار والفوضى تحيط بهم . فالتجارة توقفت ، وهجر الفلاحين حقولهم وتركوها بلا زراعه ، وبدت روما لبعض الوقت مدينة محطمة ليس لها أية قيمة سياسية ، ورغم هذا إستمر البابا يتخذها مقرا له . (٦٦) وإذا كانت هذه هى صورة للاحوال فى الغرب الاوربى ، فان الامور فى الولايات الشرقية من الامبراطورية كانت مختلفة . فقبل الغزو الأخير الذى قام به الفرس للشام وشمال شرق آسيا الصغرى ، كانت المدن الكبيرة الواقعة فى شرقى البحر المتوسط مزدهرة ومتمتعة بقسط وافر من الاستقرار ، وكان مصدر الازدهار والاستقرار هو الامبراطورية البيزنطية فسكان هذه المدن لم يكن مطلوبا منهم أن يكيفوا أنفسهم على اوضاع جديدة مثل أوضاع إنهيار عالمهم (سقوط القسم الغربى من الامبراطورية فى يد البرابرة) ومهانة حكم البرابرة الجرمان كما حدث فى الغرب . فسكان هذه المدن فى شرق البحر المتوسط (مثل الاسكندرية وصور وبيروت والقسطنطينية) إعتادوا الإزدهار والرخاء الحياة فى مستوى معيشة مرتفع ، لدرجة ان الطبقة الارستقراطية الفنية فى القسطنطينية كانت تتوقع دائما أن تحصل على فيض ثابت من السلع الفاخرة القادمة من الشرق الاقصى ، ولم يحاول جستنيان أن يعكر صفوهم . (٦٧)

وكانت طرق التجارة الطبيعية الى الهند والصين تمر على طول طرق القوافل عبر بلاد فارس ثم بحرا عبر المحيط الهندى ولكن الحروب مع الامبراطورية الفارسية جعلت مرور التجارة عبر هذا الطريق متقطعة غير منتظمة . لهذا إستطلع جستنيان وحاول استكشاف طرق بديلة ، عبر البحر الاحمر ، أو برا عبر شبه جزيرة القرم التى كان بها تجار بيزنطيين أقاموا فيها الأسواق ، الا أن هذه البدائل لم تكن كافية ، فطريق البحر الأحمر إحتكره التجار الاثيوبيون (الأحباش) تماما ، كما احتكر الفرس طريق المحيط الهندى وبلاد فارس . ويبدو أن الفرس إحتكروا نقل الحرير الى الامبراطورية ، لأن الاثيوبيين (الاحباش) عملوا فى نقل سلع الشرق الاقصى الاخرى مثل التوابل والبهارات ولم يعملوا فى نقل الحرير . (٦٨) ولم تكن تجارة الحرير تمر عبر البحر الاحمر ، بسبب إحتكار الفرس المنظم لكل واردات الصين من الحرير ولم تكن الحكومة الامبراطورية تنظر بارتياح إلى إحتكار الفرس لتجارة الحرير العابرة من الصين إلى الامبراطورية ، فسلعة الحرير كانت هامة وكان الطلب عليها كبيرا فى الامبراطورية ، وكانت الحكومة البيزنطية تعانى وقت وقوع الحرب بينها و بين الامبراطورية الفارسية من ندره هذه السلعة بسبب تعنت الفرس . لهذا حاول جستنيان منذ بداية عهده أن يكسر الأحتكار الفارسي لتجارة الحرير ، ودخل فى مفاوضات مع مملكة الحبشة (إثيوبيا) من أجل أن يقوم الأحباش بشراء الحرير من سيلان ثم نقله بعد ذلك عبر البحر الأحمر الى مصر ، الا أن الاحباش فشلوا فى منافسة الفرس فى شراء الحرير بسبب النظام الدقيق الذى احتكر به الفرس شراء هذه السلعة الهامة (٦٩)

على أية حال تم حل هذه المشكلة فى النهاية ، حين قام اثنان من الرهبان اللذان عاشا فى الصين بتعلم فن صناعة الحرير ، وأثناء زيارة قاما بها للعاصمة شرحوا

للامبراطور أبعاد صناعة الحرير ، وكيف أن بامكان الامبراطورية تصنيع الحرير إذا ارادت ، وذلك بنقل بعض بيضات دود الحرير إلى القسطنطينية . وهنا عرض عليهم جستنيان مكافآت مجزية مقابل قيامهم بتهريب عدد من بيضات دود الحرير من الصين إلى القسطنطينية ، فقبل الراهبان القيام بالمهمة. وبالفعل تم تهريب بيضات دود الحرير بنجاح إلى العاصمة الامبراطورية ، وبعد تجارب طويلة استمرت عدة سنوات نجحت التجربة وتطورت ، وأصبح فى إمكان الامبراطورية تصنيع الحرير على نطاق واسع ، وأصبحت هذه الصناعة واحدة من أكثر الصناعات ازدهارا وربحاً ، واحتكرتها الحكومة الامبراطورية على الفور (٧٠)

إن الاعتقاد بأن الامبراطورية الرومانية قد عادت إلى سابق مجدها قد تأكد بالمراجعة التى قام بها جستنيان للقوانين الامبراطورية : كان جستنيان يعتقد أن عظمة الامبراطور يجب الا ترتكز على قوته العسكرية فحسب ، فالامبراطور يجب أن يتسلـــح بالقانون ، فبالسلاح وبالقانون يستطيع الامبراطور أن يقود أمته إلى المجد فى وقت الحرب وفى وقت السلم على حد سواء . أكثر من هذا اعتقد جستنيان أن الله سبحانه وتعالى هو الذى وهب الأباطرة الحق فى إصدار القوانين وتفسيرها ، فالامبراطور يجب أن يسن القانون ويوضحه للناس بالحق الذى استمده من السماء (٧١) .

ويبدو أن فكرة إصدار مجموعة قانونية جديدة كانت تدور فى رأس جستنيان قبل اعتلائه العرش ، لأنه ما أن اعتلى العرش ومضت بضعة أشهر قليلة حتى اصدر مرسوماً فى ١٣ من فبراير سنة ٥٢٨ م بتشكيل لجنة من عشرة

رجال من الخبراء فى مجال القانون الرومانى كان من بينهم تريبونيان Tribonian السابق الذكر، وثيوفيلس Theophilus أستاذ القانون الرومانى فى القسطنطينية وتضمن مرسوم الامبراطور تكليف اللجنة التشريعية بإصدار مجموعة قانونية جديدة. أو فيما يبدو عملت هذه اللجنة بشكل مستمر وبذلت جهداً واضحاً يتضح فى حقيقة أن اللجنة انتهت من عملها بعد أربعة عشر شهراً، وبالتحديد فى ٧ من ابريل سنة ٥٢٩ م. ولقد تضمنت مجموعة جستنيان الجديدة المعروفة باسم Codex Justinianus كل المراسم والقوانين الصحيحة التى أصدرها الأباطرة الرومان منذ عهد الامبراطور هادريان Hadrian (١١٧ - ١٣٨ م)، إذ تم تجميعها وترتيبها وتم حذف كل ماهو غامض أو متناقض أو ملغى من تلك القوانين. وصدرت هذه المجموعة المرتبة فى تناسق ووضوح كما سبق القول فى ابريل سنة ٥٢٩ م، ولكنها لم تصل إلينا، فما وصل إلينا هو النسخة المعدلة التى أعيد إصدارها بعد ذلك التاريخ بخمس سنوات، وتحديداً (فى نوفمبر سنة ٥٣٤ م). ولقد تضمنت هذه النسخة المعدلة التى حلت محل النسخة السابقة ٤٦٥٢ قانوناً مكتوبة فى إثنى عشر مجلداً، وتضمنت كل القوانين التى صدرت منذ عهد هادريان وحتى نوفمبر سنة ٥٣٤م (٧٢).

وفى سنة ٥٣٠ م أصدر الامبراطور جستنيان مرسوماً آخر بتشكيل لجنة قانونية أخرى برئاسة تريبونيان Tribonian لتقوم بمراجعة كل الأحكام والتفسيرات والسوابق القانونية التى أصدرها رجال القانون الرومان، وترتيبها بشكل واضح متناسق مع حذف كل ماهو غامض، أو لا يتناسب مع العصر، أو مكرر، بحيث يكون هناك إلى جانب المجموعة القانونية، مجموعة بالأحكام

والسوابق والتفسيرات القانونية التي صدرت في تفسير وتطبيق القانون (٧٣) .
وكانت هذه المهمة شاقة بلا شك لأن اللجنة اضطرت أن تقرأ ما يزيد على ألفي كتاب في هذا الموضوع ، ولم يسبق أن حاول أحد القيام بمثل هذا العمل من قبل كما يذكر جستنيان نفسه (٧٤) . على أية حال تم الانتهاء من هـذا العمل الضخم بعد ثلاث سنوات ، إذ صدر في خمسين مجلداً سنة ٥٣٣ م وأطلق عليه اسم « الديجست » « *Digest* » (أو « *Pandects* »)(٧٥) . وبصدور المجموعة القانونية المعروفة باسم *Codex Justinianus* بالاضافة إلى المجموعة التفسيرية المعروفة باسم « الديجست » *Digest* ، تم الغاء كل ما سبق من مجموعات قانونية أو كتب في فقه القانون .

ورغم كل هذا المجهـود الضخم ، كان جستنيان يرى أن الأمر لا يزال يحتاج إلى جهد آخر . ففي رأى جستنيان لم يكن في إستطاعة كل فرد أن يرجع إلى تلك المجلدات القانونية الضخمة التي اصـــدرها (*Digest & Codex*) ويستوعب كل ما فيها من معلومات . فطلاب القانون في مدارس القانون الروماني في الامبراطورية كانوا بلا شك في حاجة إلى مؤلف مبسط يعرفهم بالقانون الروماني . وبناء على طلب الامبراطور قام تريبونيان *Tribonian* وزميلان من زملاء اللجنة التشريعية هما ثيوفيلس *Theophilus* أستاذ القانون الروماني في القسطنطينية ، ودوروثيوس *Dorotheus* أستاذ القانون الروماني في بيروت (بالشام) ، باعداد كتابا مختصراً في القانون المدني من أجل طلاب القانون وهو الكتاب الذي عرف باسم « *Institutions* » (أو *Institutes*) وكتب في أربعة مجلدات وصدرت في سنة ٥٣٣ م أيضاً (٧٦) .

١

اما القوانين التى صدرت فى الامبراطورية بعد سنة ٥٣٤ م ، فقد أمر جستنيان باصدارها وعرفت باسم « N vels » (Novellae leges) . والجدير بالذكر أنه فى الوقت الذى صدرت فيه مجموعة جستنيان المعروفة باسم Codex Justinianus ، فضلا عن الديجست Digest ، وكتاب مختصر القانون المدنى « Institutions » جميعا باللغة اللاتينية التى كانت لاتزال اللغة الرسمية للامبراطورية ، يلاحظ أن معظم القوانين الجديدة التى صدرت بعد سنة ٥٣٤ والمعروفة باسم « Novels » صدرت باللغة اليونانية وكان هذا إعتراف من جانب جستنيان بحقيقة أن لغة معظم مواطنى القسم الشرقى من الامبراطورية كانت اليونانية التى أخذ الاعتماد عليها يزدادشيئا فشيئا. فهذه القوانين الجديدة لم تكن مجموعة القوانين الخاصة بروما القديمة ، التى يحتفظ بها رجال القانون والتى تعود إلى الماضى ، بل هي نصوص قانونية جديدة صيغت لتوائم عصر جستنيان وترضى حاجات الامبراطورية المسيحية والمجتمع فى الحاضر والمستقبل. وكان على الامبراطور أن يعترف بأن اللغة اليونانية أخذت تحل محل اللغة اللاتينية تدريجيا كوسيلة اتصال ومحادثة فى معظم الأجزاء المزدهرة من امبراطوريته ولهذا أعلن جستنيان فى واحد من هذه القوانين الجديدة « Novels » .

« لم نكتب هذا المرسوم باللغة الرسمية (اللاتينية) ، ولكن كتبناه باللغة اليونانية وهي لغة الحديث الشائعة حتى نجعل هذا المرسوم ميسور الفهم للجميع »(٧٧) .

أراد جستنيان أن يجمع المؤلفات القانونية الأربعة التى صدرت فى عهده

(Novels Institutions : Digest : Codex) فى مجموعة واحدة ، ولكنه لم يتمكن من هذا خلال حياته . وبعد وفاته بوقت طويل تم تجميع أعمال جستنيان القانونية فى مجموعة واحدة تعرف باسم مجموعة القوانين المدنية « Corpus Juris Civilis » (٧٨) ورغم أن أباطرة بيزنطيين لاحقين مثل ليو الثالث Leo III ، وليو السادس Leo VI (العاقل) أصدروا قوانين جديدة لتقابل المطالب المتغيرة للمجتمع البيزنطى ، إلا أن مجموعة جستنيان القانونية ظلت تشكل الأساس لكل القوانين والنظم فى الامبراطورية البيزنطية وحتى القرن الخامس عشر .

ولم تقتصر قيمة مجموعة جستنيان القانونية على الدولة البيزنطية، إذ يلاحظ أن السلاف المقيمين فى داخل الامبراطورية ، وأولئك المستقرين خارج الحدود الامبراطورية قد طبقوا هذه القوانين بما يتلائم مع أغراضهم وظروفهم. أكثر من هذا حين ازداد الاهتمام بدارسة القانون الرومانى فى الغرب الأوربى بصفة عامه ، وفى جامعة بولونا Bologna على وجه الخصوص على يد الامبراطور الغربى فريدريك باربروسا Frederic Barbarossa فى القرن الثانى عشر الميلادى ، احتلت مجموعة القوانين المدنية Corpus Juris Civilis مكان الصدارة ، وكان لها إنعكاس عميق على تطور فكرة الامبراطورية فى غرب أوربا . ولعل السبب فى هذا هو أن قوانين جستنيان هذه أكدت السلطة الاتوقراطية للامبراطور ، ولم تدع مجالا للشك فى الاساس الشرعى لسلطة الامبراطور على الكنيسة والدولة على حد سواء (٧٩) .

ود جستنيان لو أن ذكراه واسمه اقترنا بالفتوح العسكرية ، وإسترداد

الأقاليم الغربية ، لأنه هو الذى أعاد للامبراطورية وحدتها . ولكن فى الواقع نجد أن تقنينه للقانون كان الذكرى التى لازمت اسمه وعصره اكثر من كل فتوحاته العسكرية الضخمة . وبالاضافة إلى ذلك كانت تلك الكنيسة العظيمة التى بناها فى القسطنطينية ـ كنيسة الحكمة المقدسة (هجيا صوفيا *Hugia Spohia*) ـ من اكثر آثاره إستمراراً

على أية حال ، فى مجال البناء والتعمير ، بنى جستنيان التحصينات، والقلاع والكنائس فى كل أقاليم امبراطوريته تقريبا . فنى القسطنطينية مثلا ، نلاحظ أن التدمير الذى نتج عن ثورة نيقة *Nika* سنة ٥٣٢م ، قد هيأ الفرصة لجستنيان كى يعيد تخطيط وبناء معظم المنشئات الهامة بالعاصمة . فقد قام باقامة خزانات ضخمة للمياة تحت الأرض (لايزال إثنان منها باقيان حتى اليوم فى إستنبول) وكان هدفه تحسين امداد العاصمة بالمياه . كذلك زاد جستنيان فى مبانى القصر الامبراطورى . كما قام ببناء حمامات عمومية جديدة ، وقاعات للاجتماعات العامة ، وممرات وبوائك وميادين ، فضلا عن مستشفى ومبانى خيرية [٨٠] أما الساحة المجاورة للقصر الامبراطورى والهيبودروم *Hippodrome* فقد زينها بعمود ضخم يعلوه تمثال لجستنيان نفسه وهو ممتطيا ظهر حصانه . ولاشك أن مواهب الفنانين والمهندسين فى عصره تظهر واضحة فى الكنائس والأديرة الجديدة التى أمر الامبراطور بانشائها أو إعادة بنائها . وإن الكنائس والأديرة التى شيدها من دير سانت كاترين *St. Catherine* فى سيناء إلى كنائس رافنا *Ravenna* العظيمة فى إيطاليا [٨١] ، هي خير دليل على تقوى وورع الامبراطور جستنيان العظيم . ولم ينسى جستنيان القسطنطينية ، عاصمة العالم

المسيحى ، فقد اهتم بها وشيد فيها كنائس فريدة فى عظمتها، وفى نفس الوقت جدد الكثير من كنائسها القديمة

وكانت كاتدرائية الحكمه المقدسة (هجيا صوفيا *Hogia Sophia*) هى أعظم ماشيد فى العاصمة إذ تم تخطيطها وبنائها على نطاق ضخم لتكون الكنيسة الرئيسية للدين الامبراطورى فى العاصمة المنيعة، فلم يكن هناك كنيسة تضاهيها عظمة وجلالا . ورغم أنها أصبحت المثل لفن العمارة لاجيال طويلة من المهندسين البيزنطيين ومن بعدهم المهندسين المسلمين ، إلا أنه لم يقم بعد ذلك بناء يضاهيها أو حتى يماثلها . وكان كلا المهندسين المعاريين أنثميوس الترولى *Anthemius of Tralles* وإيزيدور المليتى *Isidore of Miletus* ، من القسم الشرقى للامبراطورية ،ولهذا لم يتقيدا بتقاليد فن العمارة الرومانى. وكان انجازهم المعارى المتمثل في بناء كنيسة الحكمة المقدسة ، إبداع فنى من الطراز الأول إذ تضمن البناء مساحة ضخمة مفتوحة تحت قبة عالية قطرها مائة قدم دون أن يكون لهذه القبة أية أعمدة ظاهرة رغم أنها ترتفع مائة وثمانين قدماً عن سطح الأرض .

وكان المبنى كله من بعيد يبدو كبرج مراقبة يحرس العاصمة المنيعة . أما داخل الكنيسة فقد تم زخرفته بالفسيفساء باسراف ، فضلا عن الرخام الملون والذهب والفضة والعاج . وكانت زخرفته بهذه الصورة لاتعكس أى كآبه أو ظلمة بل إتساع وضياء . القد بدت قبة هذه الكنيسة الضخمة لمعاصرى جستنيان ، كما لو كانت تتطاير فى الهواء . وكانت الأربعون نافذة المثبتة فى محيط دائرة القبة ، مفتوحة لأشعة الشمس لتفيض من خلالها (٨٢) . ويقال أن جستنيان

تفاخر وتباهى فى حفل افتتاح الكنيسة فى ديسمبر ٥٣٧ م ، أنه بهذا العمل قد فاق الملك سليمان (٨٣) . وجدير بالذكر أن التصميم الأصلى لهذا البناء تم تنفيذه فى خمس سنوات فقط ، ولكن حين تصدعت القبة سنة ٥٥٨ م ، قام المهندسون وعلى رأسهم ايزيدور المليتى *Isidor of Miletus* بترميمها وتعديلها (٨٤). واكتمل هذا الترميم فى سنة ٥٦٢ م ، واحتفل الامبراطور بتلك المناسبة فى ٢٤ من ديسمبر سنة ٥٦٢ م ، وفى الحفل القى شاعر البلاط الامبراطورى قصيدة شعرية تصف عجائب هذه الكنيسة العظيمة (٨٥) .

كانت الاقاليم الآهلة بالسكان والتى تدخل فى نطاق الامبراطورية الرومانية المسيحية العالمية (أى الامبراطورية البيزنطية) تشكل جزءا كبيراً من عالم القرن السادس الميلادى . لقد اطاع سكان هذه الامبراطورية قانونا واحداً واعتنقوا دينا واحداً . وكان هذا هو المثل الأعلى للامبراطورية فى فكر جستنيان . وكان الامبراطور حريصا على فرض التناسق والمساواة على مواطنيه المختلفين سواء رغبوا فى هذا أم لا ، لأنه كان مقتنعاً أنه يعرف اكثر منهم مشيئة الله فى النظام الذى يريده لهذا العالم ، وكان مقتنعاً أنه مكلف من الله لانجاز هذا النظام . على أية حال كانت كنيسة الحكمة المقدسة (هجيا صوفيا) هى الرمز الواضح للعقيدة المسيحية التى وجهت الامبراطور جستنيان . ففى نظر جستنيان كانت وحدة الإمبراطورية تقوم على وحدة هذه العقيدة . ولقد إعتقد الامبراطور أن من واجبه أن يجعل كل الناس مسيحيين ، وأن يجعل كل المسيحيين متمسكين بنفس العقيدة ونفس المذهب الصحيح بكل

الصدق ليكونوا صالحين ، ويصف لنا مؤرخ العصر بروكوبيوس Procopius تسلط هذه الفكرة على عقل الامبراطور فى الكلمات التالية :

« حين اهتم الامبراطور بأن يجعل كل الناس لها نفس الاعتقاد فى السيد السيح ، قضى الامبراطور على بقية البشر بلا حساب أو ترو ، والغريب حقاً أنه فعل هذا وهو يدعى الورع والتدين . والسبب فى هذا أنه (أى جستنيان) لم يعتبر نفسه يقترف جريمة القتل لأن أولئك الناس الذين ماتوا على يديه أو بسببه كانوا يعتنقون عقيدة تختلف عن عقيدته . ولقد قال له تريبونيان Tribonian ذات مرة (مازحاً) ، إنه يخاف مغبة يوم يموت الامبراطور وتستدعى روحه إلى السماء . ولكن الامبراطور قبل هذا المديح ، أو قل هذه السخرية إذا شئنا كشىء يتفق تماما مع أفكاره الخاصة بنفسه » (٨٦) .

على أية حال سار جستنيان على خطى الامبراطور قسطنطين العظيم حين إعتبر أن شئون الكنيسة والدولة شيئان يعتمد كل منها على الآخر تماماً تحت حكمة الفرد . ولاشك أن المجامع المسكونية للكنيسة التى دعى إليها الامبراطور قسطنطين وخلفاؤه ، قد حددت طبيعة العقيدة المسيحية الصحيحة (الارثوذكسية) ، كما أن القرارات التى صدرت عن تلك المجامع الدينية كان لها قوة القانون ، وكان الخارجون على تلك القرارات يعتبروا مذنبين . وكان هؤلاء المذنبون اما وثنيين ، أو يهود ، أو هراطقة خارجين على العقيدة المسيحية الصحيحة (٨٧) .

بالنسبة للوثنيين فقد إفتقروا إلى تنظيم يجمعهم ولهذا لم يستمروا كثيراً لكن فلسفاتهم كانت لاتزال خطرا كامنا ولهذا أمرجستنيان فى سنة ٥٢٩ م باغلاق الاكاديمية الفلسفية فى أثينا ، وكانت هذه الاكاديمية تهتم بدراسة فلسفة افلاطون على وجه الخصوص . أما العلوم الكلاسيكية الاخرى التى وجدت قبل المسيحية ، فقد كانت دراستها لاتزال متاحة ولكن داخل الكنائس والأديرة. كذلك أمر الامبراطور الوثنيين بأن يتلقوا تعاليم العقيدة المسيحية ، كما أمر جستنيان بأن يتم تعميدهم أيضا . وتلى ذلك حملة تطهير للوثنيين بين صفوف الطبقة الارستقراطية فى القسطنطينيه(٨٨) . وكان إعتناق المسيحية على المذهب الصحيح (الارثوذكسى) مؤهل ضرورى لدخول الحياة العامة وارتقاء المناصب الحكومية العليا ، ومع ذلك كانت هناك استثناءات تصدر من أجل أولئك الذين امتلكوا مواهب وكفاءات لاغنى عنها. فمثلا رجل القانون الشهير تريبونيان *Tribonian* كانت له معتقداته الشخصية ، اكثر من هذا يروى لنا مؤرخ العصر بروكوبيوس *Procopius* ، أن يوحنا القبدوقى *John of capladocia* رجل الادارة الاول ، اعتاد أن يذهب إلى الكنيسة فى المناسبات الرسمية مع الامبراطور ، ولكنه كان يتمتم بكلمات الكفر والوثنية طوال مراسم الطقس الدينى(٨٩). وكان هناك آخرون آمنوا بديانة الدولة باللسان وليس بالقلب وكان هذا أسهل الطرق . ويمكن القول أن عدداً من سكان المدن والقرى فى أقاليم الامبراطورية الشرقية ، مع أنهم كانوا غير قادرين على فهم وإدراك المسيحية ، كانوا يطلقون على نفسهم إصطلاح مسيحيين ليكونوا فى الجانب الصحيح ومع القانون .

اما بالنسبة اليهود داخل الامبراطورية فبالرغم من أنهم كانوا فى نظر الدولة عنصر بغيض وممقوت ، إلا أن الدولة عاملتهم بتسامح اكثر من الوثنيين(٩٠) اما العناصر التى عانت وقاست بحق فى ظل تعصب جستنيان الدينى فهم المراطقة الذين خالفوا مذهب الدولة الصحيح . ولعل السبب فى الاضطهاد العنيف الذى تعرضوا له يرجع إلى أنهم كانوا أقلية عنيدة متشبثة برأيها اكثر من غيرها ، سببت الازعاج للادارة الامبراطورية فى الاقاليم الشرقية وخاصة فى الشام وفلسطين ومصر . وجدير بالذكر أن ولائهم للامبراطورية لم يكن قلبياً خالصاً . وتمسك عدد كبير من سكان هذه الاقاليم الشرقية (مصر وفلسطين والشام) بالمذهب المونوفيزى *Monophysite* (مذهب الطبيعة الواحدة) وهو المذهب الذى تمت إدانته كهرطقة وخروج على الكنيسة فى مجمع خلقدونة *Chalcedon* المسكونى الذى عقد سنة ٤٥١ م .

ولقد حاول الاباطرة والبطاركة فى القسطنطينية بالضغط والتهديد حمل أتباع هذا المذهب فى الولايات الشرقية على قبول عقيدة ومذهب العاصمة بدون جدوى . وأدت سياسة العنف هذه الى القضاء على ما تبقى لدي سكان تلك الاقاليم من ولاء وإنتماء شعروا به للامبراطورية . كذلك حاول بعض الاباطرة منذ البداية اتباع سياسة الترغيب أيضا وذلك بايجاد صيغة مذهبية ترضى عنها كل الطراف وتمنع الانفصال الكامل لتلك الولايات الشرقية ذات الاهمية الاقتصادية الكبيرة عن الحكومة المركزية . الا أن العديد من رؤساء الكنيسة وبالذات البابوات فى ايطاليا ، وقفوا بحزم ضد أى شكل من أشكال الحل الوسط مع المراطقة ، وأعلنوا صراحه أن الاباطرة ليس لهم أى حق فى التدخل فى الشئون اللاهوتية . بالنسبه لجستنيان فلم يكن لديه وقت لمثل هذا

التميز الدقيق بين الشئون الدينية والشئون السياسية ، فالامبراطور فى رأيه هو رأس الدولة والكنيسة ليست سوى جزءا من هذه الدولة (٩١) ومن أجل أن يخضع المراطقة الشرقيين ، فضل جستنيان إستعمال الاسلوب المباشر الا وهو اسلوب الآضطهاد ، بدلا من أسلوب الإستمالة والاقناع . ولكن الامبراطور أصيب بحيرة شديدة حين علم حقيقة أن زوجته ثيودورا *Theodora* كانت نفسها مونوفيزية عن ايمان ، وأنها لم تكن تخشى شيئا حين ساعدت وتسترت على ضحايا زوجها (٩٢) على أيه حال كان رد فعل جستنيان فى هذا الموقف الحرج هو التأرجح والتذبذب بين التسامح مع المراطقة تارة ، واضطهادهم تارة أخرى ليرضى البابا فى روما والعناصر المتطرفة من اساقفته . (٩٣)

على أيه حال يمكن القول أن جستنيان ـ تحت تأثير زوجته ثيودورا ـ حاول أن يحقق نوعا من التقارب مع المونوفيزيين ، فسمح للأساقفة الذين تم نفيهم فى عهد جستين الأول ، وفى بداية عهدة بالعودة الى بلادهم اكثر من هذا قام الامبراطور بدعوة عدد كبير من المونوفيزيين الى العاصمة حيث عقد مؤتمر مصالحة دينية ، وفيه طلب جستنيان من الحاضرين مناقشة كل المسائل الدينية التى يثور عليها الخلاف بصبر . وبلغ عدد رجال الدين المونوفيزيين الذين حضروا الى القسطنطينية من اجل هذا الغرض حوالي الخمسمائة ، وقام الامبراطور بتخصيص عدد من الاجنحة فى القصور من اجل إقامتهم . وكان بطريرك القسطنطينية فى ذلك الوقت (سنه ٥٣٥ م) هو أنثيموس *Anthimus*

الذى عرف بمايله لسياسة التصالح مع المونوفيزيين . وهكذا سارت الامور على أحسن مايرام و توقف اضطهاد المونوفيزيين . (٩٤)

و لكن الصورة سرعان ما تغيرت حين وصل البابا اجابتوس *Agapetus* الى القسطنطينية على رأس جماعة من الأساقفة الغربيين المتشددين . وأعلن البابا على الفور رفضه لسياسة انثيموس *Anthimus* المتسامحة لدرجة ان جستنيان اضطر الى تغير سياسته فأصدر الامبراطور قرارا بعزل انثيموس *Anthimus* وعين مناس *Menas* بطرير كا للقسطنطينية . ويرى البعض أن حرص الامبراطور على إرضاء البابا كان لسبب وجيه ، فقد بدأت حرب استرداد ايطاليا من القوط الشرقيين ، وكان جستنيان فى حاجة الى تأييد الغرب المطلق . (٩٥)

وإذا كان جستنيان قد تنازل فى المرة الأولى وحرص على ارضاء البابوية الا ان هذا لم يعنى انه تخلى نهائيا عن سياسة التصالح مع المونوفيزيين اذ سرعان ماعاد جستنيان الى محاولة كسب ود وولاء المونوفيزيين ، ومن أجل هذا أثار الامبراطور المشكلة المعروفة باسم « الفصول الثلاثة » وكانت هذه المشكلة خاصة بثلاثة من رجال الدين النساطرة الذين عاشوا فى القرن الخامس الميلادى ، وهم : ثيودور المصيصى *Theodore of Mopsuestia* ، وثيودورت السيروسى *Theodoret of Cyrus* ، وايباس الرهاوى *Ibas of Edessa* . والمعروف أن المونوفيزيين أدانوا مجمع خلقدونية لأسباب عديدة منها عدم قيامه بأصدار قرار بادانة مؤلفات هؤلاء النساطرة الثلاث . وعلى

هذا رأى جستنيان (فى محاولة للتقرب من المونوفيزيين) ضرورة ادانة ، تلك المؤلفات التى تعرف باسم « الفصول الثلاثة » ، الا أن البابا وأساقفة الغرب اعترضوا بشدة . وفى اوائل العقد الرابع من القرن السادس أصدر جستنيان مرسوما أدان فيه « الفصول الثلاثة » وهدد كل من يحاول الدفاع عن تلك المؤلفات المضللة (٩٦). وحاول الامبراطور أن يجعل هذا المرسوم ملزما لكل الكنائس فطالب كل البطاركة والاساقفة بالتوقيع علية . على أية حال فى الوقت الذى وافقت كنائس القسم الشرقى من الامبراطوية على قرار الامبراطور اعترضت الكنائس الغربية ولهذا قام الامبراطور باستدعاء ، فيجيليوس *Vigilius* بابا روما فى ذلك الوقت الى القسطنطينية ، حيث بقى هناك لمدة سبع سنوات . وبمجرد وصوله الى القسطنطينية أعلن البابا انة ضد مرسوم الامبراطور ، الا انه استسلم بالتدريج لنفوذ جستنيان وثيودورا ، وفى سنه ٥٤٨ م اصـــدر البابا قرارا بادانة « الفصول الثلاثة » ، وبهذا العمل اضاف صوتة الى أصوات البطاركة الاربعة الاخرين . لكن كنائس الغرب لم توافق البابا على قرار الادانة ، وامام هذه المعارضة فى الغرب غير البابا موقفة من جديد والغى إدانة لمؤلفات النساطرة الثلاثة ، فلم يجد جستنيان أمامة سوى الدعوة الى عقد مجمع مسكونى فى القسطنطينية سنة ٥٥٣ م وهو المجمع المسكونى الخامس . (٩٧) .

حرص الامبراطور على دعوة البابا لحضور جلسات المجمع الدينى ، الا ان البابا اخذ يعتذر باعذار مختلقة حتى يتجنب الحضور وبالطبع ناقش المجمع ـ دون حضور البابا ـ « الفصول الثلاثة » التى الفها الرهبان النساطرة الثلاثة ، واتفق الجميع مع رأى الامبراطور .

وهكذا جاءت قرارات المجمع تدين الرهبان الثلاثة لان ما كتبوه فكر خارج على المسيحية ومذهبها الصحيح . وكذلك ادان المجمع كل ما كتب ويكتب دفاعا عنهم . واصبحت قرارات هذا المجمع ملزمة ، وقرر الامبراطور جستنيان اضطهاد ونفى الاساقفة التى ترفض ادانة « الفصول الثلاثه » . ولهذا تم نفى البابا فيجيليوس *Vigilius* الى احدى الجزر ، حتى جاء الوقت الذى وجد البابا أنه من المناسب التوقيع على قرارات المجمع المسكونى الخامس . (٩٨)

كانت معاملة الامبراطور جستنيان لبابا روما العاصمة القديمة للامبراطورية مهينة بلاشك ، وساهمت فى تحويل عواطف اهل الولايات الغربية للامبراطورية بعيدا عن جستنيان . كذلك فان محاولة الامبراطور ايجاد حل وسط كانت ايضا غير مقبولة لمعظم المونوفيزين فى الولايات الشرقية كما بينت الاحداث بعد ذلك . وعلى هذا فبالنسبة لسلام ووحدة الكنيسة يمكن القول ان جستنيان خسر فى الشرق والغرب على حد السواء ، وادرك الامبراطور جستنيان — كما إدرك قسطنطين العظيم من قبل — ان فرض الوحدة السياسية على كل رعاياه اسهل كثيراً من فرض الوحدة المذهبية الديانة المسيحية . ولكن يجب إلا ننسى أن المثل الذى ضربه جستنيان كامبراطور أصر على فرض ارادته بالقوة على الكنيسة ، سيظل موضع اعجاب خفى وعلنى بالنسبة للعديد من خلفائه الذين إقتدوا به .

على أية حال فشل جستنيان فى محاولات التوفيق بين المذهب المونوفيزى (مذهب الطبيعة الواحدة) الذي يدين به معظم سكان ولايات الشام وفلسطين

ومصر، وبين المذهب الصحيح (الارثوذكسي) الذى دانت به كنيسة القاصمة وأيدته الكنيسة الغربية . ونتيجة لذلك ازداد الشعور بانفصالية تلك الأقاليم الشرقية عن بقية الامبراطورية، وكانت هذه المشكلة هى واحدة من المشاكل الخطيرة التى تركها جستنيان دون حل (كما فعل اسلافه) حين توفى سنة ٥٦٥ م (٩٩)

كانت الفترة التى تلت عهد جستنيان، والتى تمتد من سنة ٥٦٥ م حتى نهاية القرن السادس الميلادى، هي فترة تسوية واعادة ترتيب وعلاج لنتائج عهد الامبراطور جستنيان والذى يمكن وصفه بانه كان عهد انتاج وانجاز مكثف ولكنه انتهى بخسارة . فمثلا أدى تحرير ايطاليا من القوط الشرقيين وهو الانجاز الذى تفاخر به الامبراطور، الى ان اصبح هذا الإقليم فقراً ونشر الدمار فى كل مكان، وترك بالتالى الطريق مفتوحاً امام غزاة جدد كانت روما قد اصابها الدمار وهجرها العديد من سكانها، سوارها ومبانيها ومجاريها المائية محطمة اما ميلانو *Milan* فقد اصابها التخريب بالكامل تقريبا وقتل من سكانها عدة الآلاف .

وفى الريف توقفت الزراعة، وأخذ الناس يبحثون عن الامان، واصبحت الحماية والسعى من أجل الحصول على الامن مطلب اجتماعى اساس . كذلك عانى الناس من عجزهم عن ايجاد المال لدفع الضرائب . وتجدر الملاحظة ان بروكوبيوس *Procopius* كان دقيقا فى تصوير معاناة الناس من تعسف موظفى الادارة المالية التابعين للامبراطور . (١٠٠) ولم يكن بروكوبيوس هو مصدرنا الوحيد فى تصوير معاناة وخوف سكان شبه الجزيرة الإيطالية، اذ لدينا

مصدر آخر لهذه الفترة وهو الموظف المتقاعد يوحنا ليدوس John Lydus، الذى يذكر ان المواطنين كانوا اقل خوفا ورعبا من عواقب غزو اجنبي لاراضيهم اذا قورن بخوفهم الاعظم من مجرد ورود انباء زيارة وشيكة من قبل جباة الضرائب التابعين للامبراطور. (١٠١)

وجدير بالذكر أن جستنيان اتخذ خطوات عديدة لاصلاح الجهاز الادارى بصفة عامة والادارة المالية بصفة خاصة، وحرص على وضع قواعد تمنع اساليب الاكراه والابتزاز والرشوة بين موظفيه. ولكن النظام الضريبى الجائر الذى ورثه كان لابد من الاستمرار فيه والمحافظة عليه. وكانت الادارة المالية تضطر فى أغلب الاحوال الى فرض ضرائب اضافية لتوفر السيولة النقدية التى تستطيع بها مواجهة المصاريف الباهظة لمشاريع الامبراطور المتعددة (١٠٢). وبالطبع كان من المستحيل فى ظل مثل تلك الظروف تكوين اموال احتياطية او مدخرات حكومية (لمواجهة الطوارىء) وعلى هذا فبنهاية عهد جستنيان كانت الخزانة خاوية والموارد الاقتصادية مضطربة، والموارد البشرية متناقصة. فقد كانت التكلفة التى دفعها جستنيان ثمنا لمشاريعه المتعددة، باهظة فى المال والرجال على حد سواء وكان تناقص سكان الامبراطورية بشكل كبير راجعاً الى الحروب العديدة التى خاضتها حكومة القسطنطينية، كما انه كان راجعا الى وباء الطاعون الذى اصاب الامبراطورية فى سنة ٥٤٢ م وانتشر فى آسيا الصغرى والبلقان وانتشر الى شمال افريقية وايطاليا والغرب بسبب حركة القوات العسكرية بين الاقاليم الشرقية والغربية. ويبدو أن انتشار وباء الطاعون هذا قد أودى بحياة الالاف من السكان. (١٠٣)

توفى جستنيان فى ١٤ من نوفمبر سنة ٥٦٥ م وترك امبراطورية مترامية الاطراف ولكن منهكة القوى . فمعظم الولايات التى استردتها الامبراطورية فى الغرب خرجت من الحروب التى شنتها الجيوش الامبراطورية محطمة اقتصاديا واصبحت عملية حمايتها والاحتفاظ بها عبئا اقتصاديا اضافيا وقع على عاتق الموارد المنهكة للقسم الشرقى من الامبراطورية (٥٠٤)

اما خلفاء جستنيان فقد عجزوا عن تدبير الاموال التى تدعم ذلك البناء الذى أقامه الامبراطور الطموح . ولكن المشكلة كانت اخطر من هذا بكثير . لقد ترتب على تركيز كل الجهد من أجل مشروعات الامبراطور فى الغرب فضلا عن تسخير موارد الامبراطورية من أجل هذا الهدف ، أن أهملت الإدارة الامبراطورية العناية بالجبهات الاخرى ، وبالذات الجبهة الشرقية ، والجبهة الشمالية ، واصبح على خلفاء جستنيان ان يدفعوا ثمن هذا الأهمال . ففى الشرق استغل الفرس انشغال الامبراطور بحروبه ضد الوندال والقوط ونقضوا معاهدة السلام (كما سبق ان أوضحنا) وهاجموا الشام ووصلوا الى ساحل البحر المتوسط للمرة الأولى منذ أيام داريوس *Darius* واكزركسيس *Xerxes* فى القرن الخامس قبل الميلاد حقيقة ان جستنيان استطاع اقناع كسرى بعقد هدنة لمدة خمس سنوات سنة ٥٤٥ م تجددت مرتين سنة ٥٥١ م ، سنة ٥٥٧ م ثم نجح فى عقد اتفاقية سلام لمدة خمسين عاما سنة ٥٦١ م ، ولكن الثمن الذى دفعه الامبراطور كان غاليا ففى سنة ٥٤٥ م دفع جستنيان مبلغ ٥ آلاف رطل من الذهب مقابل الهدنة . وفى اتفاقية سنة ٥٦٢ م تعهد جستنيان بدفع مبلغ ٣٠ الف صلدى *Sloidi* كجزية سنوية ، واشترط الملك

الفارسى قيام الامبراطور بدفع جزية سبع سنوات مقدما ، على أن يقوم فى السنة الثامنة بدفع جزية ثلاث سنوات مقدما أيضا ، وبدءا من السنه العاشرة بدفع الجزية سنويا (١٠٥) . كانت الجزيه ونظام دفعها مهينة حقاً ، ولكنها كانت الثمن الباهظ الذى اضطر جستنيان الى قبوله ، ليبعد الخطر عن جبهته الشرقية ولو الى حين (١٠٦) . على اية حال بالرغم من أن الامبراطورية كانت منهكة الا أن الإمبراطور جستين الثانى Justin II (٥٦٥ - ٥٧٨ م) رفض بتهور أن يدفع تلك الجزية المتفق عليها الى ملك فارس ، وأدى هذا بالطبع الى نقض اتفاقية السلام التى جاهد جستنيان طويلا من اجل ابرامها ، واندلعت الحرب من جديد بين الإمبراطورية الفارسية والامبراطورية البيزنطية وكانت هذه الحرب الجديدة طويلة مرهقة ، ودارت بين الجانبين فى أرمينيا . وكانت أرمينيا ، التى تشكل مايشبه الدولة الحاجزة بين الامبراطوريتين ، ميدانا تنافس عليه الفرس والبيزنطيون لإهميتها الإستراتيجية والاقتصادية وفى هذا الوقت بالذات (الربع الأخير من القرن السادس) كانت السيطرة على أرمينيا لها أهمية اكثر من ذى قبل بالنسبة للامبراطورية البيزنطية فمنذ أن نجحت الادارة الإمبراطورية فى تحويل انظار الجرمان فى القرن الخامس بعيدا تجاه الغرب الأوربى ، بدأت الامبراطورية مواجهة مشكلة عدم وجود عناصر بشرية تصلح للتجنيد كجند مرتزقة . ولهذا اخذت الإدارة الامبراطورية تعتمد بشكل متزايد على سكان الامبراطورية بصفة عامة ، وعلى العناصر الأرمينية على وجه الخصوص ، إذا أثبت الارمن أنهم جند من الطراز الأول (١٠٧)

بالنسبه للجبهة الشمالية ، كان حد الدانوب هو الحد الطبيعى للعالم الرومانى القديم وظل كذلك حتى عصر جستنيان ، الا أن هذا الحد أصبح على وشك الأنهيار بسبب اهمال جستنيان له (١٠٨) فأخذت جحافل جديدة من البرابرة تعبره وتهدد قلب الامبراطورية من الشمال . كان هؤلاء الغزاة جدد لم يعرفوا الإمبراطورية ولم يعرفوا المسيحية من قبل فمن هم هؤلاء الغزاة الجدد ؟

من المعروف أنه منذ أيام الامبراطور اغسطس *Augustus* كان خط الدفاع هو نهر الدانوب وكانت الامبراطورية الرومانية قادرة دائما على حماية المصالح الرومانية هناك وعلى طول كل طرق التجارة للبرية الممتدة الى الشرق . وكانت الامبراطورية قادرة على فرض حمايتها هذه عن طريق نقاط أمامية حصينة ، وبواسطة حلفائها فى شبه جزيرة القرم *Crimea* ، وفى جبال القوقاز فى المنطقة الممتدة بين البحر الأسود وبحر قزوين وطالما كانت جبهة الدانوب فى قبضة البيزنطيين كانت الحضارة البيزنطية فى مأمن من كل خطر لأنها كانت الجبهة الوحيدة التى يمكن أن تعرض القسطنطينية لخطر هجوم برى من الخارج . على أيه حال ، في خلال القرن السادس الميلادى ، تطورت الاحداث بعيدا الي الخلف من جبهة الدانوب ولم يكن بالطبع للأباطرة أى سيطرة على مايقع خارج حدودهم الشمالية . وكان ماحدث هو ظهور الافار *Avars* . وهم شعب أسيوى ينتمى الى جموع الهون *Huns*

والترك ـ إذ تحركوا من مواطنهم فى آسيا الوسطى فى أتجاه الغرب (١٠٩) ، وكان ظهور الآفار فى أول الأمر كلاجئين هاربين من ضغط قبائل تركية اشد منهم قوة واكثر منهم عددا ، وسرعان مازادت أعدادهم وتطور الامر . وكان الآفار برابرة ومحاربين من الطراز الاول ، فاكتسحوا أمامهم كل شيء أثناء تقدمهم غربا . على أيه حال وصل الآفار حوالى سنة ٥٥٠ م الى الشواطىء الشمالية للبحر الاسود والاقاليم الواقعة الى الشمال من ضفاف نهر الدانوب ، وبدأ الآفار يتسلطوا على هذه الاقاليم التى قطنتها اقوام متعددة الاجناس مثل السلاف *Slavs* والبلغار . وكانت هذه الاقوام والقبائل المختلفة والتى تعرف بمجموعة الشعوب السلافية ، قد استقرت فى تلك الاقاليم ـ التى تقع الى خارج جدود الامبراطورية مباشرة ـ منذ أجيال عديدة بعد أن تركت مواطنها الجبلية التى تقع الى الشمال منها والمعروف أن السلاف كانوا شعب زراعى مجتهد ، ولم يكن لديهم أية مطامع سياسية أو رغبة للفتوح العسكرية ، كذلك لم يكن لديهم أية ميول للحضارة المدنية ، فطبيعتهم الزراعية كانت هي الغالبة .

ويلاحظ أنه فى عهد جستنيان بدأ السلاف يقومون باغارات دورية مدمرة عبر الحدود الامبراطورية الشمالية ، الى داخل مقدونيا وشمال اليونان (١١٠) . ولو أن الامر اقتصر على أمكانيات السلاف فقط لكان من الممكن ترويضهم وأغرائهم على اعتناق الديانة المسيحية فى النهاية ، ولأمكن بالتالى استيعابهم فى الكيان الامبراطورى ولكن هذا لم يحدث بسبب وصول الآفار الى

نهر الدانوب . فقد قدم الافار لمجموعة الشعوب السلافية تلك كل ما كانت تفتقده هذه الشعوب من قيادة وروح عدائية هجومية .

رحب جستنيان بوصول الآفار في أول الامر على أساس أن الامبراطورية يمكن أن تستفيد منهم كحلفاء . وفى سنه ٥٥٨ م وقع جستنيان اتفاقية مع زعيم الآفار ، وبمقتضاها منح الامبراطور الآفار كل امتيازات المعاهدين حلفاء الامبراطورية ، تماما كما فعل أسلافه فى نهاية القرن الرابع الميلادي مع القوط فى ظل ظروف مشابهة . وكان أحد أركان الدبلوماسية الامبراطورية هو تحريض أحد أعدائها ضد عدو آخر وهكذا قام الآفار كحلفاء للامبراطور بالتصدى لكل أعدائه القاطنين الى شمال مجرى الدانوب الادنى . وبعد وقت قصير كان مصير القبائل السلافية المنقسمة أما الفناء أو الخضوع لسيادة الآفار (١١١)

كيفما كان الامر ، طلب الآفار والقبائل السلافية التى خضعت لهم ثمنا للخدمات التي قدموها للامبراطور . وكان الثمن الذى طلبوه هو حق الاستقرار فى الاقاليم البيزنطية جنوب نهر الدانوب . وطوال حياة الامبراطور جستنيان تجاهلت الإدارة الإمبراطورية هذا المطلب (١١٢) . وحين جدد الآفار طلبهم رفض الامبراطور جستين الثاني الذى خلف جستنيان أن يعامل مثل هؤلاء الحلفاء الخطرين كأنداد مساوين للبيزنطين وحين أدرك الامبراطور أن خطرهم يفوق امكانيات الامبراطورية فى عهده اضطر فى النهاية سنة ٥٧٤ م أن يدفع جزية سنوية لهم مقابل عدم اعتدائهم على اقاليم الامبراطورية (١١٣) . ومع

نهاية القرن السادس الميلادى بدأ الأفار والسلاف يتدفقون عبر الدانوب بأعداد ضخمة ونزلوا فى اقاليم الليريا ومقدونيا . (١١٤) ويرجع السبب فى نجاحهم هذا إلى عدم فاعلية التحصينات (القلاع والحصون) التى أقامها جستنيان لتحمى الحدود الشمالية للامبراطورية ، فهذه القلاع والحصون كانت غير مجهزة بحاميات قوية من الجند أو كان الجند قد هجروها بالكامل ، وانقطع اتصالها بالقسطنطينية .

كان الدرس الصعب الذى أصبح على خلفاء جستنيان أن يعوه ، هو أن إستمرار حياة الحضارة اليونانية الرومانية المسيحية (الحضارة البيزنطية) أصبح يعتمد على تأمين المداخل الشرقية والشمالية ابيزنطيه (اى اسيا الصغرى والبلقان) ، وليس على سلامة إقاليم الامبراطورية الرومانية القديمة ، وفى ظل الامكانيات التى وجدوها بعد عهد جستنيان لم يكن أمامهم الا خيار واحد الا وهو التوقف عن دعم ذلك البناء الضخم الذى وحده جستنيان ، وذلك بقطع خسائرهم فى الغرب وعدم الاستمرار فى الدفاع وحماية الولايات الغربية من الامبراطورية . وكانت هذه السياسة واقعية وعملية . على أيه حال ، بالنسبة للولايات الغربية يلاحظ انه إذا كانت صقلية وجنوب ايطاليا ظلت خاضعة للامبراطورية البيزنطية ولفترة طويلة من الزمن فان الجزء الجنوبى الشرقى من اسبانيا والذى استرده جستنيان ، ضاع من جديد ، إذ إسترده القوط الغربيون بالتدريج (١١٥) . أما بالنسبة لايطاليا فبعد وفاة جستنيان بثلاثة اعوام ، بدأ اللومبارديون «Lombards» غزو شبه الجزيرة الايطالية من الشمال سنة ٥٦٨ م ، واستطاعوا عزل رافنا

وروما وأصبح أمر قطع صلعهما بالقسطنطينية وارداً . (١١٦)

وماذا فعل خلفاء جستنيان أمام كل هذا ؟

كان خلفاء جستنيان هم : جستين الثانى *Justin II* (٥٦٥ – ٥٧٨م)، وتيبريوس الثانى *Tiberius II* (٥٧٨ – ٥٨٢م) ، وموريس ***Maurice*** (٥٨٢ - ٦٠٢م) ، وفوقاس *phokas* (٦٠٢ – ٦١٠ م) .

كان جستين الثاني مختالا بنفسه وتصور أن قوة الامبراطورية لاحدود لها وبالغ فى تخيل عظمة وشرف شخص الامبراطور ولهذا اعتقد أنها مهانة كبرى أن يقوم الامبراطور بدفع جزية للبرابرة ، فى نظره كان على الامبراطور أن يأمر ويفرض ارادته ولو بقوة السلاح (١١٧) . ونتيجة لذلك ، فحين وصلت سفارات الأفاروالفرس ، عاملهم الامبراطورية معاملةمهينة ادت إلى أن استأنف الآفار اغاراتهم على الامبراطور ، كما توترت العلاقات مع الامبراطورية الفارسية . وفى سنة ٥٧٢م رفض جستين دفع الجزيةالسنوية التى حل موعد سدادها للفرس ، فادى هذا التصرف من جانبه إلى تجدد القتال مع الفرس . وتم نقض اتفاقية السلام كما سبق أن أشرنا . ورغم أن المعارك دارت أساساً فى أرمينيا ، إلا أن الفرس غزوا الشام ايضاً ونهبوا افاميه واستولوا على بعض القلاع فى سنة ٥٧٣م. وحين بلغت تلك الأنباء القسطنطينية لم يتحمل عقل الامبراطور الضعيف تلك الصدمة فاصيب بلوثة عقلية (١١٨) . وتولى ادارة الامبراطورية القيصر تيبريوس (الذى كان يشغل منصب قائد الحرس الامبراطورى من قبل) الذى إستمر يحكم باسم جستين الثانى . وحين توفى الاخير سنة ٥٧٨ م ، خلفه تيبريوس على عرش الامبراطورية . حاول

تيبريوس منذ أن تولى ادارة الامبراطورية (باسم جستين الثانى) أن ينقذ الامبراطورية من مخاطر التورط فى حروب على كل الجهات ، وأراد أن يحقق للادارة الامبراطورية هدنة تلتقط فيها أنفاسها وتعيد ترتيب أولوياتها

فالبنسبة للافار نجح تيبريوس *Tiberius* فى مهادنتهم بعد أن وافق على دفع ٨٠ ألف صلدى (*Solidi*) كجزية سنوية لهم[١١٩] . اما بالنسبة لايطاليا التى وقعت فى قبضة اللومبارديين ، فقد رفض الامبراطور بأدب دعوة نبلاء روما له كى يتدخل عسكريا ضد اللومبارديين وينتهز فرصة انقسام اللومبارديين على أنفسهم بعد وفاة زعيمهم البوين *Alboin* سنة ٥٧٣ م ، ولكنه حاول عن طريق الدبلوماسية كسب بعض قواد اللومبارديين باغرائهم بالعمل لخدمة المصالح الامبراطورية فى شبه الجزيرة الايطالية (١٢٠) .

بالنسبة للجبهة الشرقية كان كل مايريده تيبريوس هو ان يحرز بعض النجاح فى قتال الفرس حتى يستطيع ان يتوصل معهم الى اتفاقية سلام بشروط معقولة بالنسبة للامبراطورية البيزنطية ، ولكنة كان فى حاجة الى هدنة مؤقتة بسرعة ليعيد تنظيم قواته العسكرية . وبالفعل نجح الامبراطور فى النهاية فى التوصل الى هدنة مؤقتة لمدة ثلاث سنوات على جبهة القتال فى اقليم الجزيرة فقط (وفى مقابل هذا وافق الامبراطور على دفع مبلغ ٣٠ الف صلدى سنوياً) . (١٢١) على أية حال استطاع الامبراطور تجنيد جيش جديد للقتال فى الجبهة الشرقية ، وفى سنة ٥٧٨م عين الامبراطور ، القائد القبدوقى القدير موريس *Maurice* قائداً للفرق العسكرية فى الشرق واستطاع

موريس أحراز بعض الانتصارات على الفرس ، وهنا استأنف تيبريوس Tieberius المفاوضـــات مـع الفرس ، وعرض على كسرى فارس شروط مغرية مقابل عقد اتفاقية سلام . وسارت المفاوضات سيراً حسنا ، الا ان كسرى فارس توفى سنة ٥٧٩ م قبل أن يوقع على الاتفاقية . وحين خلفه ابنة هورميسداس Hormisdas ، رفض أن يوقع على الاتفاقية التى توصل اليها الطرفان ، وفضل أن يبدأ عهده بسياسة متشددة مع البيزنطيين ، وعلى هذا تم استئناف القتال على كل الجبهات . وفى ١٤ من اغسطس سنة ٥٨٢ م توفى تيبريوس الثـانى Tiberius II بعـد ان اوصى بالعرش لموريس Maurice . (١٢٢)

لاشك أن الامبراطور موريس Maurise (٥٨٢ م - ٦٠٢ م) هو اعظم خلفاء جستنيان فى القرن السادس الميلادى . ركز موريس Maurice كل موارد الامبراطورية المتاحة ليحقق النجاح فى القتال الضارى فى الجبهة الشرقية. وعمل فى نفس الوقت على مواجهة البرابرة فى شبة جزيرة البلقان وفى ايطاليا بالدبلوماسية النشطة وبدفع الجزية حتى ينتهى من الجبهة الفارسية . على أيه حال استمر القتال ضد الفرس وبدأ طول الحرب يتأثر بالامكانيـات المـالية المحددة المتاحة لبيزنطة فى ذلك الوقت . وأخيرا وفى سنة ٥٩١ م تغير الوضع تماماً بالنسبة للفرس ، فقد قتل الملك هورميسداس Hormisdas وخلفة ابنه كسرى الثانى . ولما كان مركز الملك الفارسى الجديد ضعيفاً بسبب اندلاع الثورة ضده فى مديا Madia ، اضطر كسرى الثـانى هـذا أن يلجأ الى الامبراطور موريس وطلب مساعدته فى مقابل تنازل الامبراطورية الفارسية عن اقاليم شاسعة منها ميافارقين Martyropolis ، دارا Dara وأرمينيا

ولم يتردد الامبراطور البيزنطى لحظة ، اذ قدم له جيشاً استطاع به كسرى أن يقضى على الثورة ويسترد مملكته ، وقام من جانبه بتنفيذ وعده . وهكذا استرد موريس ما كانت الامبراطورية البيزنطية قد فقدته فى القرن السادس الميلادى على الجبهة الشرقية بعد قتال طويل استمر قرابة العشرين عاماً ويعتبر هذا الوضع المستقر الذى توصل اليه موريس على الجبهة الفارسية هو افضل وضع عرفته الامبراطوريه البيزنطية لسنوات عديدة (١٢٣) .

وبهذه التسوية على الحدود الشرقية ، اصبح الامبراطور الان قادرا على الالتفات الى الجبهات الأخرى المهددة . ويمكن القول انه بفضل جهود هذا الامبراطور امكن انقاذ ما يمكن انقاذه من الخراب والانهيار الذى نتج عن مشاريع جستنيان فى الغرب ونجح موريس فى تحويل رافنا *Ravenna* فى شمال ايطاليا ، وقرطاجة فى شمال افريقية الى نقاط امامية حصينة للامبراطورية فى الغرب ، وعهد بقيادة كل واحدة منها للقائد العسكرى الذى كان يقود ما تبقى من فرق عسكرية هنالك ، والذى كان يحمل لقب *magister militum* والذى اصبح يلقب بالحاكم العسكرى العام *exarch* . واصبح هذا الحاكم العسكرى العام يجمع بين السلطتين العسكرية والمدنية . وبهذا النظام تم الغاء الفصل الواضح بين السلطة الادارية والسلطة العسكرية فى حكم الولايات ، وهو الفصل الذى ادخله كل من دقلديانوس *Diocletion* وقسطنطين (١٢٤) .

لقد كان هذا النظام الذى ادخله موريس ضروريا لمواجهة الظروف الحرجة فى الغرب . لقد كانت الحرب ظاهرة مزمنة فى الغرب ولم تكن مجرد شر طارىء ، وحتى تتمكن الادارة الامبراطورية من مواجهة ضرورات

الحرب دون اللجوء الى الاحتياطى المركزى لقوات الجيش الامبراطورى كان لا بد من تجنيد السكان المحليين فى ايطاليا وشمال افريقيا كجنود نظاميين من أجل الدفاع عن اراضيهم وهكذا قدمت الادارة الامبراطورية فى كل من رافنا وقرطاجة نموذجا لنظام الادارة العسكرية ، وهو نظام سيمتد تطبيقه بنجاح الى الولايات الشرقية بعد ذلك فى القرن السابع الميلادى وباقامة هذا النظام الادارى العسكرى فى كل من رافنا وقرطاجة امكن بالفعل انقاذ ما يمكن انقاذه فى الغرب .

ولكن فى الشمال كان الوقت قد تأخر لانقاذ شبه جزيرة البلقان من التغلغل السلافى واخذ السلاف الذين كانوا خبراء فى زراعة الارض البور يستقرون بشكل دائم فى بلاد اليونان ومع حلول سنة ٥٨٧ م احتل المهاجرون السلاف كل شبة جزيرة البلوبونيز ماعدا كورنثا والساحل الشرقى.

وتجددت اغارات الآفار عبر نهر الدانوب ، على اقاليم الليزيا *Illyricum* وتراقيا *Thrace* وامام هذا الخطر المتزايد ادرك الامبراطور موريس *Maurice* بغريزة الجندى أن الحل الوحيد لهذه المشكلة هو ضرب منبعها . وعلى هذا ، فبمجرد أن توصل الامبراطور إلى تسوية مع الفرس ارسل جيوشه سنة ٥٩٢ م عبر الدانوب إلى قلب اقليم الآفار ولسنوات عديدة امتدت حتى سنة ٦٠٠ م شن الجيش البيزنطى حرباً متصلة كانت فى أغلب مراحلها ناجحة ضد هؤلاء البرابرة الجدد . ولكن يلاحظ أن الانتصارات التى حققها الجيش الامبراطورى ، إنما حققها فى مواقع حربية منفصلة ، ولم يكن الامبراطور بقادر علي تجنيد قوات اضافية كافية لتقضي نهائيا على هؤلاء

الآفار الذين كانت أعدادهم لاحصر لها. والسبب فى هذا عدم توفر السيولة النقدية فى الخزانة الامبراطورية بسبب نفقات الحروب المتصلة على الجبهة الشرقية والجبهة الشمالية. لقد ترتب على هذا أيضا أن موريس حاول اثناء حروبه فى البلقان ضد الافار أن يقتصد فى النفقات العسكرية. فأمر جيشه بقضاء فصل الشتاء فى أرض العدو إلى الشمال من نهر الدانوب على أن يعيش الجند على مايجدونه فى أرض العدو، وكان هدفه من هذا هو تخفيف العبء المالى على الخزانة الامبراطورية كذلك قرر الامبراطور موريس *Maurice* لأول مرة أن تقوم الحكومة الامبراطورية بتسليم الجند اسلحتهم وزيهم العسكرى، بدلا من دفع مبالغ مالية لهم ليقوموا هم بشراء الاسلحة والزى (١٢٥).

على أية حال أدت هذه الاجراءات التى اتخذها موريس ليقتصد فى نفقات قواته العسكرية، إلى عدم ارتياح جنوده واستيائهم. وفى النهاية تمرد الجيش الامبراطورى المرابط على نهر الدانوب واختار الجند ضابطا مغموراً ليتولى قيادتهم يدعى فوقاس *Phokas* أما عن الموقف فى القسطنطينية فان السكان هناك استنكروا تكاليف وشدائد الحرب التى بدا انها لم تقدم سوى نتائج محدودة، ونتج عن هذا أن أصبح موريس شخصية غير مرغوبة ايضا. وفى ظل هذه الظروف قاد فوقاس الجيش الامبراطورى تجاه العاصمة التى هرب منها موريس *Maurice*، وتبع هذا تتويج فوقاس *Phokas* امبراطورا فى ٢٣ من نوفمبر سنة ٦٠٢م، وفقد موريس عرشه ثم حياته (١٢٦).

كان عهد فوقاس *Phokas* (٦٠٢ – ٦١٠م) قصيرا ، ولكن الكوارث والمصائب التى حلت بالامبراطورية زادت فيه اكثر من أى وقت مضى. كانت الفوضى فى كل مكان فى الداخل، وفي الخارج استغل اعداء الامبراطورية الفرصة وهاجموها من كل اتجاه فـفى الداخل لم تكن لفوقاس اية شعبية بسبب اصله الوضيع و بسبب عنفه وحبه لسفك الدماء وحاك اعداءه فى الداخل أكثر من مؤامرة ضده ولكنه بطش بالجميع دون رحمة . اما فى الخارج فقد اعلن كسرى الثانى ملك فارس الحرب على الامبراطور فوقاس فى الحال ، لينتقم لمقتل صديقه الامبراطور موريس . وقام الفرس بغزو الامبراطورية واحتلوا الشام وفلسطين وقبدوقيا فى آسيا الصغرى ، بل انهم توغلوا فى آسيا الصغرى حتى وصلوا إلى خلقدونة .

اما الآفار فقد عادوا لعبور نهر الدانوب واجتاحوا اقاليم تراقيا *Thrace* واللليريا *Illyricum* . اما السلاف فقـــد انتشروا فى كل مكان من شبه جزيرة البلقان دون أية مقاومة بدت الامبراطورية عاجزة وغير قادرة على تحديد وجهتها فالتعاقب السلمى على العرش الامبراطورى والذى تم بالوراثة أو التعيين منـذ بداية القرن السادس الميلادى انتهى بتلك الثورة التى قادها فوقاس *Phokas* وأدى اغتصاب فوقاس للعرش وماترتب عليه من نتائج فى الداخل والخارج ، إلى القضاء على كل ما تبـقى من معانى الاستقرار والاستمرار فى الحكومة البيزنطية ، ولم يكن فوقاس هذا اهلا للتحديات التى واجهت الامبراطورية فى ذلك الوقت ، إذ لم يكن افضل من أحمق جاهل وضع مصلحته الشخصية فوق كل الاعتبارات الاخرى (١٢٧) .

والغريب حقا أن فوقاس الذى جلب الكوارث على الامبراطورية ، وكان فاشلا فى سياسته الداخلية والخارجية على حد السواء ، كانت له علاقات طيبة مع البابوية فى روما . وكان البابا المعاصر له هو جريجورى العظيم (٥٩٠ـ ٦٠٤ م) . والمعروف أن هذا البابا اختلف مع الامبراطور موريس بخصوص أحد الالقاب التى اتخذها بطريرك القسطنطينية لنفسه ، فلما اعتلى فوقاس العرش اذعن لرغبات البابا واكد أسبقية كنيسة روما على كافة الكنائس الاخرى (١٢٨) . ولكن العلاقات الطيبة التى ربطت بين جريجورى العظيم والامبراطور فوقاس ، لم تعمل على اصلاح حال الامبراطورية ، وكانت الطريقة التى وصل بها فوكاس إلى العرش فى حد ذاتها دليل على الاضطراب الخطر الذى اصاب المجتمع فى مطلع القرن السابع الميلادى . ولعل الجزء الوحيد الذى عرف نوعاً من الاستقرار النسبي فى الامبراطورية فى ذلك الوقت هو أرخونية قرطاجة فى شمال افريقية . ومن هذه الولاية المستقرة جاء منقذ الامبراطورية فمن هناك خرج هرقل ابن الحاكم العسكرى العام بشمال افريقية وابحر إلى القسطنطينية حيث قضى على فوقاس واعتلى العرش الامبراطورى واخذ على عاتقه مسئولية انقاذ الامبراطورية من اشد محنة واجهتها فى صراعها من أجل البقاء .

كانت محاولة جستنيان الباهظة التكاليف لارجاع عقارب الساعة إلى الوراء بالعودة إلى نظام الامبراطورية الرومانية القديمة قد أصبحت مكروهة، ولكن رد الفعل الناتج عنها جاء متأخراً بعض الوقت لقد عبرت لنا كتابات المعاصرين للسنوات الأخيرة من القرن السادس ، ومطلع القرن السابع عن

الخوف والضياع والفوضى والتمزق الذى شعر به الناس فى ذلك الوقت . فهذا يوحنا الافسوسى John of Ephesus يذكر أن نهاية العالم اقتربت [١٢٩]. وفى مصدر آخر ماصر عهد فوقاس الدموى ، نقرأ كيف أن هذا الطاغية «قضى على الحب وزرع الحقد واراق الدماء فى كل مكان ... »[١٣٠] .

على أية حال كان النظام القديم بالفعل فى طـور النهاية ، وكان هناك نظام جديد على وشك أن يولد . ويمكن اعتبار اغتصاب فوقاس للعرش وطغيانه مظهر عنيف للتغير الذى كان يحدث . والجدير بالذكر أن طور هذا التغير كان قد بدأ منذ وقت طويل قبل القرن السادس ، ولكنـه توقف بعض الوقت فى القرن السادس بسبب أعمال جستنيان ، وبموت الاخير سرعان ما عاد هذا التغير يمضى بخطى أسرع بسبب الكوارث التى نتجت عن مشاريع جستنيان . ويلاحظ ان الانتقال من النظام القديم الى النظام الجديد لم يكتمل الا حين أعد الناس انفسهم بكل الألم لقبول حقيقة انهم اصبحوا يعيشون فى عالم يختلف كل الاختلاف عن العالم الذى شكله وحدد معالمه اغسطس مؤسس نظـام الامبراطورية الرومانية القديمة . واذا كان عهـد جستنيان هو آخر مرحلة من مراحل تلك الامبراطورية الرومانية ، فان العهد الذى تلاه كان الطور الأول لبناء جديد وقوى على الصعيد الاجتماعى والاقتصادى والسياسى وهو البناء الذى يطلق عليه اسم الامبراطورية البيزنطية . وهكذا فان دور القرن السادس الميلادى يتركز في أنه كان قمة المرحلة الانتقـالية بين القديم والوسيط .

إن التغير الذى ظهر فى كل وجه من أوجه الحياة تقريبا مع نهاية القرن السادس الميلادى يمكن رؤيته بوضوح اذا ألقينا نظرة سريعة على خريطة العالم فى ذلك الوقت . فبحلول سنة ٦٠٢ م حين قتل فوقاس الامبراطور موريس Maurice واغتصب العرش، كانت الممتلكات التابعة للامبراطورية ، والتى عمل جستنيان جاهدا من أجل اعادة توحيدها ، مشتتة هنا وهناك وكان التركيز الرئيسى لهذه الممتلكات فى شرق البحر المتوسط . وحتى هناك كان السؤال الذى يفرض نفسه هل ستتمكن الادارة الامبراطوريه من انقاذ وحماية ممتلكاتها هناك من خطر إجتياح الفرس والسلاف لها أم لا ، فقد استغل كلا العدويين ضعف الامبراطورية فى مطلع القرن السابع الميلادى وقاما بغزوها .

كانت الغزوات البربرية فى أخريات القرن السادس ومطلع القرن السابع الميلادى تشبه فى شكلها ـ وان كانت تختلف فى نتائجها ـ تلك الغزوات التى صاحبت انهيار القسم الغربى من امبراطورية الرومان فى القرن الخامس الميلادى . فالقوط فى ايطاليا والفرنجة فى غالة اعترفوا واعجبوا بنظام العالم القديم في ظل الامبراطورية وكان حكامهم يتلقون من الاباطرة فى القسطنطينية الهدايا والالقاب . ولكن البرابرة الجدد ، مثل اللومبارديين فى ايطاليا والآفار والسلاف فى البلقان ، كانو اغرباء وظلوا كذلك ، فلم يعترف اللومبارديون يوما بأن عليهم اى دين للقسطنطينية ، وفى النهاية تم اخضاعهم ليس على يد اباطرة القسطنطينية ولكن على يد الفرنجة . اما السلاف فقد ظلوا عناصر مستقرة دائمة فى شبه جزيرة البلقان ، حقيقة نجحت الإدارة

الامبراطورية فى استرجاع اليونان من السلاف بعد ذلك فى القرن التاسع الميلادى ولكنها فشلت فى القضاء على كل وجود لهم فى البلقان ولم يكن أمام الادارة الامبراطورية الا ان تستوعبهم فى الكيان الامبراطورى بعد ان نشرت بينهم الديانة المسيحية .

لقد سبق ان أوضحنا فى الفصل السابق أن الامبراطورية الرومانية قامت منذ البداية على التجاور اكثر من الاندماج بين مجتمعين مجتمع القسم الشرقى اليونانى ومجتمع القسم الغربى اللاتينى ، وكان انقسام الامبراطورية بهذا الشكل ملازماً لها منذ تأسيسها الأول . وفى القرن الخامس حين سقط القسم الغربى فى يد الجرمان ظهرت حقيقة هذا الانقسام واضحة ، الا أن جستنيان فى القرن السادس استطاع باسترداده الولايات المفقودة فى الغرب ان يغطى هذا الخط الفاصل الذى يقسم الامبراطورية . ولكن بنهاية جستنيان انكشف الخط الذى يحدد قسمى الامبراطورية من جديد . فقد احتل اللومبارديون ايطاليا واسترد القوط الغربيون الجزء الجنوبى الشرقى من اسبانيا والذى كان جستنيان قد استرده ، هذا عن الغرب ، وفى الشرق واجهت الامبراطورية خطر الفرس وتوغل السلاف ودخلت فى أعنف صراع لها من اجل البقاء وقد أثبتت هذه الاحداث انه لم يعد باستطاعة اى امبراطور أن يعيد توحيد قسمى الامبراطورية . وهكذا أخذ كل قسم يتطور فى اتجاه مختلف ، فالقسم الشرقى اصبحت وجهته شرقية ومشاكله شرقية ، والقسم الغربى وجهته غربية ومشاكله غربية ، ولم يكن هناك من يستطيع أن يمنع هذا التطور . (١٣١)

وعلى هذا فمع نهاية القرن السادس الميلادى انتهى نظام العالم القديم الذى بذل جستنيان الجهد والمال والدم من أجل إعادة تكوينه ، ولم يعد هناك أمل فى إعادة بناءه مرة أخرى . كانت هذه هى الحقيقة ، ولكن الخيال استمر ينسج اسطورة الامبراطورية الرومانية . ولعل أعظم درس تركه جستنيان لخلفائه من بعده هو أنه جدد حياة الاسطورة التى تقول أن الامبراطورية الرومانية هى دولة اقامتها العناية الالهية لتعيش وتستمر بلا حدود لسلطانها ولا أجل لحياتها .

ويمكن القول أنه اذا كان قد اعتلى عرش الامبراطورية بعد اضطرابات القرن الخامس الميلادى (وسقوط الغرب الاوربى فى يد الجرمان) سلسلة من الاباطرة العاديين الذين حكموا القسم الشرقى من القسطنطينية ، لماتت فكرة روما القديمة الخاصة بعالمية سلطانها موتاً تدريجياً طبيعياً . فلو لم يظهر شخص غير عادى مثل الامبراطور جستنيان لاضمحلت الامبراطورية الرومانية الشرقية (الامبراطورية البيزنطية) فى القرن السادس ووصلت الى مستوى مملكة يونانية او أى مملكة شرقية ، وقد انقطعت بها كل صلة بالغرب فعليا ونظرياً . ولكن بعد ظهور جستنيان كان هذا غير ممكن . فرغم فشل مشاريع جستنيان فى الغرب من الناحيه العملية ، الا ان فكرة استرجاع الاقاليم الغربية ظلت دائما فى جدول أعمال خلفائه البيزنطيين ، حتى حين كان مجرد التفكير فى هذا أمرا شبه مستحيل . وهكذا عاش الخيال واستمر ينسج اسطورة الامبراطورية الرومانية ، وغلب الواقع . ولقد عبر أحد معاصرى جستنيان وهو الملاح الرحالة كوزماس *Cosmas* عن هذه الفكرة فى الكلمات الآتية :—

« بينما كان المسيح لايزال فى الرحم تلقت الامبراطورية الرومانية سلطانها من الله لتمثل الناموس الذى قدمه السيدالمسيح، لانه منذ ذلك الوقت بدأت السلسلة التى لاتنتهى من خلفاء اغسطس . وهكذا شاركت الامبراطورية الرومانية فى ابراز عظمة مملكة المسيح لانها علت وسمت أكثر من أى مملكة أخرى على الأرض . وإنها لسوف تظل منتصرة غير مغلوبة حتى النهاية وانى مقتنع انه رغم وجود العناصرالبربرية المعادية التى تظهر من آن لآخر ، كعقاب من الرب بسبب ذنوبنا ، الا أن تلك الامبراطورية ستظل غالبة منتصرة بفضل قوة حكامها ، طالما انهم ينشرون العقيدة المسيحية »

كانت هذه هى الاسطورةالتى نسجها الخيال والتى أوحت بالثقة لدى بعض الاباطرة العظام الذين جاءوا بعد عصر جستنيان . فقد تكون هناك هزائم وخسائر ، ولكن حين يشاء الله فان الامبراطورية العالمية تعود دائما الى سابق وحدتها تحت حكم امبراطور واحد نائبا عن الله فى الارض ورأساً للكنيسة المسيحية .

هوامش

الفصل الثاني

١ — *Ostrogorsky* , *State* , 68.

٢ — كان الاعتقاد السائد فى الامبراطورية ، أن فكرة عالمية الحكم الرومانى قضى بهـا الله منـذ البداية ، حين منح الامبراطورية الرومانية اقاليم ليس لها حدود مكانية او زمانية ، وظلت هـذه الفكرة قوية طوال العصور الوسطى ، انظر :

Jenkins , *Byzantium* , 312.

٣ — عبر الامبراطور جستنيان عن هذا المعنى فى واحد من مراسيمه حين قال : « بما أننا نحكم هذه الامبراطورية — التى منحتها لنا العناية الالهية — بارادة الله ، لهذا فإننا نشن الحرب وتنتصر ، ونحافظ على السلام ، ونحفظ للدولة رخائها وازدهارها » . انظر :

Dvornik , *Political Philosophy* , II , 217.

٤ — *Jones* , *LRE* , I , 267.

٥ — *Jones* , *LRE* *I* , 268.

٦ — *Jones* , *LRE* , I, 268 ; *Jones* , *Decline* , 103 ; *Bury* , *Roman Empire* , II 19.

٧ ـ Jones, LRE, I, 269; Jones, Decline, 103; Bury, Roman Empire, II 21.

٨ ـ Bury, Roman Empire, II, 23 Jones, LRE, I, 269.

٩ ـ Procopius, Historia Arcana, 12 13; Malalas, Chronicle, 425.

١٠ ـ أنظر

Bury, Roman Empire, II, 24 n. 2.

١١ ـ Procopius, De Bello Persico (De Bellis libri I - II); De Bello Vandalico (De Bellis libri III - IV); De Bello Gothico (De Bellis libri V - VIII).

وهو يقدم وصفاً دقيقا للحروب التى خاضتها الجيوش الرومانية فى عهد الأمبراطور جستنيان وحتى سنة ٥٥٢م على وجه التحديد، وتظهر قيمة هذا المؤلف فى حقيقة أن بروكوبيوس كان شاهد عيان لتلك الحروب فقدم وصفا تفصيليا لها. ولقد اكمل اجاثياس Agathias

كتاب بروكوبيوس وغطى الفترة الممتدة من ٥٥٢ ـ ٥٥٨ م
انظر :

Jones, LRE, I, 266.

١٢ — *Procopius* *Libri De Aedificius.*

وفى هذا الكتاب يصف بروكوبيوس الانشاءات التى اقامها الامبراطور ويقدم سجل كامل لكل الاعمال المعمارية التى أمر جستنيان بتشييدها فى مختلف انحاء الامبراطورية ، انظر ايضا

Moravcsik *Byzantinoturcica*. I 496 — 500.

١٣ — *Procopius* *Historia Arcana*

وفى هذا الكتاب قام بروكوبيوس بنقد كل أعمال جستنيان التى سبق أن امتدحها فى مؤلفيه السابقين ، ويقدم صورة قاتمة لعصر جستنيان . وعلى هذا فعلى الباحث أن يتشكك فى كل ما ورد فى هذا الكتاب والا ينقل منه الا بعد بحث ومقارنة . ولكن لاشك أن قيمة هذا الكتاب ترجع الى المعلومات التى أوردها بروكوبيوس عن النظام الادارى والمالى فى الامبراطورية وهى معلومات على جانب كبير من الاهمية ، انظر :

Jones, LRE, I, 266 — 67.

أنظر أيضا عن المؤرخ بروكوبيوس وكتاباته الدراسة الهامة التى قدمها لنا بيورى :

Bury , Roman Empire , II, 417 — 30.

١٤ — Bury , Roman Empire , II , 24.

١٥ — Procopius . Historia Arcana VI 29

وقارن ايضا الفصل الثامن من نفس الكتاب

(VIII , 12 - 13.)

١٦ - ويقال أن جستنيان عمل على تغير القانون الذى يمنع الزواج بين الطبقة الحاكمة وبين الممثلات سنة ٥٢٢ م ، انظر

Jones , LRE , I, 270.

١٧ — Procopius Historia Arcana , IX , X, 22 - 49.

وانظر ايضا :

Jones , LRE , I , 270.

١٨ — Jones , LRE , I, 270.

ورد هذا النص فى المرسوم رقم ٨ الصادر فى سنة ٥٣٥ م ، انظر :

Bury, Roman Empire, II, 30.

١٩ ـ ويقال أن ثيودورا *Theodora* توفت بمرض السرطان فى ٢٨ من يونيو سنة ٥٤٨ م ، وكانت صدمة الامبراطور كبيرة لرحيلها ، انظر :

Malalas, *Chronicle*, 484; *Bury*, *Roman Empire*, II, 66 — 67 *Jones*, *Decline*, 101.

٢٠ ـ المصادر التى تناولت شخصية هذا الرجل (يوحنا القبدوق) هى :

Procopius, *Bello Persico*, I, 24 *ff*; *Lydus*, 57 *ff*.

٢١ ـ *Procopius*, *Bello Vandalico*. IV 10.

٢٢ ـ *Jones*, *LRE*, I, 79; *Bury*, *Roman Empire*, II, 55 - 59.

٢٣ ـ *Jones*, *LRE*, I, 278 *Bury*, *Roman Emire*, II, 396.

٢٤ ـ *Krautheimer* *Byz. Architecture*, 153.

٢٥ — Bury, Roman Empire. II, 419 429

٢٦ — Vasiliev, Byz. Empire, I 122 – 23.

٢٧ — هو كوزماس انديكوبليستس Cosmas Indicopleustes الذى اشرنا له فى الفصل السابق وللمزيد عن حياته ونشاطه وكتابه، انظر:

Vasiliev, Byz. Empire, I 163,165 – 167

Beazley, Modern Geography. I, 190 – 96 and 273 – 303.

٢٨ — Vasiliev Byz Empire, I, 54.

٢٩ — Vasiliev Byz. Empire, I, 155.

٣٠ — فمثلا كان الامبراطور اناستاسيوس الأول Anastasius I (٤٩١ - ٥١٨ م) يؤيد حزب الخضر، والمعروف ان هذا الحزب كان يؤيد المذهب المونوفيزى (مذهب الطبيعة الواحدة) وهو المذهب الذى كان الامبراطور اناستاسيوس يميل اليه. اما الامبراطور جستين الأول (٥١٨ - ٥٢٧ م) فقد كان من أنصار فريق أو حزب الزرق الذى كان يؤيد المذهب الرسمى الصحيح (الارثوذكسى)، انظر

Vasiliev, By Empire I. 155 Ostrogorsky State, 73.

٣١ — Ostrogorsky State, 73.

Malalas, *Chronicle*, 474. ٣٢ المصدر

Jones *LRE*, I, 271 - 72. — ٣٣

انظر أيضا عن ثورة نيقة

Bury, *Roman Empire*, II, 39 — 48.

Jones, *LRE*, I, 269. — ٣٤

Procopius *Bello Persico*, I, 22. — ٣٥

Vasiliev *Byz Empire*, I, 138. — ٣٦

Jones, *Decline* 105 — ٣٧

Jones, *LRE*, I, 273 ; *Bury*, *Roman Empire*, II, 116. — ٣٨

Bury *Roman Empire* II, 126 127 ; *Jones*, *Decline*, 106. — ٣٩

عن الحملات السابقة ضد الوندال ، انظر

Ostrogorsky, *State* 61 — 62.

٤٠ - Bury, Roman Empire, II, 126.

٤١ - قام جستنيان بتجنيد هؤلاء الأسرى الوندال فى خمس فرق عسكرية
عرفت باسم الفرق العسكرية الوندالية التابعة للامبراطور جستنيان :
« Justiniani Vandali » وتم ارسالهم ليرابطوا على حدود
الامبراطور فى الجبهة الشرقية ، انظر

Procopius, Bello Vandalico, II, 14.

وأنظر أيضاً

Jones, Decline, 106 Jones, LRE, I, 274.

ويقال ان بعض هؤلاء الاسرى التحقوا بخدمة بليزاريوس ، انظر :

Procopius, Bello Gothico, III, 1.

٤٢ - Jones, LRE, I, 273 - 74; Jones, Decline, 106.

٤٣ - Bury, Roman Empire, II, 140 - 150; Vasiliev, Byz. Empire I, 136; Ostrogorsky, State, 70.

٤٤ - Bury, Roman Empire, II 158 - 59; Jones LRE, I, 274.

٤٥ – Jones , Decline 106 ; Jones , LRE I, 275 Bury , Roman Empire . II, 160.

٤٦ – Jones , LRE , I, 275.

والجدير بالذكر أن بيورى قام بمقارنة مـا ورد عن قصـة مقتـل امالاسونثا Amalasuntha فى كتاب بروكوبيوس الخاص بالحرب القوطية ، بما ورد بشكل مقتضب فى التاريـخ السرى لنفس المؤرخ وخرج من هـذه المقارنة بان مقتـل امالاسونثا قـد يكون من تدبير الامبراطورة ثيودورا Theodora زوجة جستنيان ، التى كانت تخشى من عواقب استقرار الملكه القوطية الجميلة فى القسطنطينية ، انظـر ايضا :

Procopius , Bello Gothico , I, 4 Procopius , Historia Arcana . 16 ; Bury , Roman Empire II, 165 - 67.

٤٧ – Procopius Bello Gothico, I, 5 ; Jones, LRE . I, 275 Bury Roman Empire , II , 170 — 72 .

٤٨ – Just. , Nov . XXX, 11.

٤٩ — Procopius . Bello Gothico , I, 7.8 — 9. 14.

انظر أيضاً

Jones , LRE , I, 276 ; Bury Roman Empire , II, 179 — 18·.

٥٠ — Procopius , Bello Gothico , I, 24 25.

٥١ — Procopius, Bello Gothico, II 12 ; Bury, Roman Empire, II, 202.

٥٢ — Jones, LRE. I, 278 ; Bury Roman Empire , II, 214.

٥٣ — Bury Roman Empire , II, 96 — 100 Jones , LRE, I, 288.

٥٤ — Bury , Roman Empire, II. 101.

٥٥ — أرسل القوط سفارة الى كسرى فارس سنة ٥٣٩ م حثوا فيها الفرس ، على التحالف معهم ضد جستنيان ، انظر

Procopius , Bello Persico II, 14.

٥٦ — Jones, *Decline*, 109 : Bury *Roman Empire*, II, 233 - 47.

٥٧ — Bury, *R man Empire*, II, 113 — 23.

٥٨ — Procopius, *Bello Gothico*. III, 35.

٥٩ — عن هذه المعركة انظر الدراسة التفصيلية التي قدمها بيوري

Bury, *Roman Empire*. II 261 69.

٦٠ — أصدر الامبراطور جستنيان مرسومه المعروف باسم Pragmatic Sanction وفيه نظم الامبراطور إدارة ولاية ايطاليا التي تم استردادها وفي هذا المرسوم الغى جستنيان كل الاجراءات التي اصدرها « الطاغية توتيلا » ، وسمح لاولئك الناس الذين باعوا ممتلكاتهم تحت أي نوع من الضغوط باستردادها مرة ثانية . كذلك نص المرسوم على السماح بعودة المنفيين واطلاق سراح المسجونين واسترداد الجميع لممتلكاتهم . كذلك نظم المرسوم الادارة المالية لولاية ايطاليا ، ونظام جباية الضرائب ومن يتولاها . ومن النصوص الجديدة في هذا المرسوم ان حكام الاقاليم الواقعة في ايطاليا يتم ترشيحهم لمناصبهم هذه عن طريق أساقفة ونبلاء تلك الاقاليم . للمزيد عن هذا المرسوم وتنظيم إدارة

ولاية ايطاليا ، أنظر

Jones LRE, I, 291 – 92 Jones, Decline, 110.

٦١ – Bury, Roman Empire, II, 226 – 27; Vasiliev, Byz. Empire, I, 137.

٦٢ – Bury Roman Embire, II, 227.

٦٣ – Jones, LRE, I, 292.

٦٤ – كان أمالاريك يفتقر إلي الحكمة وبعد النظر التى تمتع بهما جده وتزوج الملك الشاب من أميرة فرنجية (أخت شيلدبرت Childebert ملك الفرنجة) ، الا أن هذا الزواج باء بالفشل ، إذ عامل أمالاريك زوجته بقسوة وحاول أن يفرض عليها إعتناق المذهب الأريوسى مما اضطرها الي طلب المساعدة من اخيها . وحين هاجم شيلدبرت مدينة ناربونة Nordonne ، وكانت من ممتلكات القوط فى جنوب غرب غالة ، خرج أمالاريك للدفاع عنها ، وهناك انتصر علية الملك الفرنجى ثم قتله جنوده بعد ذلك ، انظر :

Bury Roman Empire, II 286.

٦٥ Jones, LRE, I, 292 - 93, Bury, Roman Empire, II, 286 - 88, Vasiliev, Byz. Empire, I, 137-38.

٦٦ - Vasiliev, Byz. Empire, I 137

٦٧ - لم يكن الميزان التجارى يسير لصالح الامبراطورية بسبب كثرة السلع التى تستوردها الأخيرة من الشرق وبسبب اضطرارها للاعتماد على وساطة فارس . وقد جنت الامبراطورية الفارسية ارباحا طائلة من وراء ذلك ، انظر

Bury, Roman Empire, II, 317.

٦٨ - Bury, Roman Empire, II, 321.

٦٩ - عن دور جزيرة سيلان فى التجارة بين الشرق والغرب ، واحتكار الفرس شراء الحرير الوارد من الصين الى سيلان ، وفشل الاحباش فى منافستهم ، انظر :

Cosmas indicopleustes, 322-25.

٧٠ - عن هذا الموضوع ، انظر

Heyd, Commerce, I, 12; Lopez, Silk Industry, 1-42; Bury,

Roman Empire, II, 332 Vasiliev, Byz Empire, I, 169.

٧١ — Vasiliev Byz. Empire, I, 142.

٧٢ — Vasiliev Bury Roman Empire II, 396

Byz. Empire I, 143, 145.

٧٣ صدر مرسوم الامبراطور بتشكيل هذه اللجنه في ١٥ ديسمبر سنة ٥٣٠م على وجه التحديد ، انظر :

Jones, LRE, I, 279.

٧٤ — Vasiliev, Byz. Empire, I, 1 4.

٧٥ — Vasiliev, Bury, Roman Empire. II, 397 — 98 ;

Digest 711 34.

٧٦ — صدر في ٢١ نوفمبر سنة ٥٣٣ م على وجه التحديد ، انظر :

Jones, LRE, I 279 Vasiliev, Byz. Empire.

I, 144.

٧٧ - *Just.*, *Nov*, 7.

٧٨ - Vasiliev, *Byz. Empire*, I, 45.

٧٩ - Ostrogorsky, *State*, 76 — 77.

٨٠ - Vasiliev, *Byz Empire*, I 191 Bury Roman Empire, II, 54 — 55.

٨١ - كانت أهم كنائس رافنا هي كنيسة فيتال *St. Vitale*، انظر عن طراز بنائها المعمارى :

Krautheimer, *Byz. Architecture*, 169 170.

٨٢ - عن انشاء هذة الكنيسة الضخمة ومواصفاتها المعمارية ، انظر :

Procopius, *De Aedificius*, I, 22 26 Krautheimer, *Byz. Architecture*, 153 — 165.

٨٣ - Vasiliev, *Byz. Empire*, I, 188.

وحسب رواية جيبون ، قال جستنيان متعجبا فى احتفال افتتاح الكنيسة :

« الحمد لله الذى قدر انى جدير بانجاز هذا العمل العظيم لقد جاوزت فيه قدرة سليمان وتفوقت عليه » . انظر

جيبون اضمحلال ، جـ ٢ ، ٤٣٣ .

٨٤ - Malalas *Chronicle*, 489 *Agathias*, 296 – 97

Bury *Roman Empire* 52.

٨٥ - شاعر البلاط هذا هو بواص السيلنتيارى *Paul Silentiary* ، وقد نظم قصيدتين فى روعة وعظمة كنيسة الحكمة المقدسة ، ولقد قام العالم الالمانى فريدلندر *Friedlander* بنشرهما وترجمتهما والتعليق عليهما، انظر :

Friedlander, *Paulus Silentiarius*, 227 – 65.

٨٦ - Procopius *Historia Arcana* 20

وانظر ايضا نفس المعنى فى كتاب آخر لبروكوبيوس :

Procopius, *De Aedificius* 1.

٨٧ - *Bury*, *Vasiliev*, *Byz. Empire*, I. 148 49

Roman Empire, 360 — 63 Knecht ; *Religions — Politik*, 47, 53.

٨٨ — عن اضطهاد جستنيان للوثنيين انظر

Bury *Roman Empire* II, 366 — 72 Knecht *Religions — Politik*, 35 — 36.

٨٩ — Procopius *Bello Persico*, I, 25.

٩٠ — Bury, *Roman Empire*, II, 356.

٩١ — ويعرف حق السلطة الزمنية فى التساط على الدولة والكنسية معاً بالقيصرية البابوية Caesaro - Papism ، ويعتبر جستنيان من اهم الاباطرة الذين طبقوا هذه السياسة بحق ، أنظر :

Vasiliev, *Byz. Empire*, I, 148, n. 60.

٩٢ — ولقد كتب احد الكتاب المونوفيزيين المعاصرين (يوحنا الافيسوسى John of Ephesus) فى مدحها قائلا « أعظم امبراطورة مسيحية ارسلها الله فى وقت الشدة ، لتحمى المضطهدين » ، انظر :

John of Ephesus, *Commentarii*, 247.

٩٣ ـ عن تذبذب سياسة جستنيان هذه انظر :

Bury, *Roman Empire*, II, 375 — 80.

٩٤ ـ حين توفى ايفانيوس *Epiphanius* بطريرك القسطنطينية فى يونيو سنة ٥٣٥ م ، كانت ثيودورا هى التى رشحت انثيموس *Anthimus* اسقف طرابيزون ليشغل كرسى البطريركية ، وكان هذا الرجل معروف بأن له ميول مونوفيزية ، انظر :

Bury, *Roman Empire*, II, 377.

٩٥ ـ *Bury*, *Roman Empire* II, 377 — 78. *Vasiliev*, *Byz. Empire*, I, 151

٩٦ ـ لم يصل الينا نص هذا المرسوم ، وان كان من المرجح أنه صدر فى سنة ٥٤٣ م ، انظر

Bury, *Roman Empire*, II, 383 — 84.

٩٧ ـ *Vasiliev*, *Byz. Empire*, I, 153.

٩٨ ـ كان هذا فى ٢٦ من فبراير سنة ٥٥٤ م ، وعلى هذا سمح له جستنيان

بالعودة إلى روما . وفى اثناء رحلة العودة توفى البابا فى سيراكيوز فى ٧ من يونيو سنة ٥٥٥ م ، انظر :

Bury *Roman Empire*, II, 389 – 91 *Vasiliev* *Byz. Empire*, I, 153 – 54.

٩٩ ـ *Ostrogorsky*, *State*, 78 *Vasiliev*, *Byz. Empire*, I, 154.

١٠٠ ـ *Procopius*, *Historia Arcana* 21, 23

١٠١ ـ *Lydus*, 70.

١٠٢ ـ للمزيد عن اصلاح الجهاز الادارى والادارة المالية ، انظر :

Bury, *Roman Empire*, II, 334 — 38, 348 — 59;

Jones, *LRE*. I, 294 - 96 ; *Vasiliev*, *Byz. Empire*. I, 159 - 62.

١٠٣ *Jones* *LRE*. I, 287 - 88 ; *Jones*, *Decline*, 114 - 15

١٠٤ ـ *Jones* *LRE*. I, 300.

١٠٥ ـ عن تفاصيل علاقات جستنيان بالفرس ، انظر

Bury, *Roman Empire*, II, 89 — 123.

١٠٦ — Ostrogorsky, State 71. Jones, LRE, I, 299

١٠٧ — Jones, LRE, I, 305. Ostrogorsky, State, 79

١٠٨ — فرغم قيام جستنيان بانشاء تحصينات قوية على طول تلك الجبهة ، وبالذات في الليريا Illyricum وتراقيا Thrace ، الا أنه اهمل إثارتها وأهمل وضع حاميات قوية فيها وكثيرا ما كان الامبراطور يسحب جنوداً من الفرق العسكرية المرابطة هناك ليعزز وضع قواته التي تقاتل في ايطاليا .. ، انظر :

Jones, LRE, I, 299 ; Bury, Roman Empire, II, 308 — 309.

١٠٩ — عن الآفار وقيامهم بتهديد جبهة الدانوب ، انظر

Bury, Roman Empire, II, 314 16 Ostrogorsky, State, 81.

١١٠ — Vasiliev, Byz. Empire, I, 140.

١١١ — Bury, Roman Empire II, 315.

١١٢ — Bury Roman Empire II, 316.

١١٣ - يبدو أن قرار دفع الجزية الى الآفار سنة ٥٧٤ م كان قرار تيبريوس الذى كان يحمل لقب قيصر ويتولى إدارة الامبراطورية فعليا منذ سنة ٥٧٤ م باسم الامبراطور جستين الثانى الذى أصيب بمرض عقلى فى نفس العام ، انظر :

Jones, LRE, I, 304, 306 — 307.

١١٤ - Ostrogorsky Vasiliev Byz. Empire, I, 172 ; State, 81 — 82.

١١٥ - Jones, LRE, I, 305 Ostrogorsky, State, 79

١١٦ - عن تفاصيل تحرك اللومبارديين غربا بقيادة زعيمهم البوين Alboin وقيامهم بغزو ايطاليا سنة ٥٦٨م ، انظر

Jones LRE I 305 ; Vasiliev, Byz Empire, I, 172 — 73 ; Jones, Decline, 116.

١١٧ - Jones, LRE, I 304.

١١٨ - Vasiliev, Byz. Empire, I, 170 Jones, Decline, 117.

١١٩ — Jones, LRE, I, 307 Jones, Decline, 117.

١٢٠ — Jones, LRE, I, 308.

١٢١ — Jones, LRE, I, 308.

١٢٢ — Stein, Tiberius Constantinus, 101 — 102.

١٢٣ — Jones, LRE, I, 311.

المزيد عن الحرب الفارسية فى عهد الامبراطور موريس ، انظر :

Higgins, Emperor Maurice, 1?0 — 150 ; Higgins, International Relations 279 — 319.

١٢٤ — Jones, LRE, I, 312, Ostrogorsky, State, 80

١٢٥ — Jones. LRE I. 314 Jones. Decline, 119.

وأنظر أيضا :

Dölger, Regesten, 13?.

١٢٦ — Jones, LRE, I, 315, Ostrogorsky, State. 83.

١٢٧ — Jones, Decline, 119 — 120 ; Ostrogorsky, State, 83.

١٢٨ - Vasiliev, Byz. Empire. I. I74.

١٢٩ - John of Ephesus, Ecclesiastical, 3.

١٣٠ - Miracula S. Demetrii, I32.

١٣١ - انظر الدراسة الممتازة عن نهاية النظام القديم وميلاد العصر الوسيط التى قام بها براون :

Brown, Late Antiquity, 172 - I87.

الفصل الثالث

الخطر من الشرق ومن اللاأيقونية

٦١٠م — ٨٤٣م

- الخطر الفارسى
- ظهور دولة بلغاريا
- نظام الثيمات
- الحياة الثقافية
- إضمحلال المدن
- خطر العرب المسلمين
- اللاأيقونية *Iconoclasm*
- الارستقراطية العسكرية

صعوبة الانتقال والسفر بين الشرق والغرب

كان نظام العالم فى نهاية العصر القديم يقوم بصفة عامة على توازن قوتين عظيمتين هما : الامبراطورية الرومانية التى كانت تغطى كل حوض البحر المتوسط من ناحية ، والامبراطورية الفارسية التى كانت تمتد من نهر الفرات وحتى حدود الهند من ناحية أخرى . ومع أن علاقة كل قوة بالاخرى كانت بصفة عامة عدائية ، فان كلا القوتين كانتا فى أغلب الاحوال فى حالة وفلق مشوب بالحذر . ويمكن القول أن كل من الادارة الرومانية والادارة الفارسية عملت على تطوير وتدعيم العلاقات السياسية فيما بينهما على اساس الاعتراف المتبادل بسيادة كل دولة على أراضيها (١) . ولكن كانت هناك مشاكل بسبب المناطق المتنازع عليها على الحدود ، ولهذا كانت العلاقات بينهما تقف عند الحد الأدنى .

أما خارج حدود هاتين الامبراطوريتين والدويلات الصغيرة التى كانت تجاورهما (مثل أرمينيا والامارات القوقازية ، واليمن ، والحبشة) ، فان بقية العالم المعروف فى اتجاه الهند كان بحراً متقلبا يموج بعناصر بشرية مختلفة .

على أية حال حين إعتلى هرقل العرش بعد القضاء على الامبراطور البغيض فوقاس سنة ٦١٠ م ، كانت الامبراطورية البيزنطية لا تزال كيانا معترفاً به فهو امتداد لكيان الامبراطورية الرومانية حقيقة أن ايطاليا كانت قد سقطت بالتدريج فريسة للغزو اللومباردى ، وصحيح أن شبه جزيرة البلقان قد تعرضت لاجتياح أقوام الآفار والسلاف ، ولكن الامبراطورية كانت

لاتزال تمتد من نهر الفرات شرقاً وحتى جبل طارق غرباً، وكانت سفن التجارة تبحر من أحد طرفي البحر المتوسط الى الطرف الآخر

وجد هرقل الامبراطورية منهكة ومضطربة الاحوال . فمن الناحية الاقتصادية، كانت مواردها مستنزفة وخزانتها خاوية، ومن الناحية الادارية كان جهازها الادارى كله فى حالة شلل كاملا، وكان تنظيمها العسكرى مضطرب . فالتنظيم العسكرى للجيش الامبراطورى كان يقوم على تجنيد الرجال مقابل أجر يدفع لهم، ولكن هذا التنظيم أصابه الاضطراب والشلل لأن الادارة الامبراطورية كانت تفتقر الى الاموال التى تدفع منها أجور الجند هذا من ناحية، ومن ناحية اخرى لم تعد هناك مصادر كثيرة متاحة يمكن تجنيد الرجال منها فالاقاليم الحيوية الرئيسية للامبراطورية ذات الموارد البشرية اجتاحتها جيوش الأعداء الآفار والسلاف اجتاحوا البلقان، والفرس توغلوا الى قلب آسيا الصغرى (٢) . وفى ظل هذه الظروف ادرك هرقل مدى صعوبة مهمته لدرجة أنه فكر فى العودة الى شمال افريقية، لولا اعتراض سكان العاصمة واعتراض البطريرك سرجيوس Sergius (٣)

كانت الأخطار التى تهدد الأمبراطورية كبيرة، فبعد فشل حملات الامبراطور موريس على الدانوب فى مطلع القرن السابع بدأ احتلال السلاف للبلقان على نطاق واسع . اذ اخذت اعداد لاحصر لها من أقوام السلاف والآفار تجتاح شبه جزيرة البلقان من شواطيء البحر الادرياتى فى الغرب الى البحر الايجى فى الجنوب والشرق (٤) . واذا كانت اغارات الآفار من

لأجل السلب والنهب والعودة بعد ذلك الى مناطق استقرارهم شمال نهر الدانوب ، فان السلاف جاءوا للسلب والنهب والاستقرار في البلقان . ولقد نجح السلاف في الاستيلاء على مساحات ضخمة من اقاليم البلقان وسببوا الاضطراب للادارة الامبراطورية هناك . ولم يكتف السلاف بالاستقرار في المناطق الواقعة الى الجنوب من نهر الدانوب ، وفي مقدونيا ، اذ اجتاحوا اقليم تراقيا *Thrace* ووصلت اغاراتهم حتى أسوار القسطنطينية . وكذلك تعرضت سالونيكا *Thessalonica* لهجماتهم العنيفة ، وحاصروها مرارا ، ولكنها صمدت الا أن الاقاليم المحيط بها سقط في قبضة السلاف . اب أكثر من هذا غمر السلاف والآفار اقليم تسالي *Thessaly* الى وسط بلاد اليونان ، ومن هناك نزلوا على شبه جزيرة البلوبونيز ، بل أنهم عبروا البحر الى الجزر اليونانية . وفي غرب شبه جزيرة البلقان هاجم السلاف اقليم دالماشيا *Dalmatia* حيث دمروا واستولوا على العديد من مدنه . ونتج عن إستقرار السلاف في البلقان أن تغير التركيب البشري لسكان شبه الجزيرة ، فتحت ضغط هجرات السلاف انسحب السكان الأصليون الى المناطق الساحلية والجزر المجاورة. وهكذا تحول الجزء الاكبر من شبه جزيرة البلقان الى اقليم سلافي بالكامل (٥)

وفي نفس الوقت إستمر ضغط الفرس على الشرق الأدنى . ففي سنة ٦١٩م بدأ هجوم الفرس على الشام ، حيث هزموا جيشاً بيزنطياً بالقرب من انطاكية سنة ٦١٣ م .

ونتيجة لهذا الانتصار اندفع الفرس فى كل اتجاه فبعد الاستيلاء على انطاكية تقدم الفرس جنوبا حيث استولوا على دمشق . وشمالا حيث توغلوا فى اقاليم قليقية ، واستولوا على طرسوس Tarsus ونجحوا فى طرد البيزنطيين من أرمينيا (٦) .

وبعد دمشق دخل الفرس الى فلسطين حيث استولوا على مدينة بيت المقدس بعد حصار دام ثلاثة أسابيع فى سنة ٦١٤ م وظل بيت المقدس لعدة أيام مسرحاً لسفك الدماء والحرائق والسلب والنهب ، فسلبت كنوز الكنائس ، وأصاب التدمير كنيسة القيامة Holy Sepulchre التى شيدها قسطنطين العظيم . وزاد الفرس من اذلال البيزنطيين حين حملوا الصليب المقدس اعظم اثر عند المسيحيين الى بلاد فارس .(٧) وفى سنة ٦١٥ م تجددت هجمات الفرس على آسيا الصغرى ووصل الفرس الى البوسفور قاصدين العاصمة . وهكذا هدد أعداء الامبراطورية القسطنطينية من ناحيتين الآفار والسلاف من الشمال والفرس من الشرق . وزادت الكوارث التى اصابت بيزنطة حين بدأ الفرس سنة ٦١٩ م غزو مصر ، أغنى ولايات الامبراطورية ، ومصدر امداد العاصمة بالقمح ، وهكذا اصبح الفرس يسيطرون على كل الشرق الادنى .

امام هذه الاخطار الخارجية وبسبب ظروف الامبراطورية الداخلية ، وجد الامبراطور هرقل (٦١٠ – ٦٤١ م) نفسه مضطراً الى خوض صراع طويل وقتال يائس ضد الامبراطورية الفارسية ، وهى حرب ، قدر لها أن تكون اخر حرب بين هاتين القوتين الكبيرتين . ولقد حاول هرقل وسعى

طلبا الصلح مع فارس دون جدوى ، اذ كان الرد الوحيد الذى تلقاه الامبراطور من الملك الفارسى كسرى الثانى ابرويز (٥٩٠ – ٦٢٨ م) هو :

« لن أدعك ابداً حتى تنبذ وتتبرأ من هذا المصلوب الذى تقول أنه الله ، وحتى تخر ساجداً أمام الشمس » . (٨)

وهكذا كان الصراع أمراً حتميا ، وسرعان ما دخل فى نطاق الأساطير ووصفه المؤرخون على أنه صراع بين دينين ، بين المسيحية والمازدية *Mazdaism* . ولما حقق الفرس تلك الانتصارات السريعة بدا وكأن حلم كسرى الثانى الخاص باعادة توحيد اقاليم الهلال الخصيب ، كما كانت فى أيام اجداده القدامى قورش *Cyrus* ، واكزركسيس *Xerxes* وداريوس *Darius* ، توشك أن تصبح حقيقة . (٩)

على أية حال لم يكن أمام هرقل فى النهاية إلا أن ينهض لمواجهة الخطر العظيم الذى هدد وجود الامبراطورية ، ووقفت الكنيسة البيزنطية الى جانب الامبراطور وساهمت بكل ماتملك ، فوضعت كل ثروتها من أموال وكنوز ذهبية تحت إمرة هرقل ، وبدأت الحرب فى إطار مشاعر دينية ملتهبة لم تعرف من قبل فى الامبراطورية البيزنطية . وقرر هرقل أن يقود جيشه بنفسه ، وخلال غيابه عن العاصمة عين البطريرك سرجيوس *Sergius* والبطريق بونوس *Patricius Bonus* وصيان على إبنه الصغير . ولا شك أن هرقل بقيادته الجيش بنفسه كان يتبع المثل الذى ضربه الامبراطور موريس *Maurice* من قبل ، والمعروف انه منذ عهد ثيودوسيوس الاول (٣٧٩ – ٣٩٥) لم

وقد تولى الامبراطور قيادة جيشه فى الحرب ، حتى جاء موريس ثم هرقل من بعده . [١٠] ويبدو بالذكر أن هرقل اضطر إلى عقد هدنة مع الآفار مقابل دفع جزية حتى يتخلص من خطر الجبهة الشمالية ويتفرغ للفرس ، ويتمكن بالتالى من نقل القوات العسكرية القليلة التى لا تزال فى البلقان إلى جبهته الشرقية .

وفى النهاية غادر هرقل العاصمة [٨] يوم عيد الفصح الموافق ٥ من أبريل ٦٢٢م ، وتقدم إلى أقاليم آسيا الصغرى كى يعيد تنظيم دفاعاتها . وأمضى فصل الصيف كله وهو يدرب الفرق الجديدة التى جندها فى جيشه . وأخذ الامبراطور يهتم بتطوير التكتيك العسكرى ، وعمل على زيادة قوة فرق الفرسان وكتائب النبالة فى جيشه . [١١]

لم يبدأ صدام هرقل بالفرس قبل خريف ٦٢٢ م ، حيث تحرك الامبراطور بجيشه - متجنباً مناطق تمركز قوات الفرس الامامية - الى ارمينيا . وامام هذه المناورة البارعة اضطر الفرس الى ترك مواقعهم فى جبال طوروس فى آسيا الصغرى والاسراع بتتبع الامبراطور - والتقى الجانبان فى آرمينيا وحقق هرقل اول نصر سريعاً على جيش القائد الفارسى شهربراز ... وبهذا حقق هرقل هدفه الاول الا وهو تحرير آسيا الصغرى من الفرس ... ولم يستطع الامبراطور مواصلة تحركاته العسكرية ... باضطراره العودة الى القسطنطينية لأن الآفار نقضوا الهدنة ... هرقل من شراء هدنة جديدة معهم بزيادة الجزية التى تدفع لهم وبارساله لعدد من الرهائن الى الآفار . وعلى ذلك اصبح هرقل فى موقف يسمح باستئناف الحرب مع الفرس ونقل توسعه الى الجبهة الفارسية

فى مارس سنة ٦٢٣ م .

والجدير بالذكر أنه رغم هزيمة الفرس السابقة رفض كسرى الثانى عقد اي اتفاق مع البيزنطيين ، بل انه ارسل الى الامبراطور رسالة كلها شتائم واهانات ، وكانت كلماتها الافتتاحية :

« من كسرى ، محبوب الآلهة ، ملك وسيد كل الأرض ، ابن أرمازد Armizd العظيم ، الى هرقل خادمنا الاحمق الحقير » (١٣)

عبر هرقل اقليم قبدوقيا واتجه الى ارمينيا وهناك دمر مدينة دفين Dvin وعدد آخر من المدن الأرمينية ومن هناك اتجه الامبراطور جنوبا الى داخل الاراضى الفارسية حيث هاجم مدينة جانزاك Ganzak التي كانت مركز ديني هام في بلاد فارس ، وأجبر كسرى على الهرب تاركا المدينة تسقط في يد هرقل وقام الامبراطور بتدمير معابد النار فيها انتقاما لما اصاب كنيسة القيامة في بيت المقدس . عاد هرقل بعد ذلك ومعه عدد كبير من الاسرى ليمضى فصل الشتاء فى ارمينيا الى الخلف من نهر اراكسس Araxes ، وهناك دخل فى مفاوضات مع الامارات القوقازية واستطاع أن يدعم قواته بفرق من امارة ابخازيا Abasgia ، ومن مملكة ايبريا Iberia ورغم كل هذه الاستعدادات الا ان الامبراطور لم يتمكن من انجاز الكثير فى العام التالى ولذلك اضطر الى قضاء العام كله (سنة ٦٢٤ م) فى ارمينيا ، ولكنه استغل ذلك الوقت فى تدعيم دفاعات ارمينيا . حاول الامبراطور أن يعبر الى الاراضى الفارسية عن طريق قليقية ولكنه فشل ، ورغم تحقيقه لبعض الانتصارات على الفرس الا أنه اضطر الى العودة شمالا حيث امضى الشتاء

فى اقليم بنطس Pontus على البحر الاسود (شمال شرق آسيا الصغرى) (١٤)

أصبح الفرس فى موقف يسمح لهم بتجديد هجومهم على آسيا الصغرى وفى سنة ٦١٦ م كان على القسطنطينية أن تواجه خطرا جسيما من ناحيتين : الفرس من الشرق والآفار من الشمال ، وكان هذا ما يخشاه هرقل لقد نقض الآفار الهدنة مع البيزنطيين ربما نتيجة اتصال الفرس بهم على أية حال تقدم شهر باراز وعبر آسيا الصغرى على رأس جيش كبير واحتل خلقدونة Chalcedon وعسكر على جانب البوسفور المواجهة للعاصمة . وبعده بقليل وصل خان الآثار على رأس اقوام من السلاف والبلغار وحاصروا المدينة برآ وبحرآ وعاشت العاصمة احرج أيامها وهى تواجه اعنف حصار من قبل عدوين فى وقت كان فيه الامبراطور وجيشه يقاتلون فى جهة بعيدة . ورغم ان الحصار استمر ثلاثة أشهر من يونيو الى أغسطس سنة ٦٢٦ م الا ان المدينة صمدت واستطاع البطريرك سرجيوس Sergius ان يلهب حماس سكان العاصمة ، فى الوقت الذى صمدت الحامية القوية ، التى تركها هرقل ، لكل هجمات الفرس والافار . وفى النهاية حسم التفوق البحرى البيزنطى الموقف ، فأثناء الهجوم الاخير لسفن الآفار - فى اليوم العاشر من أغسطس سنة ٦٢٦ م - على العاصمة ، استطاع الاسطول البيزنطى الحاق هزيمة ساحقة بسفن الافار ، وتبع ذلك الحاق الهزيمة بقواتهم البرية التى اصيبت بخسائر كبيرة فاضطر الافار والسلاف الى الانسحاب بعد رفع الحصار وادى انسحاب الافار الى فشل الغزو الفارسى ايضا واضطر شهرباراز Shahrabraz الى الانسحاب من خلقدونة الى الشام ، واثناء انسحابه ، الحق القائد البيزنطى ثيودور (اخو هرقل) هزيمة بالقائد

الفارسى الثانى المدعو شاهين وهكذا انتهت الأيام العصيبة التى واجهت القسطنطينية . (١٠)

والجدير بالذكر ، انة بينما كانت العاصمة تواجه محنة الحصار ، كان هرقل على رأس جيشه فى ايبريا . وهناك دخل فى مفاوضات جديدة مع مملكة الخزر Kha ars ، وتم عقد اتفاقية تحالف بين الامبراطورية ودولة الخزر ، ومنذ ذلك الوقت أصبح التحالف البيزنطى الخزرى واحداً من مظاهر سياسة بيزنطة الشرقية . (١٦)

وقام الخزر كحلفاء هرقل بقتال الفرس فى الاراضى الارمينية ، وفى خريف سنة ٦٢٧ م بدأ الامبراطور هجومه الكبير جنوبا فى اتجاه قلب الامبراطورية الفارسية ومع بداية ديسمبر كان هرقل قد وصل أمام نينوى Nineveh . وهناك دارت المعركة الفاصلة الهامة بين القوتين الكبيرتين،وحسمت نتيجتها الى الابد ذلك الصراع الطويل بين الفرس والبيزنطيين وفى هذه المعركة قضي هرقل على الجيش الفارسي والحق به اعنف هزيمة ، وحقق لبيزنطة أعظم انتصار واصل هرقل انتصاراته ، ومع مطلع سنة ٦٢٨ م استولى هرقل على مدينة دستاجرد Dastagerd (وكانت المكان المفضل لاقامة الملك الفارسى) ، واضطر كسرى الثانى الى التراجع الى المدائن وفى ربيع سنة ٦٢٨ م وقعت احداث هامة داخل مملكة الفرس وضعت نهاية للقتال الدائر . اذ قامت ضد كسرى ثورة داخلية وقبض عليه وقتل . وقام إبنه كافاد شيرويه Kavadh - Shiroe ـ الذى خلفه على العرش ـ بعرض الصلح على هرقل (١٧) . ونتيجة لانتصارات الامبراطور والانهيار

الكامل للفرس، استطاع هرقل استرجاع كل الاقاليم التى استولى عليها الفرس وهى ارمينيا، والجزيرة، والشام، وفلسطين، ومصر وبمجرد هزيمة الفرس، ارسل هرقل علانا بالنصر الى القسطنطينية وصف فيه نجاحه ضد الفرس، واعلن نهاية الحرب . (١٨)

وجدير بالذكر ان كافاد شيرويه Kavadh - Shiro توفى بعد ذلك ببضعة اشهر واعلن قبل وفاته، ان يصبح الامبراطور هرقل وصيا على إبنه الصغير . ويا له من موقف فمنذ سنوات قليلة اعتبر كسرى الثانى هرقل عدواً له ولكن الموقف انقلب الان واعلن شيرويه ان ابنه ووريثه هو خاضع وتابع للامبراطور البيزنطى (١٩)

وهكذا وبعد ست سنوات غاب فيها هرقل، عاد الامبراطور الى القسطنطينية ظافراً، واستقبلته العاصمة استقبال الابطال، فوقف ابنه قسطنطين والبطريرك سرجيوس، وكبار رجال الدين وعلية القوم والناس على الشاطىء الأسيوى أمام العاصمة، يحملون اعواد الزيتون والشموع المضيئة وهم ينشدون التراتيم الكنسية التى تعبر عن فرحة النصر .

٨ - وبعد أن خرج الفرس من كل الاقاليم التى استولوا عليها، ذهب هرقل فى ربيع سنة ٦٣٠ م الى بيت المقدس . وفى ٢١ من مارس سنة ٦٣٠ م اعاد الامبراطور الصليب المقدس وسط احتفال ضخم . (٢٠)

ولقد أشار القرآن الى الحرب التى دارت بين الفرس والبيزنطيين وتنبأ القرآن انتصار البيزنطيين فى النهاية، اذ يقول الله سبحانه وتعالى فى سورة الروم :

« الم غلبت الروم فى أدنى الارض وهم من بعد غلبهم سيغلبون فى بضع سنين لله الأمر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون » (٢١)

كانت الحرب بين الامبراطوريتين الفارسية والبيزنطية مدمرة ، اذ نشرت الخراب فى مناطق عديدة من الشرق الادنى وخاصة أرمينيا ، كما أصابت كل من الشام ومصر أيضا لقد دار القتال على طول الحد الشمالى لمنطقة الهلال الخصيب من القوقاز وحتى شمال الجزيرة ، وكانت هذه المنطقة مليئة بالتحصينات القوية ، ولهذا شهدت هجمات الفرس وهجمات البيزنطيين المضادة واذا كانت التحصينات القوية تركز فى الحد الشمالى لمنطقة الهلال الخصيب فان الحد الجنوبى كان خاليا من أية تحصينات قوية وكانت دفاعات البيزنطيين والفرس هناك تعتمد على شبكة ضعيفة من المحالفات التى عقدوها مع القبائل العربية المجاورة ففى الجابية الى الشرق من دمشق كانت تقع امارة الغساسنة وتولى بنو غسان حراسة الحدود الجنوبية للامبراطورية البيزنطية كمعاهدين وحلفاء للامبراطور وفى الحيرة ، كانت تقع مملكة اللخميين وكانت هذه المملكة تشكل دولة حاجزة بين الامبراطورية الفارسية وقبائل الصحراء ، ولم تكن الادارة الفارسية او الادارة البيزنطية تعطى لعرب الصحراء اى اهتمام ، فهؤلاء العرب كانوا فى نظر الفرس والروم قبائل بدائية تفتقر الى النظام والوحدة . (٢٢)

على أية حال لقد خرجت فارس وبيزنطة من حربها الطويلة وقد انهكها طول القتال وحل بها الخراب واصبحتا فى اشد حالات التعب والانهاك

وكانتا فى أشد الحاجة الى فترة من السلام لاسترداد الانفاس واعادة تنظيم الاحوال . ولم تكن فارس او بيزنطة فى موقف يسمح لهما بمواجهة عدو جديد . وكان ظهور العرب على مسرح الاحداث فى ذلك الوقت من أهم الاحداث التى ساهمت فى تطور التاريخ الانسانى بصفة عامة وتاريخ منطقة الشرق الأدنى بصفة خاصة لقد ظهر الرسول محمد (صلى الله عليه وسلم) فى شبه الجزيرة العربية ، وأخذ يدعو الناس الى وحدانية الله . وفى سنة ٦٢٢م، وهى السنة التى خرج فيها هرقل مبتدءاً حملاته ضد الفرس ، خرج الرسول (صلى الله عليه وسلم) مهاجرا من مكة الى المدينة مبتدءاً مرحلة هامة فى نشر الدعوة الاسلامية . وفى نفس السنة بدأ التقويم الاسلامى (الهجرى) ولم تمض سوى بضع سنوات حتى كانت الدعوة الجديدة قد تمكنت ودانت لها كافة القبائل العربية ، وقامت الدولة العربية الاسلامية فتية وقوية وسرعان ما خرج العرب المسلمون واجتاحوا اقاليم امبراطوريتى الفرس والبيزنطيين . حاطمين

أبدى الامبراطور هرقل سلبية غير عادية أمام هذا الخطر الجديد . فاذا كان هرقل قد تولى قيادة الجيش بنفسه فى حروبه ضد الفرس ، فان هذا الوضع لم يستمر ونجد الامبراطور لا مشترك فى القتال ضد العرب بنفسه . فى البداية حاول هرقل أن يوجه العمليات العسكرية من انطاكية ، ولكن بعد أن انتصر العرب فى معركة اليرموك فى ٢٠ من أغسطس ٦٣٦م/١٥هـ وتحدد مصير الشام كله ، سلم الامبراطور بضياع الشام ، وقام باخلاء الشام وفلسطين وانسحبت القوات البيزنطية الى آسيا الصغرى . وهكذا تحطم وانهار ذلك النصر الذى سبق ان حققه على الفرس أمام عينيه ، وبدت كل

جهوده السابقة ضد الفرس وقد ضاعت هباءاً ومهدت الطريق امام العرب لقد أدى ادبار الايام بهذه الصورة القاسية الى انهيار الامبراطور الذى تقدمت به السن تقدم العرب بسرعة فى كل اتجاه ، ففى الوقت الذى حطموا فيه مملكة فارس واستولوا عليها ، قاموا بالاستيلاء على فلسطين ، وتابع العرب اندفاعهم فهاجموا ارمينيا واستولوا على دفين *Dvin* سنة ٦٤٠م وفى نفس العام بدأوا غزو مصر . (٢٣)

إن الامبراطور الذى شهد هذه الكوارث ، هو الامبراطور هرقل الذى لا يزال يحير المؤرخين . ان صورة وجهه بلحيته التقليدية وشاربه واضحة تماما فى العملة البيزنطية التى ترجع الى القرن السابع . اما عن شخصية هذا الرجل وصفاته ، فلا نعرف عنها الكثير . لقد كان هرقل قائدا بارعا فى ميدان القتال ، واظهر بسالة واقدام فى قتاله ضد الفرس ، كذلك كان ذو كفاءة ادارية ، ويشهد على ذلك قيامه باعادة تنظيم أقاليم الامبراطورية وهو إصلاح هام اكتمل بعد وفاته ومن المعروف ان هرقل تعرض لانتقادولوم شديد لانه خالف الدين والعرف والتقاليد وتزوج من ابنة اخيه مارتينا *Martina* وكان هرقل يعانى آلام مرض الصرع وداء الاستسقاء . (٢٤)

والجدير بالذكر أنه بوفاة الامبراطور هرقل فى ١١ من فبراير سنة ٦٤١م دخلت الامبراطورية عصر مظلم لمدة قرنين من الزمان خرجت بعده وقد اعتراها تغير كبير وجوهرى . إن أحداث هذين القرنين من الزمان غير معروفة لنا تفصيلا ، وكل مانعرفه مجمل ومبسط والسبب فى هذا هو ان كتابة التاريخ فى تلك الفترة توقفت . وان المقصود بالكتابة التاريخية هنا هو الكتابة

الحولية المتصلة ، على النمط الذى استخدمه ثوكيديديس *Thucydides* او بوليبيوس *Polybius* وعلى هذا النمط كتب لنا مؤرخو القرن السادس الميلادى: مثل بروكوبيوس *Procopius* واجاثياس *Agathias* وثيوفيلاكتوس سيموكاتا *Theophylactus Simocatta* الذى تتوقف حوليته عند سنة ٦٠٢ م (٢٥).

بالنسبة لانجازات الامبراطور هرقل فقد وصفها لنا فى اسلوب شعرى ، جورج البسيدى *George of Pisidia* احد موظفى كنيسة الحكمة المقدسة *Hagia Sophia* بالقسطنطينية فى عهد البطريرك سرجيوس *Sergius* (٦١٠–٦٣٩م). وعلى هذا عاصر جورج عهد الامبراطور هرقل وكان شاهد عيان لأولى حملات هرقل ضد الفرس سنة ٦٢٢م، ويعتبر وصفه لهذه الحملة فى غاية الاهمية كذلك وصف لنا جورج الهجوم المشترك للفرس والافار على القسطنطينية وحصارهم لها سنة ٦٢٦ م ، كما وصف أيضا احتفالات هرقل بانتصاره النهائى على الفرس (٢٦) وتعتبر الحولية المعروفة باسم *Paschal* مصدر آخر لعصر هرقل ، فكاتب هذه الحولية كان معاصراً للامبراطور وأحد العاملين مع البطريرك سرجيوس أيضاً ، وكتب حولية تتضمن قوائم للعصور التاريخية مع التعليق عليها بدءاً من آدم وإنتهاءاً سنة ٦٢٨ م (٢٧)

فباستثناء جورج البيسيدى *George of Pisidia* ، والحولية المعروفة باسم *Paschal* ، وكلاهما يتوقف عند عهد هرقل ، يمكن القول أن تعاقب المؤرخين يتوقف ولا يعود إلا فى القرن التاسع الميلادى فى حوليتى ثيوفانيس *Theophanes* ، والبطريرك نقفور *Nicephorus* والمعروف

أن ثيوفانيس كتب حوليته في الفترة من ٨١٠ – ٨١٤ م ويتوقف في سرد الأحداث عند عهد الامبراطور ليو الخامس *Leo V* (٨١٣ – ٨٢٠ م) اما أما البطريرك نقفور فقد شغل منصب بطريرك القسطنطينية في الفترة من ٨٠٦ – ٨١٥ م، وكتب بالإضافة إلى مؤلفاته اللاهوتية، حولية تناولت الفترة من ٦٠٢ – ٧٦٩ م (٢٨). وعلى هذا يمكن القول أن الذي نعرفه عن هذه الفترة المظلمة (القرنين السابع والثامن من الميلاد، باستثناء عهد هرقل فقط) يجب أن نجمعه من كتابات الرهبان، وحياة القديسين، وقرارات المجامع الدينية، ومن المصادر غير البيزنطية سواء كانت عربية أو سريانية أو أرمينية.

إن الصورة التي نخرج بها من قراءة هذه المصادر غير المعاصرة عن القرنين السابع والثامن الميلاديين هي قصة قتال مستمر. ويمكن إدراك كيف كان موقف الامبراطورية البيزنطية ميئوسا منه في الشرق من حقيقة أنه في سنة ٦٦٣ م فكر الامبراطور قنسطانز الثاني *Constans II* (٦٤١–٦٦٨ م) بشكل جدي في نقل عاصمة الامبراطورية إلى سيراكوزه *Syracuse* في صقلية، وهو تفكير لو كان قد دخل مرحلة التنفيذ لتغير وجه التاريخ الأوروبي بشكل أساسي (٢٩). على أية حال لم تهدأ سرعة اندفاعة العرب الأولى لمدة قرن من الزمان. فبعد وفاة هرقل بعام واحد أكمل العرب فتح مصر بالاستيلاء على الاسكندرية سنة ٦٤٢ م، وبدأوا على الفور حملاتهم على طول سواحل شمال افريقية. ومع أن البيزنطيين حصنوا مستعمراتهم في شمال افريقية بالتدريج حتى نجح العرب في الوصول إلى المحيط الأطلنطي

وأكملوا فتح المغرب الاقصى . وفى سنة ٧١١ م / ٩٢ هـ عبر العرب المجاز إلى اسبانيا .

بالنسبة لأسيا الصغرى ، فالمعروف أن إنهيار دفاعات بيزنطة وانسحاب الفرق العسكرية من الشام وارمينيا الى خطوط دفاعية جديدة داخل آسيا الصغرى ، حدث فى أواخر عهد هرقل وفى عهود خلفائه الاوائل : قسطنطين الثالث ، وهرقل الصغير وامه مارتينا (وقد حكموا لشهور قليلة فى سنة ٦٤١ م) ، (٣٠) وقنسطانز الثانى Constans II (٦٤١ - ٦٦٨ م) . واذا كانت الفترة الاولى من عهد قنسطانز الثانى قد تميزت باستقرار الحدود المؤقته بين الدولة البيزنطية ودار الاسلام ، فان النصف الثانى من عهده يتميز باستئناف العرب لهجومهم على آسيا الصغرى بتوجيه من معاوية بن ابى سفيان الذى كان فى البداية واليا على الشام ، ثم اصبح أول خليفة فى الدولة الامويه . وكانت سياسة معاوية تتلخص فى العمل على اجتياح آسيا الصغرى من أجل الاستيلاء على القسطنطينية . وعلى هذا فمنذ العقد السادس من القرن السابع الميلادى استأنف العرب الهجوم ، وبدأت الحملات الاسلامية الكبرى تدمر خطوط الدفاع البيزنطية الجديدة فى قلب آسيا الصغرى . وحاول العرب الاستيلاء على القسطنطينية والقوا الحصار عليها مرتين . فى المرة الاولى حاصر العرب العاصمة البيزنطية قرابة الخمس سنوات من ٦٧٤م إلى ٦٧٨م ورغم فشل هذه الحملة كرر العرب المحاولة مرة ثانية وحاصروا القسطنطينية براً وبحراً لمدة عام كامل من ٧١٧ - ٧١٨م ، وانتهت هذه المحاولة بهزيمة العرب وانسحابهم . ورغم فشل المحاولتين استمرت اغارات العرب على آسيا الصغرى . (٣١)

كانت سلاسل أجبال طوروس حداً طبيعياً يفصل اقاليم آسيا الصغرى البيزنطية عن دار الاسلام ، ولكن الجيوش العربية عبرت هذه السلاسل الجبلية مراراً وتكراراً وتقدمت فى كل إتجاه ، تجاه العاصمة ، والبحر الاسود والبحر الايجى . واذا كان العرب قد نجحوا فى اضعاف دفاعات بيزنطة الا أنهم لم يتمكنوا من إقامة قاعدة ثابتة لهم فى هضبة الاناضول فى آسيا الصغرى . ولاكثر من قرنين من الزمان استمرت الحملات الاسلامية الكبرى تخرج من آن لآخر ، كما استمرت الصوائف والشواتى تخرج بانتظام كل عام لتغزو آسيا الصغرى حتى اقفر جزء كبير من هذا الأقليم وتحول الى خراب . (٣٢)

ويمكن القول أنه من منتصف القرن السابع الميلادى وحتى نهاية حصار العرب الثانى للقسطنطينية سنة ٧١٨ م ، تعرضت الإمبراطورية البيزنطية لأعنف ضغط عسكرى من جانب العرب المسلمين حتى بدا وكأن نهاية الامبراطورية قد أوشكت . (٣٣) ولكن يلاحظ أن هناك تطوراً قد طرأ على استراتيجية العرب الهجومية بعد فشل الحملة الإسلامية الضخمة التى ارسلها الخليفة الأموى سليمان بن عبد الملك والتى حاصرت العاصمة البيزنطية لمدة عام كامل لقد تخلى العرب عن فكرة الاستيلاء على القسطنطينية ، واستبعدوا أيضا مشروع الاستيلاء على كل الامبراطورية البيزنطية ، إذ أخذت الدولة الأموية ينتابها الضعف تدريجيا بسبب المشاكل الداخلية ، وعلى هذا فان الحملات الضخمة التى استهدفت العاصمة البيزنطية لم تعد شيئا مألوفاً فى استراتيجية العرب الهجومية ، وبدلا من ذلك أخذ العرب يركزون إغاراتهم

على منطقة الحدود فى قليقية وأرمينيا بهدف تدمير كل ما تبقى من تحصينات بيزنطية فى منطقة الحدود ، وضم مساحات من منطقة الحدود الى دار الاسلام وأيضا بهدف السلب والنهب (٣٤) . ورغم أن الاغارات العربية تركزت فى اغلب الاحوال على منطقة الحدود ، الا ان بعض الاغارات كانت فى بعض الاحيان تتوغل الى قلب آسيا الصغرى ، اكثر من هذا وصلت بعض الاغارات الى نيقية فى اقليم بثينيا . (٣٥)

وكانت إستراتيجية الامبراطورية البيزنطية الدفاعية فى الشرق تستهدف اقامة منطقة حاجزة غير آهلة بالسكان بين اقاليم الامبراطورية الشرقية وبين أقاليم الدولة العربية . ومن أجل تحقيق هذا لجأت الادارة البيزنطية الى تدمير الحصون والقلاع الواقعة على الحدود الشرقية لآسيا الصغرى بدلا من وضع حاميات فيها . (٣٦) وسرعان ما أخذ العرب من جانبهم ينشئون التحصينات التى عرفت باسم الثغور فى اطراف دولتهم المواجهة للاقاليم البيزنطية لتكون حصنا يحمى دار الاسلام من ناحية وليتخذوها قواعد لهم يشنون منها اغاراتهم على قليقية وارمينيا . (٣٧) ويمكن القول ان منطقة الحدود سرعان ما تطورت فى القرن الثامن الميلادى الى وضع ثبات عكس نوعا من توازن القوى على الجانبين ، واستمرت منطقة الحدود ثابتة - رغم اغارات العرب عبرها الى الاقاليم البيزنطية - لمدة قرنين من الزمان (٣٨) .

والجدير بالذكر أن المصادر البيزنطية لا تشير الى أية مقاومة من جانب القوات البيزنطية للحملات الاسلامية الكبرى او للاغارات المحدودة . وهذا يدفع الباحث الى الاعتقاد بأن قوات الامبراطوريه التى اخذت تتمركز فى

أقاليم آسيا الصغرى بعد انسحابها من الشام وارمينيا فى أعقاب الفتوح الاسلامية الكبرى ، كانت عاجزة عن مقاومة اغارات العرب المسلمين التى أخذت تتوغل فى كل اتجاه فى آسيا الصغرى . وهكذا وصلت الإغارات العربية الى بفلاجونيا Paphlagonia والى نيقية التى حاصروها مثلا لفترة من الزمن فى سنة ٧١٦ - ٧٢٧م . ويمكن تفسير عجز جيوش الاقاليم البيزنطية فى آسيا الصغرى عن مقاومة الاغارات العربية كالآتى :

أولا : اعادة تنظيم اقاليم آسيا الصغرى وتوزيع الفرق العسكرية البيزنطية التى انسحبت من الشام وارمينيا عليها ، وهو التنظيم الذى بدأه الامبراطور هرقل ، كان لايزال فى مرحلة التكوين ولم يكتمل الا فى عهد الامبراطور ليو الثالث . ونتيجة لذلك يبدو أن الادارة الامبراطورية اتبعت سياسة جديدة فى الفترة عن ٦٥٠ - ٦٩٠ م كى تجتاز محنة الغزو العربى . وتتلخص هذه السياسة الجديدة فى العمل على تجنب الصدام المباشر بالجيوش العربية الغازية تجنباً للهزائم التى لابد وأن يتبعها استسلام المدن وضياعها من الامبراطورية . واذا كانت طبيعة الاغارات العربية وتكرارها كل عام ربما أكثر من مرة مسئولة عن فرض هذه السياسة على البيزنطيين ، فيجب الا تغفل ايضا احتمال انهيار الروح المعنوية لجنود الفرق الشرقية بعد تجربتها المريرة امام العرب فى الشام وفلسطين ومصر . (٢٩)

ثانيا : إن الفرق العسكرية الشرقية التى وزعتها الادارة الامبراطورية منذ منتصف القرن السابع الميلادى ، على أقاليم اسيا الصغرى ، لم تعد قادرة على الاحتفاظ بطابعها كجيوش قتال ميدانية تعسكر فى منطقة معينة وتستطيع

التحرك بسرعة لمواجهة الخطر الذي يهدد منطقة أخرى . والسبب فى ذلك هو أن الظروف التى احاطت بالامبراطورية وقت الغزوات العربية ، حتمت على الادارة الامبراطورية ان تقتصد فى نفقاتها (خاصة بعد ضياع ولايات مصر وفلسطين والشام) واصبح على الفرقة العسكرية فى كل اقليم ان تعتمد على ما يقدمه لها سكان الاقليم المحليين من مال او عطايا عينية . وفى النصف الثانى من القرن السابع الميلادى ، ادى عنف الاغارات العربية الى نقص سكان آسيا الصغرى . فقد اقفرت مناطق عديدة من السكان وسبب هذا مشكلة كبيرة للادارة الامبراطورية اذ وجد قادة الاقاليم صعوبة كبيرة فى تجنيد الرجال من أجل الدفاع عن الاقاليم . (٤٠)

على أية حال ، رغم كل هذه الظروف التى حتمت على الادارة الامبراطورية اتخاذ ذلك الموقف السلبي في مواجهة الاغارات العربية ، الا أن الامبراطورية البيزنطية صمدت لكل ذلك الضغط العسكرى العربى واجتازت المحنة فى النهاية . لقد اعتمدت الامبراطورية فى مواجهة العرب على نظام الانذار المبكر . فيما أن الفرق العسكرية كانت موزعة على اقاليم آسيا الصغرى قلاعها وقراها ومدنها ، ومن الصعب تركيزها فى مكان واحد ، لهذا أصبح الواجب الأول على جنود كل منطقة انذار السكان المحليين المعرضين للخطر والعمل على نقلهم بعيدا عن طريق الاغارة العربية ، ثم استعمال تكتيك حرب العصابات مع المغيرين ومن امثلة ذلك التربص لهم في الممرات الجبلية اثناء عودتهم محملين بالغنائم ثم مهاجمتهم . وظلت هذه السياسة هي الاساس الذى تقوم عليه الاستراتيجية البيزنطية الدفاعية فى مواجهة العرب وجدير بالذكر

لن هذه السياسة فرضتها الظروف على الامارة الإمبراطورية فبسبب تشتت فرق الاقاليم فى ايسيا الصغرى ، وضرورة الاعتماد على الامكانيات البشرية المحلية ، وطبيعة الاغارات العربية وتكرارها كل عام ، كانت هذه السياسة الدفاعية البيزنطية هى الحل العملى لمواجهة الاغارات العربية وامتصاص طاقاتها بأقل الخسائر الممكنة .

واذا كان العرب قد اصبحوا منذ منتصف القرن السابع العدو الرئيسى للامبراطورية فانهم لم يكونوا العدو الوحيد لها . فقد ظهر لبيزنطة عدو جديد فى البلقان فى نفس الوقت تقريباً . لقد سبق أن ذكرنا كيف إنتصر البيزنطيون على الآفار فى معركة القسطنطينية اثناء الحصار المشترك للافار والفرس سنه ٦٢٦ م . على أية حال كان لهذا النصر البيزنطى نتائج هامة امتدت فيما وراء نهر الدانوب . فقد أدت هزيمة الافار وانسحابها من أمام العاصمة ، إلى اندلاع الثورة بين الاقوام السلافية والتركية التى خضعت لسيطرة الآفار . وهكذا قامت القبائل المختلفة بالثورة للتخلص من نير حكم الآفار ، ومن بين القبائل الثائرة كانت قبائل البلغار ، والصرب والكروات . (٤١)

البلغار عناصر تركية استقرت فى البداية فى المنطقة الواقعة الى الشمال من البحر الاسود وبحر قزوين ، وهناك تخضعوا لسلطان الآفار الذين فرضوا سيادتهم على كل العناصر المتبربرة اثناء تقدمهم غربا تجاه الامبراطورية البيزنطية فى القرن السادس الميلادى وحين ثار البلغار ضد الافار طلب قائدهم كوفرات Kuvrat من الامبراطور هرقل التأييد . وبالطبع ايدت الامبراطورية البلغار فى صراعهم ضد الافار ومنح هرقل القائد البلغارى لقب بطريق Patricius

وتم تعميده فى القسطنطينية . (١٤) وبهذا اعتنق البلغار المسيحية بالعذر بيد .

وفى عهد الامبراطور قسطنطز الثانى Constans II (٦٤١ – ٦٦٨م) تحرك الافار بقيادة اسباروخ Asparuch غرباً بسبب ضغط الخزر Khazars ، وبدأت هجرة البلغار هذه كخطر جديد يلوح على حدود الامبراطورية الشمالية .

قاد اسباروخ Asparuch ابن كوفرات Kuvrat جموع البلغار غربا ، ووصل فى سنة ٦٧٠ إلى دلتا نهر الدانوب وهناك بدأ البلغار يتطلعون إلى عبور نهر الدانوب لسببين : الاول ليهربوا من مخاطر ضغط العناصر المتبربرة الاخرى التي تقدمت غربا أيضا بسبب هجرة الخزر ، والثاني ، لانهم كانوا يتطلعون الى الاراضي الزراعية الواقعة جنوب نهر الدانوب رغبة فى الاستقرار فيها . والجدير بالذكر ان البلغار فى هذه المرحلة كانوا في مرحلة الانتقال من الاعتماد على الاقتصاد الرعوى الذي عاشوا عليه فى الماضى ، وللاقتصاد الزراعى الذي تحولوا اليه بعد عبورهم نهر الدانوب وعلى هذا فبعد سنة ٦٧٠م بدأ البلغار يعبرون نهر الدانوب تدريجيا الى الاقليم الشمالي الشرقي من البلقان والذى يعرف الآن باسم دوبروجا Dobrudja (١٣) .

وكانت سياسة بيزنطة التقليدية تجاه البرابرة القاطنين المناطق الواقعة الى الشمال من نهر الدانوب ، هو الترحيب بصداقتهم واتخاذهم حلفاء ، ولكن الادارة الامبراطورية عارضت دائما وتصدت لاية محاولات من جانبهم لعبور نهر الدانوب . ولهذا قام الامبراطور قسطنطين الرابع Constantine IV (٦٦٨ – ٦٨٥م) بحملة عسكرية قادها بنفسه عبر فيها نهر الدانوب وحاول استئصال الخطر من منبعه الا ان الحملة منيت بالفشل وانتصر البلغار الذين اكملوا احتلالهم لمنطقة دوبروجا Dobrudja . ولم تتمكن الامبراطورية فى

موقف يسمح لها بالتخلص من الغزاة البلغار ، فقد جاء البلغار ليستقروا .
واضطر الامبراطور قسطنطين الرابع في سنة ٦٨١ م الى عقد اتفاقية
سلام مع خان البلغار أسباروخ *Asparuch* ، تعهد فيها الادارة
الامبراطورية بدفع جزية سنوية ان البلغار وهكذا اضطرت الامبراطورية
البيزنطية الى الاعتراف بوجود دولة بلغارية مستقلة في البلقان ولم يكن
حجم الكارثة التى وقعت واضحاً لدى البيزنطيين فى ذلك الوقت لأن
المنطقة التى استقر فيها البلغار كانت قد ضاعت من قبل حين استقرت فيها
عناصر سلافية وقت غزوات السلاف . (٤٤)

والجدير بالذكر أن السلاف فى شبه جزيرة البلقان كانوا عبارة عن
عناصر بشرية غير منظمة وتفتقر الى الوحدة ولم يكن لها اى تنظيم سياسى
وكان لا يزال فى المكان الادارة الامبراطورية أن تستوعبهم فى الكيان
الامبراطورى . اما البلغار الذين طوروا نظامهم السياسى والعسكرى منذ فترة
طويلة قبل عبور نهر الدانوب فقد اصبحوا مشكلة دائمة للادارة البيزنطية ،
إذ استطاع أسباروخ *Asparuch* أن يقيم دولة بلغارية قوية فى ممتلكات
بيزنطية فى البلقان ولأول مرة فى تاريخ الامبراطورية تضطر الادارة
البيزنطية الى التنازل رسمياً عن سيادتها على جزء هام بشبه جزيرة البلقان .
لقد كانت الاتفاقية سنة ٦٨١ م بحق « مهينة للبيزنطيين » كما يقول المؤرخ
الرئيسى لهذه الفترة ثيوفانيس *Theophanes* : (٤٥) ومع حلول القرن الثامن
الميلادي اصبحت بلغاريا خطر كبير على الامبراطورية البيزنطية .

كانت هجرة الصرب *Serbs* والكروات *Croats* من بين الهجرات
البشرية التى حدثت فى شبه جزيرة البلقان فى ذلك الوقت ولقد خصص

الامبراطور قسطنطين السابع Constantine-VII-Porfhyrogenitus فضلا من مؤلفه الشهير « الادارة الامبراطورية » De Adminfstranqo Imperio ، تحدث فيه عن الصرب والكروات. (٤٦) على أية حال يبدو ان عناصر الصرب وعناصر الكروات نجحت من التخلص من سيطرة الافار عليها فى نفس الوقت تقريبا (منتصف القرن السابع الميلادى). وتحركت عناصر الكروات من مواطنها الاولى وراء الجبال فى سيليزيا Silcsia وجاليسيا Galicia وبوهيميا الشرقية ، بدعوة من الادارة البيزنطية وعبرت نهر الدانوب لتقوم بطرد الافار من الليريا Illyricum ، وبعد ان ادت هذه المهمة استقرت بأمر من الادارة البيزنطية فى الاقليم الواقع بين درافا Drava والبحر الادرياتى (وهو الجزء الشمالى الغربى من شبه جزيرة البلقان الذى تحرر من سيطرة الافار). وبعد ذلك بقليل قامت عناصر الصرب Serbs وهي عناصر تربطها بعناصر الكروات اواصر القربى تطلب حماية الامبراطورية. وفى ظل ظروف مشابهة هاجرت عناصر الصرب ايضا الى شبه جزيرة البلقان بموافقة الادارة البيزنطية فى عهد هرقل وخلفائه الأوائل واستقرت هذه العناصر الى الشرق من عناصر الكروات ، فى الجزء الشمالى الغربى من شبه جزيرة البلقان. وبوصول عناصر الصرب والكروات الى البلقان اصبحوا خاضعين للسيادة البيزنطية واعتنقوا المسيحية على يد بعثات تبشيرية جاءت اليهم من روما بناء على اوامر الامبراطور البيزنطى. (٤٧)

وهكذا فاذا كانت الادارة البيزنطية قد نجحت فى التخلص من خطر الافار ، فان قيام الدولة البلغارية فى البلقان اصبح هو مصدر الخطر الجديد. واذا كانت الدبلوماسية البيزنطية نجحت فى طرد الافار من غرب البلقان

وحررت سواحل البحر الادرياتى منهم ، فان الصرب والكروات سرعان ما كونوا دويلات شبه مستقلة فى المستقبل البعيد استفادة كثيرا من موقعها بين روما فى الغرب والقسطنطينية فى الشرق

على أية حال انتهت الاسرة الهرقلية بنهاية عهد الامبراطور جستنيان الثانى الذى تميز عهده بسفك الدماء والفوضى . ولقد تلى ذلك تعاقب عدد من الاباطرة الذين حكموا لفترات قصيرة فى تلك الفترة الانتقالية التى اعقبت نهاية أسرة هرقل ، حتى ظهر رجل قدير هو ليو الثالث Leo III الذى ينتمى الى مدينة مرعش Germaniccia وهي مدينة صغيرة في شمال الشام . (٤٨) لقد كان ليو Leo هذا هو الذى هزم العرب المسلمين وكسر حصارهم الثانى للقسطنطينية فى سنة ٧١٨ م ، وبهذا النصر الذى حققه استطاع ليو الثالث أن ينقذ الامبراطورية من أسوأ الاخطار التى احدقت بها ، وان كان الموقف ظل حرجا لبعض الوقت لأن آسيا الصغرى ظلت هدفاً للاغارات العربية . (٤٩)

* لا شك أن الامبراطور ليو الثالث Leo III (٧١٧ - ٧٤١ م) الذى كان متأثرا بجماعة من رجال الدين فى الاقاليم الشرقية مثل : قسطنطين اسقف ناكوليا Constantine of Nacolea (فى فيرجيا Phrygia) ، وتوماس اسقف كلاوديوبولس Thomas of Claudiopolis ، قد فكر طويلا فى الكوارث التى كانت تحل بالامبراطورية بشكل مستمر . (٥٠) ولماذا توقف الله عن تأييد شعبه المسيحى المفضل ؟ ولماذا حقق العرب (وهم كفرة فى نظر البيزنطيين) بمفردهم هذا النجاح ؟ وفى صيف سنة ٧٢٦ م ثار أحد

البراكين في البحر الايجي بين جزيرتي ترا Thera وثراسيا Therasia، وبدت ثورة البركان كما لو كانت قد اقنعت الامبراطور بأن الله كان حقا غاضبا وبشدة، وأن الخطيئة التي ارتكبها المسيحيون وأثارت بالتالي غضب السماء عليهم هي عبادة الاوثان.

وعلى هذا أعلن الامبراطور أن الايقونات (صور السيد المسيح والقديسين) يجب إزالتها والامتناع عن تبجيلها وأرسل ليو Leo في نفس العام كوكبة من الجند لتنزيل صورة السيد المسيح الشهيرة التي كانت معلقة فوق المدخل الرئيسي للقصر الإمبراطوري وهو المدخل المعروف باسم البوابة البرونزية Chalke Gate (١). قرار الامبراطور ليو الثالث بتحريم عبادة الصور والإيقونات في كل أرجاء الامبراطورية، بدأ تلك الحركة المعروفة باللاايقونية Iconoclasm. ولا نعرف على وجه الدقة ما اذا كان الامبراطور قد أصدر مرسوما بتحريم عبادة الصور والايقونات في سنة ٧٢٦م وإذا كان هناك مرسوم قد صدر في سنة ٧٢٦م فلا نعرف نص قرار التحريم الوارد فيه. ولكن من المعروف أن الإمبراطور ليو الثالث دعى كبار رجال الدولة في القسطنطينية إلى اجتماع في يناير سنة ٧٣٠م، وفي هذا الاجتماع أعلن ليو الثالث رسمياً قرار تحريم عبادة الصور والايقونات (٢)، وبهذا المرسوم الرسمي بدأ عصر تحريم عبادة الصور واستمر حتى سنة ٨٤٣م باستثناء فترة قصيرة (امتدت من ٧٨٧م - ٨١٣م) عادت فيها عبادة الصور والايقونات بشكل مؤقت.

ولكن من الصعب على الباحث أن يقرر ما اذا كان ليو الثالث هو المسئول

الرئيسي وراء ظهور سياسة تحريم وتحطيم الصور والايقونات فى الامبراطورية ، أم أنه كان فقط المخرج الذى أخرج ونفذ اصلاحا هاما كان له تأييد شعبى عريض فى اقاليم الامبراطورية ؟ إن كل ما نستطيع أن نؤكده هو أن ليو جاء من مدينة مرعش فى شمال الشام وعلى هـذا ، فانه نشأ فى منطقة تتكلم السريانية وقريبة من دار الاسلام . ومن الممكن أن نتصور بالتالى ، أن مولد ليو Leo ونشأته فى تلك المنطقة كان له بعض التأثير على اعتقاده الدينى ، خاصة وأن ليو لم يكن مثقفا ثقافة عالية ، وكانت معلوماته عن اللاهوت المسيحى سطحية (٣) .فقد كان ليو قائداً عسكريا بارعا، وربما كان يمثل وجهة نظر ومصالح الجيش البيزنطى فى آسيا الصغرى . وكان جنوده وضباط الجيش قد عاشوا فى صراع وقتال مستمر ضد العرب المسلمين ، وربما فكر جنود وضباط الفرق العسكرية البيزنطية فى آسيا الصغرى فى الكوارث التى كانت تحل بالامبراطورية ، ولماذا توقف الله عن تأييدهم ، ونصر عليهم أعدائهم ، تماما كما فكر ليو الثالث .

الفترة التى سادت فيها السياسة اللاأيقونية كعقيدة وسمية والتى تقارب المائة عام ، هو فترة اتفق المؤرخون على اعتبارها من أهم فترات التغير فى بناء وفكر الامبراطورية البيزنطية وإن كانوا يختلفون بخصوص طبيعة هذا التغير ولاشك أن العصر الذى سادت فيه اللاأيقونية كان عصرا مظلما ـ تميز بالصراع المستمر ضد الاعداء فى الخارج (المسلمين فى الشرق ، والبلغار فى الشمال) ، عصرا لم يقدم سوى القليل من الأدب الراقى أو الفن الرفيع(٤) . وهو لا يجتذب خيال المؤرخ ليبقى فى أطار حدوده طويلا . ورغم كل هذا لم

تكن هناك فترة فى التاريخ البيزنطى كانت موضع إهتمام المؤرخين المحدثين مثل الفترة التى سادتها سياسة تحريم الصور والايقونات .

لقد كرس العديد من المؤرخين الكثير من الدراسات التاريخية لموضوع تحريم الصور والأيقونات ولكن السؤال الذى ظل يحير المؤرخين هو : كيف يمكن أن تمزق الخلافات إمبراطورية كبيرة لاكثر من قرن من الزمان بسبب مشكلة هل يصح أم لا يصح أستعمال صور وأيقونات السيد المسيح والقديسين لاغراض العبادة الدينية ؟ الم يكن تحريم الصور والايقونات هو واجهة لشىء آخر ؟ الايصح تفسير الامر على أساس أن الاباطرة اللاأيقونيين الذين بدأوا اصلاحات اجتماعية هامة ، قرروا التصدى بوجه خاص للخرافات والخزعبلات الشعبية التى ازداد انتشارها ؟ أم كان هدفهم تأميم الثروات الضخمه للاديرة والحد من نفوذ الرهبان ، الذين كانوا ينشرون عبادة الصور والايقونات ، وكانوا أشد المدافعين عنها ؟ أم أن تحريم الصور والايقونات هو شكل من أشكال التعبير عن الصراع الطبقى فى الامبراطوريه ؟ (٥٥) .

لاشك أن مثل تلك الاسئلة هامة وتغرى بالمزيد من البحث والدراسة ، وحتى يأتى البحث بجديد من الافضل أن ننظر إلى مشكلة النزاع حول عبادة الصور الايقونات على أنه نزاع دينى بخصوص مدى صحة استخدام التصوير المسيحى من ناحية وخطر اساءة استعماله من ناحية أخرى . ولكن هناك اعتبارات هامه يجب أن نبرز أهميتها فى هذا المجال .

الاعتبار الاول

تجذ الاشارة الى حقيقة هامة وهى أن إستعمال الايقونات اتخذ أهمية متفاوتة فى العالم البيزنطى منذ حوالى النصف الثانى للقرن السادس الميلادى فصاعداً وأن هذا كان ضد تعاليم الكنيسة الأولى . ولم تكن الايقونات ، فى الواقع ، موضع عبادة شعبية فقط ، فالمعروف أن الادارة الامبراطورية كانت تستعمل بل تستغل صور وأيقونات السيد المسيح والقديسين لاغراضها الخاصة(٥٦). فعندما أبحر هرقل من شمال افريقيا الى القسطنطينية ليتولى الحكم سنة ٦١٠م، أمر بتعليق أيقونات السيدة مريم العذراء على صوارى سفنه . وفى سنة ٦٢٦م حين حاصرت القوات المشتركة للفرس والآفار مدينة القسطنطينية علق السكان الايقونات المقدسة على أسوار العاصمة لتساعد فى الدفاع عن المدينة ، ويتضح هذا فى احدى الفقرات التى وردت فى إحدى خطب المواعظ المعاصرة لحادث حصار العاصمة سنة ٦٢٦م والتى تقول .

« أمر البطريرك برسم صور مقدسة للسيدة العذراء وهى تحمل إبنها بين يديها وأن تعلق على كل بوابات المدينة المواجهة للغرب . وكانت هذه الصور مثل شمس الحق وهى تخترق الظلام بأشعتها ، لأن أبناء الظلام (أى الافار) جاءوا من الغرب وحين فعل البطريرك هذا فانه كان يقصد أن يوبخ حشود البرابرة والشياطين التى قادتهم ، بلغة روحية قائلا أيتها الشعوب الاجنبية والقبائل الشريرة إن الحرب التى تشنوها ، إنما تشنوها ضدهما (السيدة العذراء وإبنها السيد المسيح) . إن تكبركم ووقاحتكم سيتم

القضاء عليها وسحقها بقيادة سيدة واحدة ، هى أم الاله » (٢٧) .

ومع كل هذا ، ورغم وجود هؤلاء المدافعين الغير عاديين (فى شكل صور وأيقونات السيد المسيح والقديسين) ، تساقطت المدن البيزنطية الواحدة تلو الأخرى فى يد العدو الكافر فقد خالفت الايقونات الثقة التى وضعها الناس فيهم ألم يكن هذا برهانا على أن مسيحيين كانوا مذنبين لارتكابهم فاحشة عبادة الاوثان ؟ لانهم حين عبدوا الصور والايقونات فانهم كانوا يصلون لقطع من الخشب والمعادن ، وأن الله عاقبهم بكل تلك المصائب لهذا السبب وحده ؟

الاعتبار الثانى

يجب أن نتذكر دائما أن المشكلة التى تواجهنا ، حين نتصدى لموضوع اللاأيقونية ، ليست لماذا ظهرت الحركة اللاأيقونيه (تحريم عبادة الصور والايقونات) ؟ ولكن لماذا ظهرت اللاأيقونيه فى الامبراطورية البيزنطية فى الوقت الذى ظهرت فيه بالذات (القرن الثامن الميلادى) ؟ لان التيار المعادى لعبادة الصور الدينيه كان موجودا منذ عدة قرون واستمرت رغم ذلك عبادة الصور والايقونات ولكن أن يشتد التيار المعادى لعبادة الصور ويتطور حتى يتبناه الامبراطور ويصدر مرسومه الخاص بتحريم الصور والايقونات فى القرن الثامن الميلادى بالذات هو الذى يستحق التوقف أمامه

...كان إتباع التعاليم الصحيحة للعقيدة الدينية – بالنسبة للعقلية البيزنطية –

مرتبطا بالنجاح السياسي للدولة البيزنطية وبانتصاراتها العسكرية . إن نظرية المشيئة الالهية بخاصة بنظام الكون سمحت للكفرة والبرابرة أن يلحقوا بالمسيحيين بعض الهزائم فمثل تلك الهزائم كانت هي عقاب الله لشعبه المسيحي على الخطايا والذنوب التي ارتكبها أو على المذاهب الهرطوقية التي اعتنقها ولما كان دور الكفرة والبرابرة ينحصر في انهم أداة العقاب الالهي من أجل التصحيح، لهذا فان انتصارات الكفرة والبرابرة لا يمكن ان تستمر طويلا(٥٨) . فمثلا كان حصار العرب المسلمين الاول للقسطنطينية والذي دام قرابة الخمس سنوات عقابا من السماء، ولكنه انتهى في ٦٧٨م بفشل العرب وانسحابهم واضطر العرب الى عقد هدنة مع الامبراطور البيزنطي تعهدوا فيها بدفع جزية سنوية للامبراطور .

وهكذا بدا وكأن المسلمين بعد أن أدوا المهمة المكلفين بها من السماء قد بدأوا فترة ضعف واضمحلال وبهذا أنزل الله العقاب على البيزنطيين ليطهرهم ويصححهم، كما انزل بعد ذلك العقاب على الهراطقة المونوفيزيين في الشام ومصر وأرمينيا . وتأكدت العقيدة المسيحية الصحيحة في المجمع المسكوني السادس (٦٨٠-٦٨١م) الذي عقد في القسطنطينية . كذلك اهتم المجمع الديني المعروف باسم *Quinisext* (ملحق المجمع المسكوني السادس) والذي انعقد في القسطنطينية أيضا ٦٩٢م بتصحيح الاخلاق المتدهورة لرعايا الامبراطورية، فاصدر مجموعة من القوانين الكنسية الخاصة بالانضباط في ممارسة شعائر العقيدة المسيحية . ولكن يلاحظ ايضا ان هذا المجمع المسمى *Quinisext* شجع انتاج أيقونات السيد المسيح(٥٩) .

ولكن الهدوء لم يستمر طويلا ، إذ استأنف العرب المسلمون هجومهم الكبير على الامبراطورية البيزنطية . وبدأ الناس يتساءلون : ماهى الذنوب الجديدة التى يرتكبها المسيحيون والتى سببت عقاب السماء هذا ؟ حاصر العرب القسطنطينية لمدة عام كامل (٧١٧-٧١٨م/٩٨-٩٩هـ) حصارا شديدا على أية حال إذا كانت القسطنطينية قد تم انقاذها بفضل الامبراطور ليو الثالث الايسورى ، فان أجزاء كثيرة من آسيا الصغرى كانت لاتزال تحت رحمة إغارات العرب كل عام . ففى سنة ٧٢٣م أستولى العرب على حصن كماخة وعلى بلدة ايكونيون *Ikonion* . وفى ٧٢ م توغل العرب داخل آسيا الصغرى واحرقوا العديدمن الحقول فى القرى التى مروا بها. وفى سنة ٧٢٦م أخذ العرب يهاجمون اقليم قبدوقيا حيث اقتحموا مدينة قيصرية ، فى الوقت الذى استمرت اغاراتهم على الاجزاء الشرقية من اقليم الاناضول . وفى نفس العام هاجم الاسطول العربى جزيرة قبرص ونهبها . وفى سنة ٧٢٧م توغل جيش عربى كبير إلى داخل أسيا الصغرى وظل يتقدم غربا حتى وصل الى اقليم بفلاجونيا *Paphlagonia* ، واقليم بثينيا *Bithynia* والقى الحصار على مدينة نيقية *Nicaea* التى لاتبعد عن القسطنطينية بأكثر من ٦٠ ميلا (٦٠) . والجدير بالذكر أنه أثناء حصار نيقية وقعت حادثة غريبة فى المدينة . إذ يقال أن أحد الضباط المدافعين عن المدينة ويسمى قسطنطين *Constantine* قام بتحطيم أيقونة للسيدة العذراء ، وعلى الفور رفع العرب الحصار عن المدينة وتم انقاذ نيقية . (٦١)

على أية حال يجب ان نتذكر أنه طوال القرن السابع والربع الأول من

القرن الثامن من الميلاد ، كانت الايقونات والصور المقدسة تستعمل كتعاويذ بهدف طرد الأرواح الشريرة والشياطين والحصول على الحماية الالهية وطرد الاعداء . (٦٢) وكانت هذه الايقونات المقدسة تعلق حول أسوار المدن ، وكانت الصور المقدسة ترسم فى القلاع وفوق البوابات . أكثر من هذا كان الجند يحملون الايقونات والصور المقدسة معهم إلى المعارك . (٦٣) ورغم كل هذه الحماية التى وفرتها الايقونات اخذ العرب يستولون على القلاع والحصون الواحد تلو الاخر ، واخذوا يحرقون القرى والحقول ويحاصرون المدن . كان هناك شيئا يثير غضب الله ، ولعل هذا الغضب الالهى قد عبر عن نفسه أصدق تعبير فى ذلك الحادث الذى وقع فى مدينة نيقية *Nicaea* أثناء حصار العرب لها سنة ٧٢٧م .

الاعتبار الثالث :

تجدر الاشارة الى أن اللاأيقونية (اوسياسة تحريم الصور والايقونات) لم تكن ظاهرة خاصة بالعالم البيزنطى ، بل يمكن القول انها كانت بوجه عام ظاهرة عمت الشرق الادنى . فهذه الموجة من التزمت والتشدد فى الدين كانت ظاهرة اجتاحت اليهود والعرب والسوريين والأرمن والبيزنطيين على حد سواء . ويمكن وصف هذه الظاهرة بانها رد فعل متأخر من جانب الشرق الادنى على وثنية العالم اليونانى الرومانى .

على أية حال ، لاشك أن المصدر الاصلى الذى خرجت منه سياسة تحريم الصور والايقونات (الحركة اللاأيقونية) كان يوجد فى منطقة الشرق

الأدنى بصفة عامة وفي الشام وفلسطين بصفة خاصة . ولاشك أن هذا يتضح من تلك الوثيقة الرسمية التي قدمت الى المجمع الديني المسكوني السابع في سنة ٧٨٧م وهي تسرد الرواية التالية :

«حين توفي الخليفة عمر (بن عبد العزيز) سنة ٧٢٠م ، خلفه يزيد (بن عبد الملك) وكان رجلا طائشا غير حكيم وكان هناك في ذلك الوقت أحد زعماء اليهود العصاة يعيش في مدينة طبرية ، وكان هذا الرجل ساحراً وأداة في يد الشياطين التي تجلب الدمار على الناس . كان هذا الساحر يسمى ذو الاربعين ذراعا (طولا) ... وحين علم هذا الرجل بطيش يزيد ذهب اليه ، وحاول أن يقرأ له المستقبل . وبهذه الطريقة كسب ثقة وود الخليفة ، ثم قال له : أيها الخليفة إني أود أن اشير عليك بشيء يكون سببا في إمتداد حياتك فتظل هنا تحكم ثلاثين عاما ، اذا اتبعت نصيحتي وانفرجت أسارير الخليفة الطاغية بوعد طول العمر فأجابه : أي شيء تقترحه سأقوم بعمله في الحال . وعند ذلك قال الساحر اليهودي : أصدر الأوامر في الحال ودون أي تأخير بأن يرسل منشور الى جميع انحاء مملكتك ، ينص على تحريم وتحطيم كل شكل من أشكال التصوير سواء كان على ألواح خشبية أو على جدران مزينة بالفسيفساء ، أو على آنية مقدسة ، أو على النسيج المعلق على الهيكل المقدس (مذبح الكنيسة) ، أو على اى شيء آخر يوجد في الكنائس المسيحية ، وليس هذا فقط ، بل كل الصور الموضوعة لتزين الاماكن العامة . لقد كانت مكيدة خبيثة من جانبه حين اضاف قائلا كل الصور ، لانه حاول بهذا الشكل أن يتجنب أى شك من جانب الخليفة في [illegible]

أنه عدو لنا (المسيحيين) فقط . وبسهولة استجاب الطاغية الشرير (الخليفة يزيد بن عبد الملك) ، وأرسل مبعوثين إلى كل اقاليم خلافته ليحطم ويزيل الايقونات المقدسة والصور ، وبهذه الطريقة جرد كنائس الله التي وجدت في دولته مما فيها ، وحدث كل هذا قبل أن يصل هذا الوباء (تحريم تحطيم الصور والايقونات) إلى بلادنا (الامبراطورية البيزنطية) . ولأن المسيحيين أحباب الله ، كانوا غير راغبين في تحطيم الصور المقدسة بأيديهم ، لهذا لم يكن أمامهم سوى العرب ، وعلى هذا تم تكليف الامراء والولاة بأداء تلك المهمة ، فأذاعوا ونشروا مرسوم الخليفة على اليهود الملاعين والعرب التعساء . وهكذا قاموا باحراق الايقونات المقدسة ، وطلاء حيطان بعض الكنائس بينما كشطوا حيطان البعض الاخر . وحين سمع بذلك اسقف ناكوليا *Nacolea* المارق الذي لا يستحق الاحترام هو واتباعه العصاة بهذا ، قاموا بتقليد اليهود العصاة والعرب الكفرة وبدأوا في إهانة كنائس الله » (٦٤)

تأثر قسطنطين اسقف ناكوليا بفكر العرب واليهود ، ثم نقل هذه الافكار الى الامبراطور . ولكن اذا كانت الرواية السابقة قد أزيد فيها ، الا أنها تحتوى على لب الحقيقة : فيزيد بن عبد الملك أمر بالفعل سنة ٧٢٣م بتحريم التصوير والصور وهذا أمر ثابت . (٦٥) اما بخصوص الدور الهام الذى قام به قسطنطين أسقف ناكوليا *Nacolea* ، الذى ابتدأ الدعوة الى تحريم الصور والايقونات داخل الامبراطورية ، فانه ايضاً ثابت في كتابات لبطريرك جرمانوس بطريرك القسطنطينية في الفترة من ٧١٥ - ٧٣٠م (٦٦) . واذا كان هناك مما يؤخذ على الرواية

سابقة الذكر فهو شيء واحد : لم يحكم يزيد بن الملك الذى اصدر مرسوم تحريم التصوير فى الخلافة الاموية فترة طويلة كما تنبأ له الساحر اليهودى ، اذ حكم فترة قصيرة (١٠١–١٠٥هـ/٧٢٠–٧٢٤م) ولم تكن له اعمال باهرة فى الوقت الذى كان عهد ليو الثالث الطويل (٧١٧–٧٤١م) عهداً مليئاً بالانتصارات ويمكن القول أن السياسة اللاأيقونية (تحريم الصور والايقونات استمرت فترة طويلة نسبياً لأن كل من ليو الثالث وابنه قسطنطين الخامس Constantine (٧٤١–٧٧٥م) كانا أمبراطورين ناجحين فى الداخل والخارج.

على أية حال لقد انتقل النزاع حول عبادة الصور و الايقونات بسرعة الى المستوى اللاهوتى لأنه تضمن مدى حقيقة تجسد السيد المسيح فى هيئة البشر، وانتج هذا النزاع عدداً كبيراً من الكتابات الجدلية . وحتى نوضح بعض جوانب النزاع على المستوى اللاهوتى ، يجدر بنا أن نقرأ بعض ما كتبه القديس تيودور ستوديت St. Theodore the Studite الذى توفى سنة ٨٢٦م ، ويعتبر واحد من اشد المدافعين عن عبادة الصور والأيقونات واكثرهم دهاء :

« إنه كل واحد منا يمكن أن يصور (برسم) ، لأن الشخص الذى لا يصور لا يمكن أن يكون إنساناً ، بل مخلوقاً عقيماً فمن الطبيعى تصوير كل كائن حى رأى ضوء النهار . لذلك يمكن تصوير السيد المسيح ، حتى لو أنكر الكفرة (اللاأيقونيون) ذلك ، لانهم بهذا الانكار ، إنما ينكرون المغزى المفيد لنظرية التجسيد I كيف نعترف بأن الابن (السيد المسيح) كان رجلاً مثلنا — وهو الذى تنازل واعتبر نفسه

أخا لنا ـ ثم لانستطيع تحديد ملامحه بالتصوير كما نفعل مع أنفسنا ؟ (٦٧)
كيف يمكن أن يكون السيد المسيح قد ولد طبقا لقانون الطبيعة اذا لم يكن شبيها بأمه ؟ لانه اذا لم يكن لة شكل قابل للتحديد ، إذن فهو لم يتكون من دمها العذرى بل كان له جسداً خلق فى السماء كما اعتقد مارسلوس *Marcellus* الهرطوقى وغيره من الكفرة . (٦٨) وسيتبع هذا أن أمه لم تكن فى الواقع أمه بل انسانة اخرى إدعت ذلك ، واذا كان هذا كذلك فهذا يعنى أن السيد المسيح لم يكن مثالنا بل من طبيعة مختلفة .... انظروا الى تلك الهاوية التى وقع فيها أنصار السياسة اللاأيقونية كنت تورطوا باعتقادهم أن السيد المسيح يجب ألا يصور أو يرسم على الالواح ؟ لاشك ان عقيدة هؤلاء اللاايقونيين هى العقيدة اليهودية . لذلك فانهم لايعترفون بأم السيد المسيح أو بأى من القديسين ، لانهم حين ينكروا صورهم فانهم ينكروا اشخاص اصحاب تلك الصور . إن تبجيل الأيقونية أو عدم تبجيلها انما ينتقل الى الشخص الذى تمثله هذه الأيقونة كما يقول القديس باسيل .» (٦٩)

على أية حال واجهت اللاأيقونية معارضة من هرم التنظيم الكنسى الرسمى ، ولكن ليس بقدر المقاومة العنيفة من جانب الرهبان . (٧٠) لقد تمسك هؤلاء الرهبان بموقفهم وصمدوا بشجاعة امام الجدل والمناقشة الدينية والاستمالة والترغيب ، ولهذا امتلأ تقويم الكنيسة الارثوذكسية بسلسلة جديدة من الشهداء . فقد واجه بعض الرهبان الموت ، كما تم تشويه اجساد العديد منهم او تم نفيهم ، بينما اضطر بعض الرهبان الى تقديم عروض مضحكة وساخره امام الناس فى الهيبودروم *Hippodrome* .(٧١)

ويمكن القول أن الحركة اللاأيقونية لم تتمكن من إكتساب أى تأييد شعبى واسع فى كل قطاعات الامبراطورية البيزنطية باستثناء الجيش . فقد أثبت الامبراطوران اللاأيقونيان الأولان - ليو الثالث وابنه قسطنطين الخامس - انهما قائدان ناجحان من الطراز الأول ، ونجحوا فى تبرير وأثبات صحة إعتقادهم فى السياسة اللاأيقونية .

من المرجح أن الامبراطور ليو الثالث حين تبنى الحركة اللاأيقونية فانه كان يهدف إلى تطهير المسيحية من شبهة عبادة الاوثان ، ولم ير أية ضرورة لعقد مجمع دينى للكنيسة لمناقشة هذا الموضوع . ويلاحظ أنه باستثناء إزالة صورة السيد المسيح المعلقة فوق المدخل الرئيسى للقصر الامبراطورى ، وهو المدخل المعروف باسم البوابة البرونزية chalke Gate بأمر من الامبراطور ليو الثالث ، لاتوجد أدلة واضحة تثبت أن الامبراطور حطم بالفعل الصور والايقونات خلال عهده . كذلك ليس هناك دليل على بدء أى شكل من أشكال الاضطهاد ضد أنصار عبادة الايقونات . وإن الرواية القائلة ان ليو الثالث أمر باحراق عدد من أساتذة جامعة القسطنطينية (بلغ عددهم ستة عشر أستاذا) بسبب معارضتهم لسياسته هى رواية خاطئة لا أساس لها من الصحة (٧٢) وجدير بالذكر أن البطريرك الجرمانوس Germanus (وهو من معارضى سياسة الامبراطور الخاصة بتحريم الصور والايقونات) يتحدث فى كتابة (الذى كتبه بعد سنة ٧٣٠م) عن وقوع اضطهاد دينى نتج عنه مثلا نفى عدد كبير من رجال الدين والعلمانيين وأعداد كبيرة من الرهبان . كذلك

يقول البطريرك جرمانوس Germanus في نفس الكتاب أن اللاأيقونيين لم يكتفوا بازالة الايقونات المعلقة في الكنائس ، ولكنهم أزالوا ايضا رسوم الحائط التي كانت تزين الكنائس فضلا عن تلك الرسوم المطرزة على النسيج الذي يغطي الهياكل المقدسة في الكنائس ، كما احرقو اثار القديسين. (٧٣) ورغم روايه البطريرك جرمانوس ، من المعتقد ان نطبيق السياسة اللاايقونية في عهد ليو الثالث تم تدريجيا وبحذر شديد .

على أية حال وصلت الحركة اللاأيقونية (تحريم عبادة الصور والايقونات) الى قمتها في عهد ابن ليو وخليفه الإمبراطور قسطنطين الخامس (٧٤١-٧٧٥م). والمعروف انه واجه بعد عام من إعتلائه العرش ، ثورة قام بها زوج اخته القائد ارتفازدوس Artavasdus ، الذي نجح في تنصيب نفسه امبراطورا في القسطنطينية . وخلال عهده القصير (٧٤١-٧٤٢م) ، اعاد ارتفازدوس Artavasdus عبادة الصور والأيقونات ، ربما في محاولة من جانبه لكسب التأييد الشعبي . اما قسطنطين فقد انسحب بقواته الى مركز قوته الرئيسي في آسيا الصغرى (ثيم الاناضول) ثم تحرك من هناك واستطاع استرداد القسطنطينية وجلس من جديد على العرش . (٧٤) وهكذا بدا وكأن الله يقف الى جانب اللاايقونيين .

وجدير بالذكر أن قسطنطين الخامس كان متفقها في علم اللاهوت بعكس والده (٧٥) ، ولهذا حرص قسطنطين على ابراز الأسس القوية التي تستند إلى العقيدة المسيحية الصحيحة ، والتي تؤيد وجهة نظرة والتي

تثبت صحة سياسة تحريم عبادة الصور والايقونات (٧٦) لذلك كلف الامبراطور من قام بالبحث فى كتابات وأقوال آباء الكنيسة الاوائل ، واقتباس مختارات منها كما أمر بالقاء عددا من الخطب الدالة على صحة تحريم الايقونات . وفى النهاية دعي الامبراطور الى عقد مجمع دينى فى سنة ٧٥٤م إنعقد فى قصر هيريا *Hier ia* فى ضواحى القسطنطينية ولقد حضر هذا المجمع الدينى كل اساقفة الامبراطورية تقريبا ، اذ بلغ عدد الحاضرين ٣٣٨ أسقفا ، وتولى ثيودوسيوس الافسوسى *Theodosius of Ephesus* رئاسة جلسات المجمع الدينى لان كرسى البطريركية فى القسطنطينية كان لايزال شاغراً ورغم أن سجل المناقشات التى دارت فى هذا المجمع قد ضاعت ، الا أن لدينا مايعرف « بالتعريف العقيدى » *doctrinal Definition* وفيه لخص الحاضرون أدلتهم وحججهم ضد عبادة الصور ، كما أعلنوا فيه اللعنة ضد معارضيهم الرئيسيين من انصار عبادة الايقونات ، وبالذات البطريرك جرمانوس *Germanus* ، والقديس يوحنا الدمشقى *John of Damascus* (وكان كلاهما قد مات بالفعل) .(٧٧)

يمكن القول انه بعد مجمع هيريا *Hiereia* الدينى ، بدأ نواب الأمبراطور قسطنطين الخامس وولاته فى تطبيق سياسة تحطيم الايقونات واضطهاد مؤيديها ، ولكن يجب الا ننزلق ونصدق تلك الجمل البليغة التى تحفل

بها المصادر البيزنطية والتى تشير إلى أنه تمت إزالة الصور المقدسة المرسومة على حوائط كل الكنائس ، او تم طلاء حوائط كل الكنائس وطمس كل ما عليها فى كل مكان من أقاليم الامبراطورية . فهذا يعنى ببساطة الاختفاء الكامل للفن المسيحى المبكر فى الاقاليم الشرقية .

كذلك فأن تحقيق هذا فى ذلك العدد الذى لاحصر له من الكنائس المنتشرة فى كل أنحاء الامبراطورية لم يكن بالأمر السهل . وأن الادلة المتاحة تبين أن تحطيم الصور حدث ولكن بشكل غير منظم . كذلك فان الحالات المعروفة عن الأضطهاد الدينى وقعت كلها تقريبا بعد سنة ٧٦٠م . فالراهب الزاهد الشهير القديس ستيفن *St. Stephen the Younger* قتل فى سنه ٧٦٥ م (٧٨) . وفى سنة ٧٦٦ م صدر الأمر للرهبان بتقديم عروض ساخرة فى الهيبودروم وفى سنة ٧٦٨ م تحول عدد من الأديرة الهامة فى العاصمة إلى مؤسسات مدينة ، وتم تدمير بعضها . ويلاحظ أن رجال الدين فى هرم التنظيم الكنسى لم يقاوموا اللاأيقونية وإن عارضوها أحيانا ، لهذا فقد وقع عبء الدفاع عن الصور والايقونات المقدسة على عاتق الرهبان . فقد قاوم الرهبان سياسة تحريم الصور والايقونات بكل عنف ، ولم يكن ذلك لان لهم مصلحة مادية فى ذلك ، بل لأن الرهبان إتخذوا لانفسهم منذ عدة قرون دوراً غير رسمي كحماة للعقيدة ، ولانهم تمتعوا بتأييد شعبى عريض .

كذلك يجب أن نضع فى الاعتبار أن الرهبان لم يكونوا عرضة لاى ضغط مباشر من جانب الادارة الامبراطورية كما كان الحال مثلا بالنسبة لرجال الدين فى هرم التنظيم الكنسى الرسمى

حاول الامبراطور قسطنطين بكل طريقة أن يقنعهم ويستميلهم ، فلما رفضوا وأصروا على المقاومة كان السجن والتعذيب من نصيبهم . بل أن البعض قتل . ومع كل هذا يصعب على الباحث ان يحدد مدى جدية الاضطهاد الذى مارسته الادارة الامبراطورية ضد انصار عبادة الصور والأيقونات . فكاتب سيرة القديس ستيفن St. Stephen the Younger يتحدث عن ٣٤٢ راهب وقد اصابهم الوهن بعد أن القى بهم فى أحد السجون . كما يذكرون أن الملجأ الوحيد لانصار عبادة الأيقونات كان فى المناطق التى لا يكون نفوذ الامبراطور فيها فعال مثل الشاطىء الشمالى للبحر الاسود ، والساحل الجنوبى لاسيا الصغرى ، وفى قبرص ، وايطاليا (٧٩) . كذلك يجب الا ننسى أن تطبيق المرسوم الامبراطورى فى اقاليم الامبراطورية كان يعتمد على مدى حماس الحكام المحليين فيها فالمعروف مثلا ان ميخائيل لاخانودراكون Michael Lachanodrakon استراتيجيوس الثيم التراقى (فى غرب آسيا الصغرى) كان كله حماس فى تطبيق مرسوم الامبراطور الخاص بتحريم عبادة الصور والايقونات اذ دمر تقريبا كل الاديرة الواقعة فى إقليمه ، ثم أمر بجمع كل الرهبان فى افسوس Ephesus وخيرهم بين الزواج فى الحال وبين سمل أعينهم ونفيهم إلى قبرص . بالطبع فضل الكثير من الرهبان الخيار الثانى (٨٠) .

وتجدر الاشارة الى أن معلوماتنا عن الامبراطور قسطنطين الخامس محدودة ، رغم كل ما ذكرنا ، وكم كان الباحث يود أن يعرف اكثر عن هذا الامبراطور الذي أثبت أنه قائد عسكري بارع وعالم متفقه فى علم اللاهوت لايغلب . فهو الذي طرد العرب بعيداً عن آسيا الصغرى ، وكان ينجح فى تحطيم قوة البلغاريا الناهضة . ولكن للأسف قام أعداؤه فى النزاع الديني حول عبادة الصور والإيقونات بالقضاء على كل المادة التاريخية التى كانت لصالحه او حتى تلك التى عرضت لعهده بأمانة وصدق . ولم يبق لنا الاما كتبه اعدائه عنه ، وإن ما كتبوه يعطى صورة قاتمة وفيما يلي صورة مشوهة لهذا الامبراطور سجلها لنا المؤرخ ثيوفانيس *Theophanes*

« من الافضل أن أصف الأعمال الجائرة لابن ليو الثالث ، الكافر التعس المدعو قسطنطين ، وهي أعمال اكثر شر وأشد سوءاً من أعمال ابيه . وإنه من الافضل أن أصف هذه الاعمال بصدق لانني افعل ذلك على مرأى من الله الذي يرى كل شيء إن هذا الانسان المفسد المؤذى كان أحمقا متعطشا للدماء ، واستطاع أن يصل إلى السلطة باغتصابها وليس عن طريق القانون ، ومن البداية ترك صحبة الأله المقدس السيد المسيح وأمه الطاهرة وكل القديسين ، وضلله السحر والتهور ودعوات الشياطين . ولقد نشأ هذا الرجل منذ شبابه الاول وسط جو من الانحلال الروحى ، وعندما ورث امبراطورية أبيه ورث أيضا صفاته الشريرة ، وانني فى غنى عن ذكر كم من الشرور جلبها هذا الاحمق وكيف أشعل النار وأثار اللهب حتى انتشر حريقا . أما

المسيحيون الذين عاشوا أيامه فقد غلبهم يأس عظيم » (٨١).

لقد كان هذا الشيطان المتقمص ثوب إنسان ، هذا الظالم الذى اضطهد الرهبان ، هو الذى عمل جاهداً وبلا توقف لمدة أربعة وثلاثين عاماً من أجل تأمين وحماية الامبراطورية البيزنطية . ولكن يلاحظ أنه ما أن عاد الأمن والأمان الى حدود الامبراطورية حتى بدأت الحركة اللاأيقونية تفقد ما كان لديها من تأييد .

ففى عهد الامبراطور ليو الرابع *Leo IV* (٧٧٥ – ٧٨٠ م) – خليفة قسطنطين الخامس – يلاحظ أن الامبراطور اطلق سراح المسجونين وسمح بعودة المنفيين . (٨٢) ويمكن تفسير هذا القرار من جانب ليو الرابع على أساس أن الاضطهاد قد استنفد أغراضه وان المعارضة لم تعد خطيرة ، ولكن يمكن تفسيره ايضا على أساس أن الحركة اللاأيقونية فقدت مؤيدها . كيفما كان الأمر ، كان عهد ليو الرابع قصيرا ولم يترك اى أثر هام بهذا الخصوص . اما أرملته الاثينية ايرين *Irene* فقد كانت مصممة على إعادة عبادة الصور والايقونات .

لم تكن مهمة ايرين *Irene* (التى وصلت الى السلطة كوصية على ابنها قسطنطين السادس) سهلة . فبعد عهد قسطنطين الخامس كان كل هرم التنظيم الكنسى الرسمى وعدد من رهبان الأديرة قد أيدوا الحركة اللاايقونية (ولو فى الظاهر فقط) كذلك كان الجيش البيزنطى ملتزم بقسم مقدس بالمحافظة على قرارات مجمع هيريا *Hieria* الدينى الذى انعقد سنة ٧٥٤ م وكان

على أيرين أن تعمل على إلغاء قرارات مجمع هيريا ، ولم يكن هذا بممكن الا اذا دعت الى عقد مجمع دينى مسكونى جديد . ويلاحظ أن الشيء الوحيد الذى كان فى صالح ايرين هو تأييد بابا روما وبطاركة الكنائس الشرقية لسياستها . على أية حال انعقد المجمع المسكونى السابع فى القسطنطينية فى اغسطس سنة ٧٨٦ م ، وحين ناقش المجتمعون العودة الى عبادة الايقونات اعترض عدد من الاساقفة اللاأيقونيين ، واضطر المؤتمر الى رفع جلسته أيضا بسبب مظاهرة معادية قام بها جنود الحامية العسكرية فى العاصمة . واضطر المجمع إلى التوقف مؤقتا ولم يعد الاجتماع الا بعد أن تم ترحيل الجند الثائرين خارج العاصمة (٨٣) . على أية حال حين عاد المجمع الى الانعقاد ، قرر المجتمعون الانتقال الى مدينة نيقية ، ربما لاتباط هذه المدينة بالمجمع الدينى المسكونى الأول ، وربما لأن نيقية مدينة صغيرة من السهل السيطرة على النظام فيها . وفى سبتمبر ـ اكتوبر سنة ٧٨٧ م إنتهت جلسات المجمع المسكونى السابع ، وفى ظل ادارة الجلسات الناجحة للبطريرك تاراسيوس *Tarasius* (وهو موظف سابق فى الادارة الامبراطورية) ، قرر المجمع المسكونى عودة عبادة الصور والايقونات المقدسة رسميا الى الكنيسة (٨٤) .

كان المتوقع أن تكون هذه هى نهاية ذلك النزاع المرير حول عبادة الصور والأيقونات الا أن الكوارث التى المت بالامبراطورية فى عهد أيرين وخليفتيها (نقفور الأول ، وميخائيل الأول) عجلت بتطور الاحداث فى اتجاه جديد فرغم المديح الزائد الذى أسبغه الرهبان على أيرين (بسبب عودة عبادة الصور والايقونات) ، الا أن فشل ايرين *Irena* فى المجالين العسكرى والاقتصادى واضح تماماً . كذلك أدت جريمتها البشعة ، التى

عملت فيها عيني ولدها قسطنطين السادس لتجعله عاجزا وتتولى هى حكم الامبراطورية بمفردها ، ال استنكار شديد فى كل العالم المسيحى (٨٥) .
أما خليفتها الاول نقفور الاول Nicephorus (٨٠٢ - ٨١٠ م) ، مسئول الخزانة الامبراطوريه والذي قام بعزلها واعتلى العرش من بعدها ، فقد اكتسب كراهية قطاعات عديدة من المجتمع بسبب اصلاحاته المالية والادارية الصارمة رغم أنها استهدفت صلاح الامبراطورية . على أية حال نال نقفور العقاب الالهى (على تأييده لعبادة الصور والايقونات) حين هلك جيشه بالكامل فى ٢٦ من يوليو سنة ٨١١ م على يد خان البلغار كروم Krum ، وسقط الامبراطور نقفور نفسه قتيلا فى المعركة (٨٦) . وحين خلفه على عرش الامبراطورية ميخائيل الاول رانجاب Michael I Rangabe (٨١١ - ٨١٣) الوديع الضعيف ، فان حكمه لم يدم سوى اقل من عامين ولقى الجيش البيزنطى هزيمة اخرى على يد خان البلغار كروم Krum فى ٢٢ من يونيو سنة ٨١٣ م ولقد فر من المعركة القائد ليو الارمينى على رأس الفرق العسكرية الاسيوية (آسيا الصغرى) وأدت الهزيمة القاسية للامبراطور ميخائيل الاول الى اضطراب إدارته ، وشعر الجميع بان الموقف يحتاج الى رجل قوى ليتولى قيادة الامبراطورية . وفى ١١ من يوليو سنة ٨١٣ م تم عزل ميخائيل الاول واعتلى ليو الارمينى العرش باسم الامبراطور ليو الخامس Leo V (٨١٣ - ٨٢٠ م) . (٨٧)

لاشك أن ليو الارمينى كان يذكر ويقارن (مثل الكثيرين من معاصريه) بين الماضي القريب السعيد والحاضر المضطرب الذى تهدده الاخطار .

فانتصارات الاباطرة اللاأيقونيين (الذين حرموا عبادة الصور والايقونات) وعهودهم الطويلة وتواليهم السلمى على العرش الامبراطورى ، يقابله هزائم الاباطرة الايقونيين (انصار عبادة الايقونات) وعهدهم المضطربة القصيرة والكوارث التى حلت بالامبراطورية بصفة عامة بعد سنة ٧٨٠ م . وكان الامبراطور ليو الخامس يريد لنفسه عهداً طويلا ناجحا ، وأن يموت فى فراشه ، وأن يخلفه ابنه من بعده وعلى هذا قرر ليو الخامس العودة الى تحريم عبادة الصور والايقونات من جديد . ان قرار الامبراطور بالعودة الى السياسة اللاأيقونية والاعتبارات التى بنى عليها قراره تتضح من ذلك النص المعاصر والهام الذي وصل الينا ، والذى يصور لنا ليو الخامس (الذى اعتلى العرش فى ١١ من يوليو سنة ٨١٣ حين وقف البلغار بقيادة الخان كروم *Krum* امام أسوار القسطنطينية) وهو يجرى الحديث التالى مع بعض اصدقائه

« لماذا قاسى المسيحيون مرارة الهزيمة على يد الكفرة ؟ اننى أرى أن السبب فى ذلك هو عودة عبادة الصور والايقونات من جديد ودون اى سبب . لهذا فاننى أعتزم تحطيم هذه الصور والايقونات . وتذكروا أن كل الأباطرة الذين اعترفوا بالصور وعبدوها لقوا حتفهم إما فى المنفى أو فى المعارك الحربية ، بينما نلاحظ أن أولئك الاباطرة الذين لم يعبدوا الصور والايقونات وحرموها ماتوا موتا طبيعيا فى القصور الامبراطورى ، وتم دفن كل واحد منهم بكل البهاء والعظمة فى المقبرة الامبراطورية فى كنيسة الرسل المقدسين لذلك فاننى أرغب فى أن افعل مثل هؤلاء الاباطرة ، لهذا فسوف أحطم الصور والايقونات حتى أعيش أنا وابنى حياة طويلة ، وحتى يظل

نسلي يجلس على العرش لأربعة أو خمسة أجيال تالية . » (٨٨)

وسرعان ما أرسلت السماء الدليل الذى أكد صحة قرار الامبراطور ليو الخامس ، ففى ١٤ من ابريل سنة ٨١٤ م ، توفى خان البلغار « كروم » فجأة امام اسوار القسطنطينية ، ونتج عن هذا انسحاب البلغار . (٨٩)

على أية حال ، سعى الامبراطور ليو الخامس الى اضفاء الشرعية على قراره بتحريم عبادة الصور والايقونات ، لهذا فقد أمر بتشكيل لجنة لاعادة النظر فى موضوع اللاأيقونية (تحريم عبادة الصور والايقونات) ، ولما قدمت اللجنة توصيتها بصحة وأهمية تحريم الصور ، استدعى الامبراطور ليو البطريرك نقفور *Nicephorus* وطلب منه أن يستجيب لمطلب الناس وان يقوم بازالة الصور والايقونات التى تجتذب بعض الناس لعبادتها ، الا أن البطريرك رفض وبعد بضعة ايام وفى ديسمبر سنة ٨١٤ م ، تم ازالة صورة السيد المسيح من فوق البوابة البرونزية (وكانت هذه الصورة قد علقت من جديد فى هذا المكان فى عهد ايرين) . وفى مطلع سنة ٨١٥ م تنحى البطريرك نقفور عن منصبه ، وعين الامبراطور بطريركا لا أيقونى فى منصبه وبعد عيد الفصح من نفس العام دعى الامبراطور الى عقد مجمع دينى فى كنيسة الحكمة المقدسة *Hagia Sophia* للتصديق على إعادة تحريم الصور والايقونات . واذا كنا لا نعلم عدد الاساقفة الذين حضروا هذا المجمع الدينى . الا ان حقيقة ان المجمع بدأ جلساته بعد فترة قصيرة من الدعوة لانعقاده يبين ان عدداً كبيراً من الاساقفة لم يحتاج الى مجهود كبير لترغيبهم فى سياسة الامبراطور . (٩٠)

ولقد اتخذ ليو الخامس اجراءات حازمة ضد المعارضين دون ان يلجأ الى أية عقوبات فظيعة . ويمكن التعرف على تفاصيل الاضطهاد فى ذلك الوقت بدراسة المراسلات المسجلة الخاصة بالقديس ثيودور ستوديت *Thodore the Studite* ـ الذى اخذ على عاتقه تنظيم حركة عبادة الصور والايقونات فى الخفاء . فعن طريق اتصالاته على أعلى المستويات ، وبواسطة شبكة من العملاء التى امتدت الى روما والشرق الادنى الاسلامى ، عمل ثيودور بلا توقف على تأييد وتشجيع انصار عبادة الصور ، واحتفظ بنفوذ له مع عدد من المتعاطفين مع سياسته فى الحكومة البيزنطية . ورغم كل جهود ثيودور هذه فانه يعترف بأن هناك عدداً من مقدمى الاديرة والرهبان قد انضموا الى صفوف اعدائه . (٩١)

كيفما كان الامر ، بدأ التوفيق الذى حالف السياسة اللا أيقونية (تحريم الصور والايقونات) ينحسر ، فآمال الامبراطور ليو الخامس (الارمينى) لم تتحقق فى النهاية فبدلاً من أن يموت الامبراطور فى سريره ويؤسس أسرة جديدة نجد أنه يموت قتيلا ولم يمكث على العرش سوى فترة غير طويلة (٩٢) . وقام قاتله ـ الذى خلفه على العرش ـ ميخائيل الثانى *Michael II* (٨٢٠ ـ ٨٢٩ م) بوقف الاضطهاد الدينى وأمر بعودة المنفيين الا انه لم يحاول ارضاء انصار عبادة الصور بأكثر من ذلك . وتجمد الموقف لان ميخائيل الثانى لم يبد أى اهتمام بأسس ذلك النزاع الدينى ، كما أن الادارة الامبراطورية فى عهده اتخذت موقفاً متعدلا . وهكذا بدا الأمر وكأنه مجرد تصحيح لاسلوب عبادة خاطىء . وبما أن هذا التصحيح قد تم فى مجمع

« الحكمة المقدسة » سنة ٨١٥ م ، فالأمر ليس فى حاجة إلى مناقشات أخرى .

اما تيوفيل Theophilus (٨٢٩ – ٨٤٢ م) – وهو آخر امبراطور لا أيقونى – فقد تبنى مواقفا اكثر تشدداً من أبيه . وفى عهده عاد اضطهاد انصار عبادة الصور والايقونات ولكن على نطاق ضيق ، ويبدو انه كان موجها ضد العناصر التى اخذت تتسرب من الخارج . واذا كان تطبيق سياسة تحريم عبادة الصور والايقونات صارما فى العاصمة ، فان تطبيق تلك السياسة فى الاقاليم اتسم بالاهمال . والدليل على ذلك أن البطريق الايقونى (الذى ناصر عبادة الايقونات) نيكتاس Niketas اضطر إلى مغادرة العاصمة ، وسرعان ماوجد ملجئا آمنا فى مكان لايبعد بأكثر من عشرين ميلا عن القسطنطينية (٩٣) .

وجدير بالذكر أن ثيودورا Theodora زوجة الامبراطور ثيوفيل Theophilus كانت تناصر عبادة الصور والايقونات . على أية حال رغم الشعور القوى المعادي لعبادة الصور ، فضلا عن مهارة ومنطق البطريرك اللا أيقونى يوحنا النحوى John the Granmarian (٨٣٧ – ٨١٣ م) ، بدأت الحركة اللاايقونية تفقد حماسها بالتدريج . ويمكن القول ان نفس الشيء حدث للمعارضة أيضا (أنصار عبادة الصور) إذ أخذت الحركة التى تدعو الي عبادة الصور والايقونات تهدأ بعد وفاة ثيودور ستوديت Theodore the Studite (توفى سنة ٨٢٦ م) .

ورغم محبة الناس للامبراطور ثيوفيل *Theophilus* بسبب عدالته المعروفة، الا أن عهده لم يكن كله إنتصارات فسقوط عمورية سنة ٨٣٨ م في يد الخليفة العباسي المعتصم كان هزيمة كبيرة لشخص الامبراطور ثيوفيل (٩٤) ، فهل كان يمكن النظر الى هذا الحدث كدليل على صحة سياسة الامبراطور الدينية ؟

على أية توفى الامبراطور ثيوفيل *Theophilus* في ٢٠ من يناير سنة ٨٤٢م وبعد وفاته قامت زوجته ثيودورا بالوصاية على ابنها الصغير ميخائيل الثالث *Michael III* (٨٤٢ - ٨٦٧ م) الذى كان عمره لا يتجاوز عامين . وكان يعاون ثيودورا في مجلس الوصاية عدد من الموظفين على رأسهم ثيوكتيستوس *Theoctistus* الذى كان يشغل وظيفة السكرتير الامبراطورى وحامل محبرة الامبراطور (ثيوفيل) ثم اصبح يشغل وظيفة الوزير الاول في عهد وصاية ثيودورا *Theodora* (٩٥) والجدير بالذكر أن ثيودورا حرصت منذ البداية على العمل باخلاص على عودة عبادة الصور والأيقونات . واذا كانت العودة المؤقتة لعبادة الصور والايقونات سنة ٧٨٧م قد تمت بفضل جهود إمرأة هى ايرين فان العودة النهائية لعبادة الصور والايقونات وانتصار الارثوذكسية في النهاية تم على يد امرأة ايضا هى ثيودورا زوجة ثيوفيل سنة ٨٤٣ م وكان مجلس الوصاية يضم ايضاً برداس *Bardas* وبتروناس *Petronas* (أخوا ثيودورا) وسرجيوس نيكتياتس *Sergius Nicetiates* (عم ثيودورا) . وحين تهيأ الامر لثيودورا *Theodora* ، دعى مجلس الوصاية الى عقد مجمع دينى محدود *Synod* انعقد في منزل ثيوكتيستوس بدون أية ضجة وقرر المجتمعون عزل البطريرك يوحنا

النحوى John the Grammarian وتعين مثوديوس Methodius فى منصبة وفى النهاية صدق المجمع الدينى على قرارات المجمع المسكونى السابع واعلن العودة النهائية إلى عبادة الصور والايقونات المقدسة فى مارس سنة ٨٤٣م. وهكذا انتصرت الأيقونية فى النهاية ، ودون أية مقاومة جادة من جانب اعدائها (٩٦)

تأثرت كل أوجه الحياة بالأخطار والكوارث التى ألمت بالامبراطورية البيزنطية فى تلك الفترة المظلمة من تاريخها (فترة القرنين السابع والثامن) . فالسنوات المريرة التى شهدت توغل السلاف والافار الى شبه جزيرة البلقان ، والفرس ومن بعدهم العرب المسلمين الى اقاليم الامبراطورية الشرقية ، شهدت ايضا البداية العملية من أجل اعادة تنظيم وتقوية دفاعات ماتبقى للامبراطورية من أقاليم وجدير بالذكر أن المصادر المتاحة قليلة ولا تقدم لنا اكثر من معالم عامة للتغير الكبير الذي طرأ على النظام الإدارى فى الامبراطورية . والمرجح أن التغير بدأ فى تلك السنوات الحرجة بالنسبة لتنظيم الجيش والادارة العسكرية ، ونتج عن هذا تنظيم الامبراطورية على أساس ثيمات (جمع ثيم) Themes . فقد تم تقسيم آسيا الصغرى الى مناطق عسكرية تسمى ثيمات وأصبحت هذه الثيمات هى اساس نظام ادارة الاقاليم فى الدولة البيزنطية لقرون طويلة (٩٧) وكان تنظيم الامبراطورية على أساس ثيمات يعنى الغاء النظام الذى وضعه دقلديانوس وقسطنطين والذى كان ينادى بالفصل بين السلطتين الادارية والعسكرية (٩٨) . وكان هذا النظام الجديد الخاص بالجمع بين السلطتين (الادارية والعسكرية) قد ظهر وتم تطبيقه لأول مرة فى عهد الامبراطور موريس Maurice (٥٨٢—٦٠٢م) حين نظم

الامبراطور الادارة فى كل من رافنا Ravenna وقرطاجة Carthage ووضع كلتا السلطتين المدنية والعسكرية فى يد قائد عسكرى حمل لقب أرخون Exarch . وادت هذه الخطوة الى تحويل الممتلكات البيزنطية فى الغرب الى امارات شبه مستقلة شجعت على نمو الولاء فى داخلها لحكومة القسطنطينية . (٩٩)

وهكذا وكما حدث فى تجربة رافنا وقرطاجة اصبحت ثيمات آسيا الصغرى وحدات أو مناطق للادارة العسكرية ، وكان كل ثيم يحكمه ويتولى قيادته قائد عسكرى يسمى ستراتيجوس Strategos وكان يجمع بين القيادة العسكرية والادارة المدنية فى منطقته. ويلاحظ أن هذا التنظيم الجديد لم يؤد الى الغاء التقسيم الاقليمى القديم مرة واحدة بل بالتدريج، اذ استمر التقسيم الاقليمى القديم فى اطار نظام الثيمات لبعض الوقت. وأصبح البروقنصل وهو الحاكم الادارى السابق للاقليم يلى فى المرتبة الاستراتيجوس Strategos . وكان الإستراتيجوس يجمع بين القيادة العسكرية العليا والادارية ايضا ، خاصة اذا أخذنا فى الاعتبار أن الثيم الواحد كان يضم اكثر من اقليم ادارى قديم .

وكلمة ثيم Θεμα Theme تعنى فى الأصل قسم من الجند أو فرقة من الجيش (وهى تقابل فى المصادر العربية تعبير جند/بند) ثم اطلقت على المنطقة العسكرية فى التنظيم الادارى العسكرى الجديد(١٠٠). ولقد ظهرت هذة الثيمات نتيجة لاعادة توزيع فرق الجند (الثيمات) على مناطق آسيا الصغرى عقب انسحاب الفرق العسكرية البيزنطية المتمركزة فى الشام وارمينيا عقب فتوح العرب المسلمين الكبرى . وكان انسحاب الفرق العسكرية البيزنطية الى داخل آسيا الصغرى واعادة توزيعها ، يهدف الى اقامة خط دفاع جديد فى آسيا الصغرى .ومن هنا عرفت هذه المناطق التى استقر فيها الجند باسم الثيمات .

والجدير بالذكر أن هذه الثيمات لم تكن مناطق إدارية فقط ولكنها كانت تمثل المنطقة التي استقر فيها الجند المكلفون بحمايتها . ثم بدأت الادارة الامبراطورية تقدم قطعا من الارض الزراعية في تلك المناطق الجديدة للجنود في شكل منح ممنوع التصرف فيها تعرف باسم *Stratiotika Ktemata* بشرط أن يقدم الجندى الخدمة العسكرية في جند هذه المنطقة (الثيم) ويتم توارث هذه الخدمة العسكرية ، كما يتم توارث الارض (١٠١) وكان هذا النظام الجديد تطورا للنظام القديم المعروف باسم *Limitanei* والذى كان فيه الجند يستقرون في أراض تقع في خط الحدود الامامى ، وحين انهار خط الدفاع الامامي تحت ضغط الغزو الخارجى انسحب الجند من خط الحدود *Limes* الى قلب آسيا الصغرى واستقروا في الاقاليم التى ظلت تحت الحكم البيزنطى (١٠٢) . وبالاضافة الى جند الحدود *Limes* استقرت فرق نظامية في الجيش البيزنطى ايضا في آسيا الصغرى .

وهكذا فمنذ أواخر عهد الامبراطور هرقل *Heraclius* ظهرت المعالم الاولى لاربع ثيمات :(١٠٣)

أولا : ثيم الاناضول *Anatolikon* ، وكان يتكون من الفرق العسكرية التى كانت متمركزة في الشام وانسحبت (بعد فتح العرب لهذا الاقليم). وكانت هذه الفرق تعرف قبل انسحابها الى آسيا الصغرى بالفرق العسكرية للشرق *Magistri militum per Orientem*

ثانيا : الثيم الارمينى *Armeniakon* ، وكان يتكون من الفرق العسكرية

التى كانت متمركزة فى ارمينيا البيزنطية ، ثم انسحبت بعد فتح العرب للشام ثم غزوهم لارمينيا وكانت هذه الفرق قبل انسحابها الى الداخل تعرف بالفرق العسكرية *magistri militum Per Armeniam*

ثالثا الثيم التراقى *Thracesion* (فى غرب آسيا الصغرى) وكان يتكون من الفرق العسكرية التى كانت متمركزة فى ولاية ترقيا *Thrace*

رابعا ثيم الاوبسيق *Opsikion* ، وكان يتكون من الفرق العسكرية المرتبطة بالامبراطورية (وكانت فى الماضى تشكل القوة الضاربة للجيش البيزنطى) وكان المكان الذى استقرت فيه هذه الفرق هو اقليم بثينيا القريب من العاصمة ، لان مهمتها كانت الدفاع عن مداخل العاصمة من ناحية الشرق.

ومن المحتمل أن يكون الثيم البحرى المعروف باسم كارابيزيانى *Carabisiani* على الساحل الجنوبى لاسيا الصغرى قد تكون في نفس الوقت ، أو بعد ذلك بوقت قصير . (١٠٤) ويلاحظ أن هذا التطور الذى يعرف بنظام الثيمات كان قاصرا فى هذه المرحلة الاولى (النصف الثانى للقرن السابع الميلادى) على آسيا الصغرى . فتطبيق هذا النظام فى شبه جزيرة البلقان كان غير ممكن فى ذلك الوقت ، مما يوضح حجم الكارثة التى أصابت هذا الجزء من الامبراطورية الذى استقرت فية اعداد ضخمة من السلاف . ولم يتم تنظيم البلقان على أساس ثيمات الا تدريجيا وبعد وقت طويل نسبيا (فى النصف الثانى من القرن التاسع الميلادى) .

ويلاحظ ان نظام الثيمات هذا كان فى الحقيقة يعنى وضع اقاليم الامبراطورية

فى حالة استعداد عسكرى دائم . ولقد أمكن تطبيق هذا الاصلاح الادارى بعد أن قامت الحكومة الامبراطورية بتهجير اعداد كبيرة من السكان الاجانب إلى داخل الامبراطورية . وكانت اهم هذه العناصر السكانية الجديدة ، التى تم تهجيرها الي اقاليم متعددة فى داخل الامبراطورية من الارمن والسلاف . ومنذ ذلك الوقت كون الأرمن والسلاف نواة الجيش البيزنطى (١٠٥)

ويلاحظ الباحث أنه بينما كان موضوع نظام الثيمات موضع اهتمام عدد كبير من المؤرخين المحدثين ، الا أن هناك مشكلة متعلقة به لما اهميتها لم تحظ بجانب كبير من الدراسة والبحث : وهى مصير الطبقة الارستقراطية التى كانت توجد من قبل تطبيق هذا التنظيم الادارى الجديد . والمعروف أنه فى الفترة المبكرة من التاريخ البيزنطى لم تكن هناك طبقة نبلاء وراثية ، لأن القاب النبلاء كانت قاصرة على وظائف معينة ومقيدة بها ولم تكن هذه الالقاب تنتقل بالوراثة . وكان اللقب يعطى صاحبه قليل من الامتيازات ولا يعطيه مكانة طبقية متميزة (١٠٦)

على أية حال ، ورغم كل هذا تكونت طبقة ارستقراطية فى الامبراطورية استطاعت أن تجمع بين الثروة والثقافة والمناصب العليا فى الادارة ، وكان طبيعيا أن تتطور هذه الطبقة . والسؤال هنا ماذا حدث لهذه الطبقة الارستقراطية خلال القرنين السابع والثامن من الميلاد ؟ لقد اضمحلت هذه الطبقة الارستقراطية القديمة حتى كادت تختفى تماما ، والسبب فى ذلك الظروف التى احاطت بالامبراطورية البيزنطية فى تلك الفترة المظلمة فمن ناحية ،

أدى الاضطراب الذى استشرى فى انحاء الامبراطورية عقب وفاة الامبراطور جستنيان العظيم (ت ٥٦٥م) الى زيادة نفوذ القادة العسكريين الذين لجـأوا الى القوة من اجل الوصول الى السلطة مثل فوقاس الذى تميز عهده بسفك الدماء كذلك كان عهد آخر اباطرة الاسرة الهرقلية وهو الامبراطـور جستنيان الثانى ، يتميز بسفك الدماء بسبب تهور الامبراطور واندفاعه (١٠٧) . هذه الاضطرابات التى سادت الامبراطورية فى الداخل ، أضرت بالبطقة الارستقراطية خاصة اذا علما أن أباطرة مثل فوقـاس (٦٠٢-٦١٠م) ، وجستنيان الثـانى (٦٨٥ - ٦٩٥م / ٧٠٥ - ٧١١م) ، وليو الثالث (٧١٧-٧٤١م) قتلوا اعدادا من هذه الطبقة وأمموا ممتلكاتهم هذا من ناحية .

ومن ناحية أخرى يجب الا ننسى أن ثراء هذه الطبقة كان يقوم على الملكيات الزراعية ولذلك كان لابد وأن تتعرض هذه الملكيات الزراعية الضخمة فى الريف للتخريب والسلب والنهب من قبل اعداء الامبراطورية (الفرس والعرب بالنسبة لآسيا الصغرى ، والسلاف والآفار والبلغار بالنسبة لشبه جزيرة البلقان) .

ويمكن القول أنه بينما اختفى تدريجيا الجزء الاكبر من الطبقة الارستقراطية القديمة بسبب الخراب الذى اصاب ممتلكاتهم المادية ، ظلت هناك نواة صغيرة من نفس هذه الطبقة . فمثلا البطريرك جرمانوس *Germanus* (٧١٥-٧٣٠م) - الذى عارض دون جدوى السياسة اللاأيقونية للامبراطور ليو الثالث - كان ينتمي لاسرة جستنيان العظيم كذلك تشير المصادر البيزنطية الى أن الامبراطور

فيليبيكوس Philippicus (٧١١ - ٧١٣م) كان يتناول غذاءه مع مواطنين من ذوى النسب الرفيع القديم . (١٠٨) هذا الجزء الصغير الذى تبقى من طبقة الاستقراطية القديمة عاش فى العاصمة وكان يتولى المناصب المدنية فى الحكومة والمناصب الدينية فى الكنيسة ، ومن المرجح أنه هو الذى ضمن نوعاً من الاستمرار فى نقل ونشر العلوم والاداب .

والجدير بالذكر أن معظم الشخصيات المثقفة فى القرن الثامن وأوائل القرن التاسع من الميلاد تدرجت فى نفس الوظائف وارتبطوا برابطة الزواج . فمثلا البطريرك تاراسيوس Tarasius (٧٨٤ - ٨٠٦م) ، ابن محافظ القسطنطينية كان يشغل منصب السكرتير الامبراطورى الأول Protoasecretis قبل أن يدخل السلك الكنسي ويصبح بطريرك كنيسة القسطنطينية (١٠٩) اكثر من هذا كان تاراسيوس هذا هو العم الاكبر للبطريرك فوتيوس Photius الذى شغل أيضا وظيفة السكرتير الامبراطورى الاول (١١٠). مثل آخر ، البطريرك نقفور (٨٠٦ - ٨١٥م) ، وكان ابنا لاحد موظفى الحكومة البيزنطية شغل هو نفسه وظيفة فى السكرتارية الامبراطورية تحت إمرة السكرتير الامبراطورى الاول فى ذلك الوقت تاراسيوس Tarasius . (١١١) مثال ثالث ، القديس تيودور ستوديت St. Theodore the Studite كان ابنا لأحد موظفى الخزانة الامبراطورية وكانت اسرته تتوقع له منصبا فى الحكومة البيزنطية، فعمه القديس افلاطون St Plato كان يعمل فى الخزانة الامبراطورية (١١٢) .
لقد كان هؤلاء رجال ذو ثراء أمتلكوا مساحات كبيرة من الاراضى الزراعية

في إقليم بثينيا *Bithynia* القريب من العاصمة (وهذا يفسر لماذا لم تقض الغزوات العربية على ثرواتهم). وكانت تربطهم صلات القربى بالاسرة الامبراطورية الحاكمة، فالقديس ثيودور ستوديت *St Theodore the Studite* مثلا، كان ابن عم الامبراطورة ثيودوت *Theodote* زوجة الامبراطور قسطنطين السادس، كذلك كان فوتيوس *Photius* أحد اقرباء الامبراطورة ثيودورا زوجة الامبراطور ثيوفيل *Theophilus* (١١٣).

واذا كانت الطبقة الاستقراطية القديمة قد أخذت في الاضمحلال خلال الفترة المظلمة (خلال القرنين السابع والثامن من الميلاد)، فان انشاء نظام الثيمات وتوزيع قطعاً من الارض الزراعية على الجنود المستقرين فيها في شكل منح ممنوع التصرف فيها (*Stratiotika Ktemata*) ادى الى ظهور طبقة جديدة (١١٤) كان على أسرة الجندي أن تقدم فردا للخدمة العسكرية بشكل مستمر مقابل توارث هذه الارض ولكن من الناحية العملية يجب أن نلاحظ أنه حين انسحبت الفرق العسكرية البيزنطية (التي كانت متمركزة في الشام وأرمينيا والبلقان) الى داخل آسيا الصغرى، واستقرت في الثيمات الاربعة كما سبق أن أوضحنا، كانت الادارة الامبراطورية شبه عاجزة في نهاية عهد هرقل وطوال القرن السابع الميلادي. ولم تكن هناك مرتبات ثابتة تدفع للجند. وكان على الجندي إذا اراد الحياة أن يضع يده على اكبر مساحة من الارض الزراعية التي هجرها أصحابها طالما أنه يستطيع زراعتها والدفاع عنها. وكانت مساحة الاراضي التي هجرها

اصحابها فى آسيا الصغرى ، والتى قام الجند بوضع ايديهم عليها ، ضخمة بسبب هلاك وهروب أعداد كبيرة من ملاك الارض الزراعية نتيجة للحرب الفارسية (٦٠٤ - ٦٢٨ م) ومن بعدها إغارات العرب المسلمين على آسيا الصغرى (١١٥) .

وكان موقف الحكومة البيزنطية من قيام الجند بوضع أيديهم على تلك الاراضى هو الاعتراف بالامر الواقع . فمن وجهة نظر الإدارة الامبراطورية فى العاصمة كان استيلاء الجند على الاراضى الزراعية بوضع اليد كان شرا أقل من رؤية الجند تموت من الفاقة بينما تبقى الأرض الزراعية مهجورة دون زراعة وعلى هذا فقد تغاضت الحكومة عن استيلاء الجند على الملكيات الزراعية بل وصدقت عليه بأثر رجعى بعد ذلك حين فتحت الادارة الامبراطورية سجلاتها لتسجيل أسماء الاسر التى تسلمت قطعا من الارض مقابل قيام كل أسرة بتقديم جندى محارب ، اذا اضطرت إلى تسجيل الملكيات الزراعية الاخرى التى استولت عليها هذه الاسر والتي كانت تعيش عليها . (١١٦) وجدير بالذكر أن الادارة البيزنطية لجأت إلى سياسة تهجير اعداد من السكان الى المناطق التى هلك سكانها أو هجروها فى آسيا الصغرى ، وكان غرض للادارة البيزنطية هو توفير الايدى العاملة التى تزرع هذه الاراضى وبالتالى تدفع عنها الضرائب ، هذا من ناحية ، ومن ناحيه أخرى توفير الرجال الذين يمنحون قطعا من الأرض مقابل الخدمة العسكرية .

وكانت اهم العناصر التي قامت الادارة بتهجيرها هي عناصر الارمن فضلا

هن أعداد من أسرى الحرب من السلاف الفرس وأستطاعت هذه العناصر المهجرة أن تضع يدها على مساحات من الارض الزراعية التى تركها أصحابها .

وهكذا أخذت معالم طبقة أرستقراطية جديدة تبرز الى الوجود مع إنشاء وتطور نظام الثيمات ، ولكنها كانت طبقة أرستقراطية من نوع آخر . فاذا كان أفرادها قد وضعوا أيديهم على مساحات كبيرة من الارض الزراعية فان أهم ماكان يميزهم هو طابعهم العسكرى ، إذ إحتكر أفراد هذه الطبقة الجديدة التى أرتفعت الى القمة فى ثيمات آسيا الصغرى ، مناصب القيادة العسكرية منذ أواخر القرن الثامن الميلادى . كذلك كان يميز هذه الطبقة أن جزءاً كبيراً منها كان من أصل أرمينى أو سلافى (بنسبه أقل)، كما أن بعض عائلات هذه الطبقة الجديده كانت أصوله سريانية(من شمال الشام) أو فارسية . ولعل هذا هو السر وراء تلك الاسماء الغريبة التى نقابلها فى المصادر والتى تتناول هذة الفترة المظلمة . ومن أمثلة تلك الاسماء الغريبة التى نقابلها ميزيزيوس *Mizizios* ، وباردانس توركوس *Bardanes Tourkos* وغيرها (١١٧) . ويمكن القول أن من بين هؤلاء المهاجرين الجدد إلى ثيمات آسيا الصغرى يمكن وصف السلاف كبرابرة ، أما العناصر الاخرى من أرمن *Armenians* ، وسريان ، وفرس فقد كانوا ينتمون الى حضارات معروفة وان كانت غير يونانية . ولكن هذا لايعنى أن المستوى الثقافى لهذه الصفوه العسكرية الجديدة كان مرتفعا (مثل المستوى الثقافى لبقايا الطبقة الارستقراطية القديمة التى استقرت فى العاصمة) والدليل على ذلك أن أحد أبناء هذه

الطبقة العسكرية الجديدة وهو ميخائيل الثانى الذى جاء من مدينة عمورية *Amorium* فى ثيم الاناضول *Anatolikon* ، والذى أصبح أمبراطورا سنة ٨٢٠م كانت ثقافته محدودة للغاية كما يتضح من النص التالى :

«لقد كان يمقت التعليم اليونانى القديم،أما بالنسبةلتعليمنا الدينىفقد ازدراه لدرجة أنه لم يكن يسمح للشباب أن يلتحقوا بدور العلم خشية أن يؤدى إكتسابهم لمهارة القرأة السريعة والخطابة البليغة الى فضح جهله الشخصى مما قد يؤدى الى الاضرار بمكانته فى أعين الناس : فقد كان هو بطيئا فى كتابة حروف أى كلمة ، كما كان بطيئا فى نطق مقاطع أى كلمة لدرجة أن عقله البليد كان يحتاج الى وقت أطول ليقرأ اسمه الشخصى أكثر من الوقت الذى قد يحتاجه رجل آخر ليقرأ كتابا بأكمله ومن ناحيه أخرى كان (ميخائيل الثانى) يهتم بالامور التى كانت مألوفة لديه فقد كان يستطيع أن يتنبأ بما اذا كان الخنزير حديث الولادة سينمو ويصبح حيوانا سمينا أم لا كذلك كان يستطيع أن يقف آمنا بجوار الخيل غير المروضة ، كما كان يعرف كيف يبتعد عن الحمير الثائرة ، وفوق هذا وذاك فقد كان خبيرا فى الحكم على البغال ، وفى تحديد خصوبة الاناث من الاغنام والابقار لقد كانت مثل تلك الامور هى مجال دراسته واهتمامه ، وناتج تحصيل صباه وشبابه»(١١٨)

على أية حال اذا أردنا ان نقيم الحياة الثقافية فى الفترة الممتدة من ٦١٠-٨٤٣م ، سنلاحظ أن الظروف التى احاطت بالامبراطورية خلال الفترة المظلمة (القرنين السابع والثامن من الميلاد) أثرت بالتأكيد على الحياة الادبية

والفنية فى بيزنطة . وكانت النتيجة أنه لم يصل الينا سوى أقل القليل من الأدب والفن من تلك الفترة المظلمة (١١٩) . وكان هذا شيئا متوقعا فالحياة الاقتصادية كانت مضطربة ، وفى اسيا الصغرى اجتاح العرب كل شىء لدرجه أنه قل أن نجد بناء قد افلت من اثار الدمار . ولكن هذا لا يعنى القول بأن التعليم قد توقف تماما خلال الفترة المظلمة ، وإن الراوية التى تقول أن الامبراطور ليو الثالث أحرق جامعة القسطنطينية ليس لها أى أساس من الصحة فالمعروف أن عدداً من الرجال المثقفين تلقو تعليما عاليا فى القرن الثامن الميلادى ، مثل البطريرك تاراسيوس *Tarasius* (الذى ولد حوالى سنة ٧٣٠م) ، والبطريرك نقفور *Niceph rus* (ولد حوالى سنة ٧٥٨ م) والقديس ثيودور ستوديت St *Theodore the* **Studite** (ولد فى سنة ٧٥٩م) ؛ والمؤرخ ثيوفانيس *Theophanes* (ولد فى سنة ٧٦٠م) فكل هؤلاء الرجال كانوا ينتمون هم ومجموعة صغيرة من الموظفين الى طبقة اجتماعية متميزة .

واذا كانت الصورة العامة للحياة الثقافية قاتمة بعض الشىء بسبب الظروف التى احاطت بالامبراطورية فى القرنين السابع والثامن فى الداخل والخارج ، فالثابت أنه ما أن أطل القرن التاسع حتى أخذت أحوال الامبراطورية تتغير والى الافضل . وأن ما حدث لهو شىء يثير الحيرة ، ولن نحاول أن نجد له تفسيرا الآن ، ولكن يكفى القول بأن فترة حكم آخر امبراطور لا أيقونى ـ وهو الامبراطور ثيوفيل *Theophilus* (٨٢٩-٨٤٢م) هى بالتأكيد بمدخل هام يمكن أن يفسر الكثير من الغموض . ولقد عبر احد المؤرخين

المحدثين عن مظاهر هذا التغير الذى طرأ على الامبراطورية فى الربع الثانى من القرن التاسع الميلادى فكتب يقول :

« لقد ازداد حجم الذهب المستعمل فى التداول النقدى فجأة ، وقامت علاقات مستقرة جديدة مع الخلافة الاسلامية ، وبدأ تنفيذ برنامج ضخم لانشاء المبانى العامة . وأخذت دراسة ونسخ المخطوطات اليونانية ـ العلمى منها أو الادبى ـ تسير بخطى سريعة وأخذنا نسمع عن كتب نادرة يبحث عنها (العلماء) فى الاقاليم ثم يقومون بنقلها إلى القسطنطينية . »(١٢٠)

لقد كانت هذه معالم النهضة الثقافية التى ميزت عهد الامبراطور ثيوفيل *Theophilus* . وجدير بالذكر أن هذه النهضة كانت معاصرة تقريبا لكل من النهضة الكارولنجية فى الغرب ، ولازدهار الآداب فى عهد هارون الرشيد والمأمون فى الشرق الإسلامى كذلك يلاحظ أنه فى عهد الامبراطور ثيوفيل ظهـــر وتطور نوع من التنافس الثقافى الغريب بين بلاط القسطنطينية وبلاط بغداد ، لدرجة أن الخليفة العباسى المأمون حاول استدعاء العالم البيزنطى الأول فى ذلك العصر ـ وهو ليو الذى نبـــغ فى الرياضيات والفلسفة وكان يعرف بـ *Leo the Mathematician* ـ الى بغداد دون جدوى (١٢١) .

ومن مظاهر إزدهار الحياة الثقافية فى القرن التاسع الميلادى فى بيزنطة ، تضاعف أعداد الكتب المتاحة للقراءة والدراسة . ومن بين الكتب الهامة التى ظهرت في ذلك الوقت كتاب فوتيوس *Photius* المعروف باسم بيايوتيكا

Bibliothecа ، والذى ألفه تقريبا فى سنة ٨٣٨م وهو يتضمن ملخصا عدا ومقتطفات لحوالى ٢٧٩ كتابا كتبها كتاب مسيحيين ويونانيين قدماء . (١٢٢) ولاشك أن ظاهرة تضاعف أعداد الكتب فى ذلك الوقت ارتبطت باستعمال نوع جديد من الخط الكتابى حروفه صغيرة ويعرف بـ minuscule script وهى حروف صغيرة أكثر تلاصقا وتحتاج إلى وقت أقل فى الكتابة من الحروف الكبيرة . (Uncial) (١٢٣) والمرجح أن هذا الخط الجديد ظهر أول الامر فى أديرة العاصمة فى بداية القرن التاسع الميلادى . وفى البداية كان الخط الجديد يستعمل فى نسخ المخطوطات الدينية ثم انتشر بعد ذلك . (١٢٤) وبعد أن انتشر هذا النوع الجديد من الخط بدأت حركة نشاط كبيرة لاعادة نسخ بقايا الكتابات الكلاسيكية ، وإننا ندين بهذا النشاط الكبير الذى أستمر طوال القرنين التاسع والعاشر ، بشكل أساسى ، لانه حفظ لنا التراث اليونانى القديم من الضياع .

على أية حال بزوال الفترة المظلمة من تاريخ الامبراطورية البيزنطية ، فان الباحث يستطيع أن يتأمل أحوال الامبراطورية فى القرن التاسع الميلادى ويقارنها بأحوال الامبراطورية قبيل الغزو العربى . كان العالم البيزنطى فى سنة ٨٤٣م أصغر كثيرا من العالم البيزنطى الذى وجد فى سنة ٦١٠م حين إعتلى الامبراطور هرقل العرش ، فقد كان أصغر فى امتداده الجغرافى . حقيقة كانت الامبراطورية لاتزال تحتفظ ببعض الممتلكات فى الغرب وبالتحديد فى جنوب ايطاليا وصقلية وعلى طول ساحل دالماشيا . وكان بعض الناس يتنقلون بين اقاليم الامبراطورية المختلفة جيئة وذهابا ، وكان هؤلاء الناس فى

أغلب الاحوال رجال دين ورهبان وجنود وموظفين ولكن تجدر الاشارة إلى أن السفر والارتحال بين أقاليم الامبراطورية لم يكن سهلا في ذلك الوقت. فمثلا، الرحلة من القسطنطينية إلى أيطاليا كانت شاقة، اذ كانت تكتنفها المخاطر من ناحية، وتستغرق وقتا طويلا من ناحية أخرى. كذلك يجب أن نلاحظ أن بلاد اليونان – الى بدأت الامبراطورية في سنة ٠٠ بهم الحرب لاستردادها — كانت فى معظمها لاتزال في يد القبائل السلافية المتحققة، كما أن دولة بلغاريا القوية كانت تقع الى الشمال من بلاد اليونان. لذلك كانت الطرق البرية عبر شبه جزيرة البلقان مقطوعة، لدرجة أن الاتصال بإيطاليا كان يتم عن طريق البحر فقط، وكان البحر أيضا عرضة لاغارات العرب المسلمين.

ان مصادرنا بخصوص صعوبة السفر والانتقال بين اقاليم الامبراطورية عبارة عن عدد محدود من تواريخ القديسين الذين عاشوا فى القرن التاسع الميلادي. وهي تلقى ضوءا هاما على مصاعب ومشاق السفر بين الشرق والغرب بصفة عامة.

فمثلا فى حوالى سنه ٨٢٠م حاول القديس جريجورى ديكابوليت St. Gregory the Decapolite السفر من افسوس Ephesus الى القسطنطينية ومنها الى ايطاليا، ورغم ان افسوس (الواقعة على الساحل الغربى لآسيا الصغرى) كانت ميناءا هاما فى ذلك الوقت، الا ان القديس جريجورى وجد صعوبة كبيرة فى العثور على سفينة لأن قباطنة السفن كانوا خائفين

من التعرض لهجوم من قبل قراصنة شمال أفريقية المسلمين . على أية حال تمكن جريجورى من الوصول إلى بروكنسوس *Proconnesus* (وهى جزيرة صغيرة فى بحر مرمرة) ، عندئذ الغى نية السفر الى القسطنطينية ، وأبحر مباشرة غربا الى كريستوبوليس *Christopolis* (وهى ميناء صغير الى الشمال الشرقى من سالونيكا ، وتعرف اليوم باسم كافالا *Kavala*) . وما أن نزل من السفينة الى الشاطىء فى كريستوبوليس *Christopolis* ، حتى وقع فى أيدى قاطعى الطرق السلاف ، ولما تمكن من الهرب منهم شق طريقه جنوبا الى مدينة سالونيكا *Thessalonica* ، ومنها جنوبا الى كورنثا *Corinth* . وهناك وجد مرة أخرى صعوبة فى العثور على سفينة كما وجد صعوبة اكبر فى اقناع قبطان أى سفينة أن يبحر به الى صقلية ، بسبب خوف الجميع من قراصنة البحر المسلمين . على أية حال نجح القديس جريجورى فى النهاية فى الوصول الى ايطاليا وبالتحديد الى مدينة رجيو *Reggio* فى الشمال التى كانت هدفه من البداية . (١٢٥)

وظل السفر عبر شبه جزيرة البلقان مليئا بالاخطار حتى بعد تحول البلغار الى أعتناق المسيحية فى سنة ٨٦٤م . فمثلا ، القديس بلاسيوس *St. Blasius of Amorium* حاول السفر الى روما ، فوقع فى خطأ كبير حين سافر بالطريق البرى عبر بلغاريا ، فهناك وقع فى يد البلغار وتم بيعه كرقيق . ولكن سيده منحه حريته ، وبعد ذلك شق القديس طريقة فى اتجاه نهر الدانوب ، الا أنه وقع فى أيدى قطاع الطرق من جديد وبعد

أن سلبوا ماممه تركوه فى مكان شبه صحراوى . ولهذا أضطر القديس أن يعود الى بلغاريا وهناك عمل فى خدمة أحد الاساقفة وعن طريق هذا الاسقف تمكن أخيرا من الوصول الى روما .(١٢٦)

وجدير بالذكر أنه بينما كانت الامبراطورية البيزنطية مشغولة تماما عن الغرب الاوربى بسبب الاخطار الخارجية والمشاكل الداخلية التى تعرضت لها ، لم يكن أمام البابوية وهي تواجه ضغط اللومبارديين المتزايد سوى أن تميل الى جانب دولة الفرنجة الناهضة من أجل الحماية . ولقد ترتب على مساعدة شارلمان للبابوية وقضاءه على اطماع اللومبارديين فى حكم اقاليم وسط ايطاليا (والتي كانت تابعة للبابا) أن أصبح شارلمان هو حامى الكنيسة الغربية بل والعالم اللاتينى المسيحى . ونتج عن ذلك قيام البابوية بتتويج شارلمان أمبراطورا فى يوم عيد الميلاد سنة ٨٠٠م ، وهكذا تم احياء الامبراطورية فى الغرب الاوربى .(١٢٧)

وكان تتويج شارلمان أمبراطورا فى سنة ٨٠٠م يمثل ضربة شديدة للفكرة الأساسية التى قامت عليها فلسفة السياسة فى العصور الوسطى وهى وحدة وعالمية الامبراطورية الرومانية ولا يعرف الباحث ما اذا كانت أخبار تتويج شارلمان قد سببت وأثارت الكثيرمن الاضطراب لحكومة القسطنطينية فمصدرنا البيزنطى الرئيسى ثيوفانيس Theophanes لا يقدم سوى سطور قليلة للتطليق علي تتويج ملك الفرنجة امبراطورا . وان مايبدو انه قد أثار

أهتمام مؤرخنـــا ثيوفانيس اكثر من غيره هو أن شارلمان كان ـ فى اثناء اداء الطقس الدينى فى الكنيسة ـ يمسح نفسه بالزيت من رأسه الى أصبع قدمه وهو ما كان مخالفا تماما لما جرى عليه العرف فى الطقس الدينى فى بيزنطة (١٢٨) كذلك يروى ثيوفانيس اقتـراح شارلمان الخاص بعرضه الزواج على الامبراطورة ايرين بهدف توحيد الشرق والغرب (١٢٩) ويبدو أن ايرين قد اعجبت بالفكرة ، الا أن المشروع تم إحباطه على يد أحد مستشارى أيرين *Irene* وبعد ذلك بقليل تم عزل أيرين عن العرش ، واعتلاء نقفور الاول فى سنة ٨٠٢م . وفى الواقع لم تكن الادارة الامبراطورية فى القسطنطينية مهتمه بشارلمان والبابوية، بقدر اهتمامها بشئون جيرانها المباشرين وبالذات العرب المسلمين والبلغار .

إن اضمحلال حياة المدينة هو أحد الخصائص الاخرى لهذه الفترة الممتدة من سنة ٦١٠–٨٤٣م . واذا القينا نظرة سريعة على خريطة الامبراطورية فاننا سنلاحظ أن معظم المدن المزدهرة ذات النشاط التجارى والثقافى فى القسم الشرقى مثل الاسكندرية ، وانطاكية ، وبيروت ، ودمشق وغزة كانت تقع فى اقاليم سقطت فى يد العرب . سالونيكا *Thessalonica* كانت مركزا أماميا ويحيط بها اقليم يسوده السلاف من كل جانب . آسيا الصغرى واجهت لاكثر من قرنين من الزمان اغارات العرب المسلمين وأصابها الخراب لدرجة أن معظم مدنها المسورة تحولت الى أماكن لايواء اللاجئين . نيقوميديا *Nicomedia* اصابها التخريب . افسوس *Ephesus* اضمحلت بشكل كبير بعد أن كانت مدينة مزدهرة فى العصر الرومانى عمورية *Amorium* وأنقره *Ancyra* ـ

وكانت اهميتها عسكرية وادارية اكثر منها اقتصادية - قام العرب بتدمير اجزاء كبيرة منهما فى سنه ٨٣٨م (١٣٠)

ولكن كانت هناك مدينة واحدة تستحق أن تسمى مدينة، عاشت واستمرت وكانت قلب الامبراطورية النابض، الا وهي القسطنطينية. لان ما تبقى للامبراطورية البيزنطية من نظام الحكومة المركزية أو من الصناعة، أو من نظام التعليم والمؤسسات العلمية قد تركز داخل اسوار القسطنطينية كانت هذه هي المدينة، التي استقر فيها كلا من الامبراطور والبطريرك، والتي يوجد فيها اقدس آثار العالم المسيحي لقد كانت القسطنطينية هي محط انظار أوربا فى العصور الوسطى، تماما كما كانت روما فى العصر القديم. لذلك فمن السهل أن نفهم ليس فقط مدى الاعتزاز والتباهي الذى شعر به البيزنطيون تجاه مدينتهم العظيمة، بل أيضا مدي القلق الذى كان يساورهم بخصوص أمنها وسلامتها، لانهم كانوا يعرفون حق المعرفة أنه على القسطنطينية يتعلق مصير العالم المسيحي.

ولقد عبر البطريرك جرمانوس *Germanus* عن هذه الفكرة حين تحدث عن حصار العرب الثاني القسطنطينية فى سنه ٧١٧م/٧١٨م، اذ كتب يقول:

« مثل هذه الاخطار لم تمر بها مدينتنا من قبل، وليس فقط مدينتنا بل كل العالم الذى يقطنه مسيحيون ويمكن القول ان كل رعايا السيد المسيح كانوا سيواجهون نفس الخطر بالتأكيد، لو ان المسلمين حققوا هدف حملتهم ضدنا (الا وهو الاستيلاء على القسطنطينية) ». (١٣١)

وهكذا تظهر أهمية القسطنطينية، ففيها توجد كل امكانيات ومقومات النهضة السياسية والحضارية. والسؤال الذى يفرض نفسه هنا هو: هل كان التجديد

الذى اصاب قوة وكيان الامبراطورية فى القرن العاشر الميلادى،راجعا الى دقة النظام العسكرى الجديد.؟ام الى دخول دماء جديدة داخل الكيان الامبراطورى ؟ ام كان راجعا ببساطة الى الاضمحلال الذى أصاب الخلافة الاسلامية بعد ان انتقل مركزها من دمشق القريبة الى بغداد البعيدة ؟ ان مثل هذا السؤال هو الذى يطرحه المؤرخون باستمرار وهم عاجزين عن الاجابة عليه بالتحديد ، وهو ايضا السؤال الذى سنحاول الاجابه عليه فى الفصل التالى

ولكن الحقيقة تظل باقية وهى ان بيزنطة كانت فى سنه ٨٤٠م تقف على مدخل عصر توسع وعظمه . لقد فسر البيزنطيون اندحار "اللايقونيه" على أنه قضاء على آخر الهرطقات المسيحيه الكبيرة ، واصبح فى الامكان تصوير السيد المسيح مرة اخرى بعد تحريم، وهكذا انتصرت الارثوذكسيه (المسيحيه على المذهب الصحيح) ولم تعد هناك عقبات امام النجاح السياسى

هوامش

الفصل الثالث

١ - Chrysos , *Legal Relations* , 1 .

٢ - Ostrogorsky , *State* , 92 .

٣ - *Nicephorus* , 2 .

٤ - Stratos , *Byzantium* , I 66 /

٥ - *Miracula S Demetrii* , Col. 1337 ; Lemerle , *Invasions*, 296 Lemerle , *Chronique dite de Monemvasie* , 9 Charanis , *Chronicle of Monemvasia* , 141 .

٦ - Ostrogorsky , *State* , 95

٧ - Conybeare *Antiochus Strategos* , 506 . 17.

٨ - *Theophanes* , 301 .

٩ - Brown , *Late Antiquity* . 169 .

١٠ - Ostrogorsky *State*, 1 0

١٦ - بالنسبة لحملات هرقل ضد الفرس فان أهم المصادر التي تناولتها هي :

Georg of Pisidia , *Poemi* , 104, 19, 114, 129, 188 - 89 .

ويلاحظ أن جورج البسيدى كان شاهد عيان لحملة سنة ٦٢٢م فقط وليس لدينا مصادر كان اصحابها شهود عيان لبقية حملات هرقل ضد الفرس ، على أية حال يمكن الرجوع الى مصادر أخرى هامة مثل :

Chronicon Paschale, I, 714 - 26 Sebeos, *Héraclius*, 62, 80 - 84 ; *Theophanes*, 302 — 37 ; *Nicephorus*, 13 — 16 .

١٢ — *George of Pisidia*, *Poemi* 114

١٣ — Sebeos, *Héraclius*, 79

١٤ — Ostrogorsky *State*, 102, n. 2.

١٥ — *Pernice*, *Imperatore Eraclio*, 141 48 ; *Barisic*, *Siége de Constantinople*, 371

١٦ — *Movsés Dasxuranci*, *Caucasian Albanians*, 78 — 87.

١٧ — أرسل كافاد شيرويه ملك فارس الجديد سفيرا من قبله للتفاوض مع الامبراطور فى شروط الصلح . وصل هذا السفير الى معسكر هرقل في الثالث من ابريل سنة ٦٢٨ م . وفي الثامن من إبريل عاد

السفير الفارسى ومعه سفير هرقل حاملا معه شروط الامبراطور من أجل عقد السلام ، انظر نص هذه المراسلات فى المصدر الهام المعاصر لعهد هرقل :

Chronicon Paschale , 730 — 34

وانظر ايضاً

Oikonomidès , Heraclius and Kavadh Siroe , 299 - 281 .

١٨ - وتروى الحولية المعروفة بـ Paschal أن اعلان النصر الذى ارسله هرقل الى العاصمة قرأه البطريرك سرجيوس على الناس فى كنيسة الحكمة المقدسة فى ١٤ من مايو سنة ٦٢٨ م وكان الامبراطور قد أمر بكتابة إعلان النصر هذا فى الثامن من ابريل من معسكره فى جانزاك Ganzak بينما كان عائداً فى طريقه الى ارمينيا . انظر :

Chronicon Paschale . 727 Dolger Regesten 192.

وكان هرقل قد اعتاد أن يرسل رسائل من ميدان القتال الى العاصمة لنقل أخبار قتاله ضد الفرس الى سكان العاصمة ، انظر

Dolger , Regesten , 189 190 , 198.

Nicephorus , 20 .

٢٠ — Sebeos , Heraclius , 91 ; Theophanes , 327

٢١ — القرآن ، سورة الروم ١ — ٤ .

٢٢ — Brown , Late Antiquity , 170 .

٢٣ — Ostrogorsky , State , 111 .

٢٤ — Theophanes , 341

٢٥ — كتب ثيو فيلاكت سيمو كاتا Theophylact Simocattes عن عهد الامبراطور موريس Maurice (٥٨٢ - ٦٠٢ م) وهذه الحولية هى تكملة لحولية مناندر Menander Protector الذى يغطى مؤلفه الفترة من ٥٥٨ — ٥٨٢ م ، انظر

Theophyl . Simocatta ; Menander Protector, I - 131.

٢٦ — George of Pisidia , Poemi , 109, 129, 188 - 9.

٢٧ — Chronicon Paschale 714 26

٢٨ — Ostrogorsky State, 87 88

٢٩ — Theophanes , 348 351 ,

٣٠ - Vasiliev, Byz. Empire, I, 193

٣١ - Theophanes, 354, 395 - 399; Nicephorus, 34, 54 57
Ahrweiler, Asie Mineure, I — 3

٣٢ - Theophanes, 403 411 ; Lilie, Reaktion, 6 83
97 — 108, 143 f

٣٣ - Haldon, Some Remarks 169

٣٤ - Lilie, Reaktion, I 7 9

٣٥ - Theophanes, 405 ; Nicephorus 58

٣٦ - Lilie, Reaktion, 161 Farag, Basil II 3.

٣٧ - Lilie, Reaktion, 138 — 39 ; Honigmann, Ostgrenze.
40 43

٣٨ - Farag, Basil II, 3

٣٩ - Haldon, Some Remarks, 169 — 70

وعن سياسة تجنب الصدام بالعرب انظر :

Toynbee, Constantine Porphyrogenitus, 111; Lilie. Reaktion, 92 ff

٤٠ ـ وفي ظل هذه الظروف لجأت الامبراطورية الى اتباع سياسة نقل السكان الى المناطق المقفرة من اجل توفير الرجال فيها ليقوموا بالدفاع عنها ، انظر :

Charanis Transfer, 143 — 45 ; Lemerle, Esquisse, 63 — 64 ; Haldon, Some Remarks, 170

٤١ ـ Ostrogorsky, State, 104.

٤٢ ـ Nicephorus, 24

وأنظر أيضاً

Ostrogorsky, Seventh Century, 15 — 21

٤٣ ـ Obolensky, Commonwealth 90.

٤٤ ـ Vasiliev, Byz. Empire, I, 219. Obolensky, Commonwealth, 91

٤٥ ـ Tapkova - Zaimova, Le Politique, 40. Theophanes 359

٤٦ — *Constantine Porphyrogenitus*, DAI ch. 29 — 36. pp. 122 164.

٤٧ — Obolensky, Commonwealth. 85 86; Ostrogorsky, State, 104 — 105.

٤٨ — Theophanes, 391; Schenk Leons III, 296 — 300.

٤٩ — انظر . وسام : العلاقات بين الامبراطورية البيزنطية والدولة الاموية خاصة الفصل الثانى . وأنظر ايضا

Guilland, Maslama 109 — 138 Brooks The Arabs, 192 — 193; Brooks, Campaign 19 — 33.

٥٠ — تأثر الامبراطور ليو بآراء الاسقفين قسطنطين وتوماس وكان كلاهما قد اقاما لبعض الوقت فى العاصمة سنة ٧٢٦ م ، انظر :

Ostrogorsky Querelle des Images, 235 - 240,

٥١ — Theophanes, 404

٥٢ من المؤرخين الذين اعتقدوا أن هناك مرسوما قد صدر سنه ٧٢٦ م ، المؤرخ اناستوس ، انظر :

Anastos, Leo III's Edict, 5 — 41,

ويرى أوستروجورسكى أن الامبراطور لم يصدر مرسوما فى سنة ٧٢٦ م ، وان كل مافعله في ذلك العام هو التحدث ضد عبادة الصور علنا ، وان مرسومه الوحيد الذى صدر ونص على تحريم عبادة الصور والايقونات هو ذلك المرسوم الصادر فى سنة ٧٣٠ م ، وأيد اوستروجورسكى عدد كبير من المؤرخين من أمثال : دولجر ، وبربيه وغيرهما ، انظر

Ostrogorsky , State , 16 ; n. 1

٥٣ - Mango , Historical Introduction , 2

٥٤ - Browning Scholarship . 6

٥٥ - عن آراء المؤرخين المحدثين وتفسيرهم لحركة تحريم عبادة الصور والايقونات انظر فازيليف وتعليقه على بعض الآراء :

Vasiliev , Byz. Empire , I , 251 - 57

وانظر أيضاً هذه الدراسات الجديدة :

Barnard ; Emperor Cult, 13 - 28 ; Barnard Iconoclast Era , 25 - 37 ; Brown, Aspects of the Iconoclast Controversy , 1 - 34 ; Gero, Byzantine

Iconoclasm, 103 ; Gero, Notes, 23 - 42 ; Haldon, Some Remarks, 161 - 184.

٥٦ ـ عن انتشار عبادة الايقونات بشكل كبير فى المجتمع البيزنطى وبالذات فى الفترة الممتدة بعد عهد جستنيان العظيم ، انظر المقالة الهامة التى كتبها كيتسنجر

Kitzinger, Cult of Images, 83 - 150.

وانظر ايضاً

Barnard, Roman and Oriental Background, 58 - 64.

٥٧ ـ هذا النص هو جزء من خطبة كتبها ثيودور سينكلوس Theodore Syncellus عن حصار العاصمة البيزنطية سنة ٦٢٦ م بواسطة الآفار والفرس . وكان ثيودور معاصراً لهذا الحادث ، فهو أحد رجال الدين الذين عملوا تحت امرة البطريرك سرجيوس (مثل جورج البسيدى) وكان احد موظفى كنيسة الحكمة المقدسة ، انظر نص الخطبة فى :

An Av., 8.

٥٨ ـ Mango, Historical Introduction, 2

٥٩ ـ عن المجمع المسكونى السادس : (٦٨٠ ـ ٦٨١ م) والمجمع الدينى

المعروف باسم Quinisext سنة ٦٩٢ م انظر

Ostrogorsky State, 127 - 28 138 39 .

عن دعوة مجمع Quinisext الناس لانتاج ايقونات السيد المسيح انظر :

Mango , Historical Introduction 2

٩٠ ـ عن هدنة الحملات او الاغارات الاسلامية بالتفصيل انظر دراسة العالم الالمانى Lilie والتى اعتمد فيها على مقابلة المصادر العربية بالمصادر البيزنطية

Lilie Reaktion , 145 — 47

٩١ ـ *Theophanes* , 403

ويلاحظ أن ثيوفانيس حين سرد ذلك الحادث ، وجد صعوبة كبيرة فى تفسيره بما يتفق ووجهة نظر انصار عبادة الصور .

على أية حال ؛ وجد انصار عبادة الصور تفسيرا لحادث تحطيم الأيقونة فى مدينة نيقية ، اذا قالوا أن المدينة تم انقاذها لا بسبب تحطيم الأيقونة بل بسبب صور آباء الكنيسة (القديسين) التى كانت معلقة على حوائط كنيستها الرئيسية . ويبلغ عدد هذه الصور ٣١٨ صورة وهي تمثل عدد الاساقفة الذين حضروا المجمع المسكونى

الأول الذى عقد فى نيقية سنة ٣٢٥ م ، وإن كان البعض وعلى رأسهم جونز يحدد عدد الاساقفة الذين حضروا المجمع ، ٢٧٥ أسقفا (Jones , Decline , 43) . ويضيف انصار عبادة الصور فى تفسيرهم لحادث نيقية أن قسطنطين (الضابط الذى حطم الأيقونة) قد لقى مصرعه على الفور . على أية حال اذا كان هذا ماقاله انصار عبادة الصور فلا شك أن انصار تحريم عبادة الصور قالوا العكس .

٦٢ — *Kitzinger* , *Cult of Images* , 83 — 150 *Barnard*, *Roman and Oriental Background* 55 — 64

٦٣ — *Mango* , *Historical Introduction* , 3.

٦٤ — *Sacrorum Conciliorum* , XIII , Cols. 197 — 198 .

٦٥ — انظر المناقشات الهامة التى اوردها المؤرخون بخصوص مرسوم الخليفة الاموى يزيد بن عبد الملك

Grabar , *Iconoclasme* , 103 110 *Grabar* , *Islam and Iconoclasm* 45 ; *Ostrogorsky* , *State* . 161 ; *Becker*, *Islamischen Welt* , I , 446

٦٦ — *Gremanus* , *Haeresibus et Synodis* , Col. 77.

ولكن يلاحظ ان كلا من جرو Gero وارفيلر Ahrweiler يعتبران

ليو الثالث هو العقل المفكر الرئيسي وراء سياسة تحطيم الصور ، وانه

تصرف باستقلال كامل ، وأن دور اساقفة الاناضول (اسقف ناكوليا

واسقف كلاوديوبولس Cladiopolis) قد ضخمه المؤرخون بدون

داع . انظر :

Gero , Byzantine Iconoclasm. 9 — 93 Ahrweiler, Iconoclast World 22

٦٧ ـ كان الا أيقونيون (انصار تحريم عبادة الصور والايقونات) يعتقدون

أن السيد المسيح لا يمكن تحديد ملامحه وبالتالى لا يمكن تصويره ،

انظر : الدراسة الهامة التى قام بها برنارد للاهوت الخاص بعبادة

الصور :

Barnard , Theology of Images . 7 — 13

وأنظر ايضا

Ostrogorsky State , 172

٦٨ ـ كان مارسلوس Marcellus هذا اسقف أنقرة Ancyra فى القرن الرابع

الميلادى .

٦٩ ـ Theodore the Studite, Epistolae II 23, Col. 1183 — 82.

عن حياة ثيودور ستوديت انظر مارواه كاتب سيرته الذى كتب عنه بعد سنة ٨٦٨ م والمعروف أن القديس ثيودور ستوديت توفى سنة ٨٢٦ م :

Theodore the Studite, Vita, Cols. 233 328.

٧٠ – *Ahrweiler*, Iconoclast World, 24.

٧١ – *Ostrogorsky* State, 174 175.

٧٢ – *Mango*, Historical Introduction, 8

٧٣ – *Germanus* Haeeresibus et Synodis Col. 80.

٧٤ – *Ostrogorsky*, State, 165 66

٧٥ – *Alexander*, Nicephorus 48

٧٦ – *Barnard*, Theology of Images, 13.

٧٧ – *Mango*, Historical Introduction, 3; *Vasiliev*, Byz. Empire, I, 260 — 61

٧٨ – *Mango*, Historical Introduction, 4

وتعتبر سيرة القديس ستيفن المعروف بالصغير (الاصغر) St, Stephen

the Younger من أهم تواريخ القديسين الخاصة بفترة الحركة اللاأيقونية . ولقد كتبت السيرة فى سنه ٨٠٦م (والمعروف أن القديس ستيفن توفى سنة ٧٦٥ م) . وترجع أهمية سيرة هذا القديس بالذات الى كم المعلومات الواردة بها بخصوص الاحداث التى وقعت فى الامبراطورية فى القرن الثامن الميلادى . تقريبا لايوجد مؤرخ محدث كتب عن القرن الثامن الميلادى ولم يرجع الى هذا المصدر الهام . اكثر من هذا ذاع صيت سيرة هذا القديس فى بيزنطة واستعملها عدد من كتاب تواريخ القديسين الذين جاءوا من بعده ، بل أن بعض المؤرخين البيزنطين اعتمدوا على سيرة القديس ستيفن ونقلوا منها .

عن نص سيرة القديس ستيفين المعروف بالصغير انظر :

Stephen the Younger *Vita* , Cols. 1067 — 1186

وانظر أيضا المقالة الهامة التى كتبها شفشنكو عن تواريخ القديسين :

Sevcenko , *Hagiography,* 114 116

٧٩ — Stephen the Younger, *Vita* , Cols. . 1117 , 1160 .

وأنظر أيضاً تعليق أرفيلر

Ahrweiler , *Iconoclast Worlp* . 24 — 26 .

٨٠ — Theophanes, 445 Ostrogorsky, State 174, 175.

٨١ — Theophanes, 413

٨٢ — ورغم أن سياسة ليو الرابع هذه يمكن وصفها بالاعتدال الا انه هناك حالة اضطهاد واحدة سجلها لنا ثيوفانيس سنه ٧٨٠ م ، حين أمر الامبراطور بسجن عدد من موظفى الادارة الامبراطورية الذين تمسكوا بعبادة الصور ، انظر

Theophanes, 453

٨٣ — Ostrogorsky, State, 178

٨٤ — Ostrogorsky, State, 179 Vasiliev Byz Empire, I, 264; Mango, Historical Introduction, 5

٨٥ — انظر عن هذه الجريمة البشعة:

Ostrogorsky, State 180 — 182

٨٦ — عن اصلاحات الامبراطور نقفور الادارية والمالية انظر :

Ostrogorsky, State, 187 196

٨٧ — Ostrogorsky, State, 200 ; Vasiliev, Byz. Empire, I, 283 84.

٨٨ — Scriptor Incertus, 346, 349.

٨٩ — Mango, Historical Introduction, 5 Ostrogorsky, State, 201

٩٠ — Ostrogorsky, State, 201 – 203 Ostrogorsky Bilderstreit, 50 — 52.

٩١ — Theodore the Studite, Epistolae, Cols. 917 ff, and 1185 f.

٩٢ — قتل الامبراطور ليو الخامس الارمينى يوم عيد الميلاد سنة ٨٢٠ م أثناء حضوره القداس الدينى فى كنيسة الحكمة المقدسة Hagia Sophia على يد اتباع رفيق سلاحه القديم ميخائيل العمورى . ولقد خلفه على العرش ميخائيل الثانى الذى أسس أسرة جديدة هى الأسرة العموريه، انظر :

Ostrogorsky, State, 203.

٩٣ — Mango, Historical Introduction, 6.

وانظر ايضاً

Ahrweiler, Iconoclast World, 23 — 25

٩٤ - عن سقوط عمورية فى يد الخليفة العباسى المعتصم ، انظر :

محمد الشيخ الامبراطور البيزنطى ثيوفيل ، ص ١٥٩ - ١٦٧ .

٩٥ - كان ثيوكتيستوس *Theoktistus* هذا يشغل وظيفة المسئول عن محبرة الامبراطور Epi tou Kanikleiou ، وهو منصب هام من مناصب الادارة الامبراطورية يتحتم على شاغله ان يكون قريبا باستمرار من الامبراطور ، انظر :

Mango , *Liquidation of Iconoclasm* , *133.*

وللمزيد عن وظيفة المسئول عن محبرة الامبراطور ، انظر :-

Oikonomidès *Préséance* , 3II *Bury* , *Admin. System,* II7 ; *Dölger* , *Diplomatik* , 9 *ff* *Farag* *Basil II.* II4 , *n.* 79

٩٦ - *Mango* , *Liquidation of Iconoclasm* , *I.* 3 34

Ostrogorsky , *State* , 2I9

انظر كذلك الدراسة التفصيلية لخطوات ثيودرا منذالبداية وحتى النهاية بخصوص العودة لعبادة الصور فى

Dvornik , *Patriarch Photius* , 69 -76

٩٧ - عن نظام الثيمات وكيف تم تطبيقه انظر الدراسات الهامة التالية :

Karayannopoulos *Reformtatigkeit*, 35 — 72

Karayannopoulos, *Entstehung* 5 — II, 55 — 58;

Karayannopoulos, *Contribution*, 458 - 478;

Pertusi, *La Formation*, I – 40;

Oikonomidès *Les Premiers mentions*, 6 - 8

Toynbee, *Constantine Porphyrogenitus*, 134 - 145, 224 - 252.

٩٨ - *Ostrogorsky*, *State*, 96.

٩٩ - *Diehl* *Régime des themes*, 277 *Goubert*, *Byzance avant l'Islam* II pt 2 35 and 183

Karayannopoulos *Entstehung*, 68 — 69

Toynbee, *Constantine Porphyrogenitus*, 235.

١٠٠ - اختلف المؤرخون فى تفسير كلمة ثيم θεμα ، فالبعض يرى ان معناها موضع استقرار الجند (قسم من الجيش) ، والبعض الآخر يفسرها على أنها تعنى منطقة استقرار الفرقة العسكرية فى الشتاء او معسكر الجند . ولكن من المرجح أن الكلمة تعنى قسم من الجند ثم أصبحت تعنى المنطقة الادارية التى يحكمها قائد قسم من الجيش ، انظر عن الآراء المختلفة في تفسير معني كلمة ثيم

Karayannopoulos, Entstehung, 90, Haussig, Themenordnung 86; 89 109 Dolger, Ableitung, 169, and 193; Ahrweiler, Asie Mineure, 20, n. 4 Pertusi, La Formation, 16, 2? and 4; Toynbee, Constantine Porphyrogenitus, 231 — 32

١٠ — عن ال Stratiotika Ktemata أنظر

Toynbee, Constantine Prophyrogenitus, 134 145 Stein, Studien, 134 — 150 Antoniadis — Bibicou Histoire Maritime, 97 101; Ahrweiler, Recherches 13.

١٠ — Ostrogorsky, State, 97

١٠ — يرى اوستروجورسكى Ostrogorsky وشتاين Stein ان نظام الثيمات بدأ فى عهد الامبراطور هرقل وكان جزءا من اصلاحاته الادارية، وحل محل النظام الادارى السابق والخاص بحكم الاقاليم انظر

Ostrogorsky, Entwicklung — grundlagen, 130; Ostrogorsky, Agrarian Conditions, 207

Ostrogorsky Livre des Thèmes , 46 — 56

Stein Studien , 130 131 and 134 .

بينما يرى معظم المؤرخين المحدثين الآخرين ، أنه فى خلال القرن السابع وبعد القرن السابع أيضا عاشت الفرق العسكرية فى المناطق الجديدة التى استقرت فيها جنبا الى جنب مع نظام ادارة الاقاليم السابق ، بموظفيه الاداريين المدنيين ، وأن النظامين عاشا معا لبعض الوقت قبل أن يبدأ قادة الفرق العسكرية فى الجمع بين سلطاتهم العسكرية والسلطات الادارية المدنية ، انظر :

Karayannopulos, Entstehung, 9, 29 n. 6, 35, 58-59

Antoniadis Bibicou , Histoire Maritime , 53 ,

Gelzer , Die Genesis 8, 65 — 7 Ensslin ,

Themenverfassung 364 — 65 , Pertusi , La Formation,

14 — 15

١٠٤ — Ostrogorsky , State , 97 Toynbee Constantine Porphyrogenitus , 324 — 25 .

١٠٥ — عن سياسة تهجير السكان الى المناطق التى تفتقر الى الايدى العاملة

داخل الامبراطورية ، انظر :

Toynbee *Constantine Porphyrogenitus* 70 106

١٠٦ ـ انظر الدراسة التى قام بها جونز عن هذه الطبقة الأرستقراطية

Jones , *Decline* 270 - 81 .

١٠٧ ـ *Ostrogorsky* *State* 83, 142 — 43 .

١٠٨ ـ *Theophanes*, 388.

١٠٩ ـ *Ostrogorsky* , *State* , 177

وعن اختيار تاراسيوس *Tarasius* بطريركا لكنيسة القسطنطينية فى عهد أيرين *Irene* سنة ٧٨٤ م ، انظر :

Theophanes, 458 .

١١٠ ـ *Browning* , *Scholarship* 8 ; *Dvornik* , *Patriarch Photius*, 2 and 5

١١١ *Ostrogorsky*, *State* , 187

١١٢ ـ عن القديس افلاطون *St. Plato* (رئيس دير ساكوديوم *Saccudium*) ،

عم القديس ثيودور ستوديت (رئيس دير ستوديون *Studion* في القسطنطينية) انظر:

Sevcenko , *Hagiography*, 115 ; *Ostrogorsky*, *State*, 180 .

١١٣ - كان أخو فوتيوس *Photius* ـ زوجاً لاخت الامبراطورة ثيودورا (زوجة ثيوفيل)، انظر :

Dvornik , *Recent Research* , 12

١١٤ - انظر هامش (١٠١)·

١١٥ - *Toynbee* , *Constantine Porphyrogenitus* , 137.

١١٦ - *Toynbee* , *Constantine Porphyrogenitus* , 138 .

١١٧ - *Charanis* , *Armenians* , 21 — 23; *Toynbee* *Constantine Porphyrogenitus* , 70 — 88

١١٨ - *Theoph . Cont.* , 43 — 44 , 49 .

١١٩ - *Browning* , *Scholarship* , 6 .

١٢٠ - *Browning* , *Scholarship* , 6 - 7 .

١٢١ - ولد ليو (عالم الرياضيات والفلسفة) في حوالي سنة ٨٠٠ م، وكان

أحد أقرباء البطريرك اللاأيقونى يوحنا النحوى John the Grammarian . ولقد درس فى القسطنطينية فى بداية الامر، ثم رحل الى جزيرة أندروس Andros ليبدأ دراسته العليا فى عالم الرياضيات على يد راهب مسن هناك . وبعد أن أمضى فترة من الوقت هناك عاد ليو الى القسطنطينية حيث عمل مدرسا . ثم أخذ صيته ينتشر كعالم رياضيات لامثيل له ، لدرجة ان شهرته وصلت بغداد فسمع بها الخليفة العباسى المأمون الذى حاول دعوته الى بغداد . ويقال أن الامبراطور ثيوفيل Theophilus لم يسمع به حتى طلبه الخليفة العباسى . ومنذ ذلك الوقت اهتم الامبراطور بالعالم ليو ، فعينه فى المدرسة البطريركية فى اواخر العقد الثالث من القرن التاسع الميلادى . وبعد ذلك وفى سنة ٨٤٠ م تم تعين ليو هذا رئيسا لأساقفة سالونيكا Thessalonica . وبعد وفاة الامبراطور ثيوفيل سنة ٨٤٢ م ، انتهت الحركة اللاايقونية وعادت عبادة الصور والايقونات ، وتبع ذلك عزل ليو من منصبه السابق الا أنه لم يضطهد فى عهد ثيودورا وابنها ميخائيل الثالث ، بل أن الادارة الامبراطورية الجديدة قامت بتعيينه استاذا للفلسفة ورئيسا لجامعة القسطنطينية . والمعتقد أنه كان لا يزال فى منصبه هذا فى سنة ٨٦٩ م .

لقد كان ليو هذا عالم رياضيات لامثيل له ، وطبيبا ، وفيلسوفا، وشاعرا. ويقال انه صمم نظاماً للبرق (التلغراف) كى ينقل الانباء من منطقة الحدود الشرقية مع العرب فى قليقية ، الى القسطنطينية ، للمزيد عن

ليو عالم الرياضيات والفيلسوف البيزنطى ، وعن مؤلفاته ، انظر

Browning, Scholarship, 7 - 8 ; Hemmerdinger, Histoire du Texte. 35 — 39

وعن جامعة القسطنطينية بدايتها وتطورها ، وتاريخ التدريس بها ، أنظر الدراسة الجديدة الهامة التى قام بها العالم الفرنسى Lemerle

Lemerle, Humanisme Byzantin, 43 — 65

وانظر نفس المرجع السابق للمزيد عن عالم الرياضيات والفلسفه ليو من ص ١٤٨ — ١٧٦ .

١٢٢ - كتاب فوتيوس Photius المعروف باسم بابوتيكا Bibliotheca لايزال فى حاجة الى دراسة تتناوله من كل ناحية فهو معين لا ينضب من المعلومات الهامة التى تهم الدارسين لتاريخ الادب البيزنطى ، كما أن هذا المؤلف هام ايضا للباحثين فى مجال الدراسات الكلاسيكية ، انظر :

Dvornik, Scholar and Statesman, 5 — 18.

١٢٣ - Browning, Scholarship, 7.

١٢٤ - إن أقدم مخطوطة ظهر فيها هذا الخط الجديد فى المخطوطة المعروفة

باسم Evangeliary التي كتبت حوالى سنة ٨٣٥ م ؛ وهى مخطوطة تتناول الكتاب المقدس ، وتوجد الآن فى لينينجراد Leningrade وتحمل الرقم التالى :

Leningrad Greek Ms. *bibl publ.* 219

١٢٥ - *Dvornik* *Grégoire de Décapolite*, 53 — 60

١٢٦ - *Blasius of Amorium*, *Vita*, 660

١٢٧ - عن موضوع تتويج شارلمان امبراطورا فى سنة ٨٠٠ وأهمية هذا الحدث انظر قائمة المراجع التى اوردها اوستروجورسكى :

Ost. g. ky, *State*, 182

١٢٨ - *Theophanes*, 473

١٢٩ - *Theophanes* 4 5

١٣٠ - محمد الشيخ : الامبراطور البيزنطى تيوفيل ، ١٥٩ — ١٦٥ .

١٣١ - *Grumel*, *Homélie* 193 - 194

الفصل الرابع

عصر التوسع والفتح

٨٤٣ – ١٠٢٥م

- الدماء الجديدة (الأرمن والسلاف)

من الدفاع إلى الهجوم (ميخائيل الثالث، باسيل الأول، ليو السادس)

- الجيش البيزنطي وقوته الضاربة

- اتجاه السياسة الخارجية في عهد باسيل الثاني .

- اضمحلال الخلافة العباسية

- الارستقراطية العسكرية في القرن العاشر الميلادي .

- الاتجاه الشرقي للتوسع (نقفور فوقاس ويوحنا تزيمسكس)

- تقييم عصر التوسع

إن الفترة الممتدة من منتصف القرن التاسع الميلادى الى منتصف القرن الحادى عشر ، تستحق أن تسمى « بعصر التوسع والفتح » ، لأنها شهدت ثانى وآخر محاولة جادة من جانب الاباطرة البيزنطيين فى القسطنطينية لتحقيق السيادة السياسية بالوسائل العسكرية على أقاليم فى الشرق والغرب ، كانت تحكمها روما من قبل فى أيام قوتها لقد كانت هذه محاولة عملية لتحقيق ما كان دائما صحيحا من الناحية النظرية ، الا وهو أن حكام القسطنطينية كانوا الورثة الشرعيين لكل ممتلكات روما القديمة وطبقا للنظرية البيزنطية الخاصة بالمشيئة الالهية ، فان السيادة الرومانية العالمية قد قضى بها الله، حين منح الامبراطورية فى وقت شاءه سلطانا ليس له نهاية فى الزمان أو المكان . ولذلك فحين قام اباطرة القسطنطينية بالتوسع على حساب المسلمين فى الشرق ، وحين اخضعوا دولة بلغاريا المستقلة وجعلوها ولاية امبراطورية ، فانهم كانوا يستردون ما كان ملكاً للامبراطورية وحقاً لهم حسب نظرية المشيئة الالهية وهم بهذا إنما يستردون مافقدته الامبراطورية ، تماما كما حاول جستنيان استرداد الولايات الغربية المفقودة فى القرن السادس الميلادى .

على أية حال إن « عصر التوسع والفتح » هو أمجد فترة فى تاريخ الامبراطورية البيزنطية ، بل هو عصرها الذهبى . ومن الافضل أن نلقى نظرة على الخريطة كى ندرك حجم الانجازات التى تمت فى هذا العصر فى منتصف القرن التاسع الميلادى كانت الادارة الامبراطورية تحكم آسيا الصغرى وكانت حدودها الشرقية عبارة عن منطقة حدود غير ثابتة تمتد من شرقى طرابيزون Trebizoud على البحر الاسود وحتى غربى طرسوس على البحر

المتوسط . وفى أوربا كانت بيزنطة تحكم تراقيا Thrace والجزء الجنوبى لمن شبه جزيرة البلقان (أى بلاد اليونان ، فضلا عن بعض المدن الساحلية على ساحل دالماشيا ، ومدينه البندقية ، وجنوب ايطاليا وجزيرةصقلية . وكانت جزيرة كريت فى يد المسلمين ، أما جزيرة قبرص فكانت تحت الحكم المشترك لبيزنطه والعرب المسلمين .

كان هذا هو موقع وحجم الامبراطورية البيزنطية فى سنه ٨٤٣م ، ولكن وبعد أقل من قرنين من الزمان ومع حلول سنه ١٠٢٥ م على وجه التحديد كانت حدود الامبراطوريه البيزنطيه الشرقية تمتد شرقا إلى ارمينيا وبحيرة «فان» Van وتمتد فى اتجاه الجنوب الشرقى الى جنوب انطاكية وحلب فى الشام . وكانت كريت وقبرص قد اصبحتا ولايتين بيزنطيتين . أما فى الغرب فقد كانت ايطاليا الى الجنوب من الممتلكات البابوية فى قبضه البيزنطيين . كذلك كانت الحدود فى شبه جزيرة البلقان لاتمتد من سالونيكا Thessalonica غربا الى بحر الادرياتيك ولكن من البحر الاسود على طول نهرى الدانوب والساف Save وتضم فى داخلها كل دولة البلغار التى كانت لفترة طويلة مصدر خطر على القسطنطينية من الشمال . ولم تفقد الامبراطوريه فى عصر التوسع سوى جزيرة صقلية التى استولى المسلمون على آخر المعاقل البيزنطية فيها سنه ٩٠٢ م ، وان كانت الامبراطورية قد استردت جزءاً منها فى سنه ١٠٤٠ م . (١) ولم تكن أنجازات الادارة الامبراطوريه فى عصر التوسع قاصرة على الفتح العسكرى إذ استطاعت الادارة البيزنطيه بالدبلوماسية

النشطة أن تمد نفوذ بيزنطة السياسى بشكل كبير الى ارمينيا وأيبريا ، وامارة كيف Kiev الروسية ، والى الخلافة الفاطمية فى مصر والى أمارة حلب الحمدانية وأمارة بنى مروان (الكردية) فى شمال الجزيرة اكثر من هذا فى ١٠٢٥م اخذ الامبراطور باسيل الثانى يعد العدة لحملة ضخمة يستولى فيها على صقلية وايطاليا ، الا أن المنية عاجلته . (٢) وفى كل هذه المناطق التى امتد اليها النفوذ البيزنطى كان تأثير الحضارة البيزنطية لا يقل عن تأثيرها السياسى

من الافضل ان نعود الى سؤال سبق أن طرحناه وهو هل كانت النهضة التى عاشتها الامبراطورية فى القرن العاشر الميلادى راجعة الى دخول دماء فتية جديدة داخل الكيان الامبراطورى ؟ أم إلى دقة النظام العسكرى وحسن تنظيم الجيش البيزنطى وتطور فن قتاله ؟ ام كانت ترجع الى اضمحلال الخلافة العباسية بسبب انحلال السلطة المركزية وظهور الكيانات السياسية الصغيرة التى كانت أعجز من أن تدافع عن نفسها ؟

إن الاجابة على مثل هذا السؤال ليست بالأمر اليسير ، ويرى الباحث أن عصر التوسع والفتح الذى عاشته الامبراطورية فى القرن العاشر الميلادى لم يكن نتيجة عامل واحد بل مجموعة من العوامل مجتمعة كان من بينها إن لم يكن من أهمها تلك العوامل الثلاثة سابقة الذكر .

فالنهضة التى عاشتها الامبراطورية في القرن العاشر صنعتها أمة هى الأمة البيزنطية ذات الأصول المختلفة ، التى انصهرت عبر الفترة المظلمة وصمدت أمام المحن وخرجت فى النهاية كلا متحدا يتحدث جزء كبير منه على الأقل اللغة

اليونانية ، يدين كله بالديانة المسيحية على المذهب الصحيح ، ولا شك أن المسيحية قد بعثت فى هذه الأمة روحاجديدة . إن الدماءالفتية التى جددت شباب الامة البيزنطية هى فى أغلبها دماء عنصرين الأرمن والسلاف . ولقد حدث هذا خلال الفترة المظلمة (القرنين السابع والثامن الميلاديين) . فبعد إقفار آسيا الصغرى من سكانها منذ أوائل القرن السابع الميلادى نتيجة حروب جستنيان الطويلة المهلكة ، ونتيجة إجتياح الفرس ومن بعدهم العرب للامبراطورية بصفة عامة ولآسيا الصغرى بصفة خاصة ، اضطر أباطرة الاسرة الهرقلية (٦١٠ - ٧١١ م) ومن بعدهم أباطرة الاسرة الأسورية (٧١٧ - ٨٠٢ م) الى تجنيد الأرمن والسلاف ، والى نقل أعداد كبيرة منهم كى يستقروا فى المناطق التى هجرها سكانها تحت وطأة الغزو الخارجى . وكان هدف الادارة الامبراطورية أن تقوم هذه العناصر الجديدة بزراعة الحقول المهجورة ، ودفع الضرائب عنها (ليتوفر للخزانة الامبراطورية السيولة النقدية) ، فضلا عن قيام هذه العناصر بالانخراط فى جند الثيمات للدفاع عنها . وكانت أعداد الأرمن والسلاف التى قامت الادارة الامبراطورية بتهجيرها الى آسيا الصغرى والبلقان (وهى العناصر التى تم تجنيد اعداد كبيرة منها فى فرق الثيمات) تبلغ عشرات الالاف . (٣)

ولاشك أن الامبراطورية البيزنطية تدين لهذه العناصر الجديدة من أرمن وسلاف بالكثير . ويمكن القول أن الامبراطورية تدين لكل عنصر بشكل معين . فاذا قلنا أن السلاف أحيوا الزراعة بينما حارب الأرمن أعداء الامبراطورية البيزنطية ، فان هذه العبارة العامة فى جوهرها بعض الصحة .

ويلاحظ أنه بينما تعلمت الطبقات العليا للعناصر المهاجرة (الارمن والسلاف) كيف تتكلم اللغة السائدة فى الامبراطوريه الا وهى اليونانية الوسيطه (البيزنطية) ، حققت عناصر الفلاحين الارمن والسلاف تقدما ابطأ ، واحتاج إنصهارها فى البوتقة البيزنطية إلى وقت أطول . فمثلا الامبراطور باسيل الأول Basil I (الذى كان فى الأصل فلاحا) كان يتكلم الارمينية كلغته الأولى (٤) كذلك ظلت اللغة السلافية سائدة فى بعض مناطق جنوب اليونان حتى القرنين الرابع عشر والخامس عشر . على أية حال ، كانت الاسرةالتى حكمت الامبراطورية فى عصرالتوسع تعرف « بالاسرة المقدونية». ولقدأسس هذه الأسرة باسيل الاول المقدونى فى سنة ٨٦٧ م . ولقد اطلق على هذه الاسرة اسم المقدونية لان باسيل نفسه ولد فى مقدونيا وبالتحديد فى اقليم تراقيا Thrace ، وكان ابوه ارمينيا بالتأكيد ، ومن المرجح أن أمه كانت سلافية (٥) . وعلى هذا يمكن القول انه فى هذا الرجل اتحدالعنصران الرئيسيان (الارمن والسلاف) . وكان اتحادهما هو الذى ادى الى العظمة البيزنطية . لقد حكمت الاسرة المقدونية مائه وتسع وثمانين سنة (٨٦٧ - ١٠٥٦م) وهى فترة طويلة إنتهت بوفاة الامبراطورة ثيودورا Theodora (آخر سلالة باسيل الأول) فى ١٠٥٦ م . ويلاحظ أن هذه الاسرة اكتسبت عبر هذه الفترة الطويلة مكانة سامية فريدة وحين انتهى حكم سلالة باسيل الأول فى سنه ١٠٥٦ م أجمل المؤرخ البيزنطى المعاصر ميخائيل بسلوس Psellos انجازات الاسرة المقدونيه فى الكلمات التاليه

« لا اعتقد أن هناك أسرة قد حباها الله بمثل هذا الحب مثل الاسرة المقدونيه ،

وان هذا لشيء يبعث على الدهشه خاصة حين نتذكر أنها قامت على أساس غير شرعي . إذ تأسست في ظل القتل وسفك الدماء . ولكن مع كل هذا تأسست هذه الاسرة واخذت جذورها تتأصل ، وفروعها تنتشر وتزدهر ، ثم قدمت نتاجها وكان كل ناتج عبارة عن ثمرة امبراطوريه لا يوجد مايقارن بها سواء في الجمال او العظمه » (٦)

ويلاحظ أنه في الوقت الذي كانت قوه بيزنطه آخذه في الازدياد والنمو كان عهد قوة الخلافه العباسية قد ولى . والمعروف أن الدولة العباسيه شهدت عصرين : عصر قوة ، وعصر ضعف واضمحلال اما عصر القوة فانه يبدأ منذ قيام هذه الدولة ويستمر الى عهد الخليفه الواثق (ت ٢٣٢ هـ / ٨٤٧ م) وكانت هذه الفترة هي العصر الذهبي للخلافه فقد تولى الخلافه عدد من الخلفاء الاقوياء الذين تمتعوا بكفاءة ادارية وحكمه سياسيه . فاستطاعوا فرض سلطانهم وهابتهم جميع العناصر الخاضعه لهم رغم تعدد جنسياتها من فرس وعرب وترك . كذلك كان الخلفاء العباسيون في عصر القوة حريصين على قمع أية فتنه سياسيه كانت او دينيه كذلك كان لحرصهم على تأمين حدود دولتهم الخارجية وخاصه أمام البيزنطين اعدائهم التقليديين ، وحرصهم على قيادة جيوشهم بأنفسهم أثره في نفوس اعدائهم في الخارج . وقد أدى هذا كله الى استقرار الامور في الدولة وكان له اعظم الاثر على الازدهار الحضاري الذي شمل مختلف فروع في بغداد .

اما في العصر الثاني ، فقد دب الضعف في كيان الدولة وذلك لاعتماد الخلفاء العباسيين على الاتراك والديلم في الوظائف العليا في الدولة وفي الحقيقه

بدأت جذور هذا العصر منذ خلافة المعتصم (٢١٨ – ٢٢٧ هـ/٨٣٣–٨٤١م)، لانه استبعد عنصرى الفرس والعرب واعتمد على الاتراك ، حيث قام بجلبهم من بلاد ما وراء النهر. وبالتدريج أوكلت اليهم المناصب العليا فى الدولة فتمكن بعضهم من الوصول الى اعلى المراتب مما جعلهم يفرضون سيطرتهم ويتدخلون فى أمور الدولة . وأدى هذا الى ضياع هيبة الخلفاء العباسيين والاستهانة بهم ، بل وتعمد القواد الاتراك اهانتهم لمجرد اعلان سيطرتهم وتحكمهم فى شئون الحكم وتطور الامر فى عهد الخليفة المنتصر (٢٤٧ – ٢٤٨هـ/ ٨٦١–٨٦٢م) اذ بدأ قوادهم يتدخلون فى اختيار الخلفاء انفسهم وكان هـذا اخطر باب فتح لهم ، اذ جلب هذا على الخلافة اعظم الشرور . فبذلك اصبح الخليفة العوبة فى أيديهم ، وأصبح بقاؤه فى الحكم مرهونا برضاهم . وزاد تدهور الخلافة فى عهد المقتدر (٢٩٦ – ٣٢٠ هـ / ٩٠٨ – ٩٣٢ م) ، بسبب صغر سنة وعدم قدرته على ادارة الدولة ، وتزايد تدخل قواد الجيش فضلا عن الحاشية فى شئون الحكم . ويوضح المسعودى ذلك بقوله

« أفضت الخلافة اليه (المقتدر) وهو صغير لم يعن الامور ، ولا وقف على أحوال الملك ، فكان الامراء والوزراء والكتاب يدبرون الامور ، ليس له فى ذلك حل ولاعقد ، ولايوصف بتدبير ولا سياسة ، وغلب على الامر النساء والخدم وغيرهم ، فذهب ما كان فى خزائن الخلافة من الأموال بسؤ التدبير الواقع فى المملكة » (٧)

والجدير بالذكر أن عهـد الخليفة الراضى (٣٢٣ – ٣٢٩ هـ / ٩٣٤ – ٩٤٠ م) شهد تطورات جديدة فى داخل الخلافه العباسية وخارجها . أما

فى الداخل فقد ازداد الشقاق والتنازع بين الجند وقاموا بثورات متعددة ليس فقط ضد الخليفة بل ضد قوادهم الذين باتوا يشعرون بعدم الاطمئنان الى مستقبلهم فى بغداد ، ولذلك راح بعضهم يبحث عن ولايات فى جنوب العراق أو الشام أو مصر . وزاد الامر سوءا أن ظهرت فى هذه الفترة كثير من الفتن والثورات بجانب بوادر الأنفصال فى كثير من ولايات الخلافة ، وكانت في معظمها تستهدف الاستقلال بالحكم مع الاعتراف بالسلطة الروحية للخليفة فقط . فظهرت امارة الحمدانيين فى أقليم الجزيرة ، كما سيطر البويهيون الديالمة على فارس ، واستقل البريديون بخرزستان ، والطولونيون بمصر والشام الخ . وهكذا انفصلت عدة ولايات عن كيان الدولة العباسية ، واصبح نفوذ الخليفة العباسى الفعلى قاصراً علي بغداد وحدها ، وان بقى له بعض النفوذ الروحى علي الولايات التى استقلت بأمورها

وقد أدى ظهور هذه النزعات الاستقلالية ، سواء ماكان استقلالها كاملا ، أو مع بقاء الاعتراف بالسلطة الروحية للخليفة الى زيادة ضعف الخليفة العباسى وزاد موقفه سوءا عدم وصول واردات وضرائب تلك الاقاليم - الا النذر اليسير منها - الى بغداد . اذ ترتب على ذلك عجز الخليفة عن مواجهة متطلبات حكومته والانفاق على جيش قوى يحميه ، وهذا بدوره دعاه الى اهمال ثغور دار الاسلام فطمع فيها البيزنطيون وكانت حالة الضعف التى وصلت اليها الخلافة العباسية واضحة للادارة الامبراطورية فى عهد الامبراطور ليو السادس (٨٨٦ - ٩١٢م) (٨) ، فقد أهمل الخلفاء العباسيون تدعيم الثغور الشامية والثغور الجزيرية وتركوها لمصيرها . على

أية حال استطاعت تلك الثغور الاعتماد على امكانياتها المحلية المحدودة كما اعتمدت على المتطوعين الذين كانوا يحضرون للرباط فى تلك الثغور . ولكن لم تكن الثغور الاسلامية لتستطيع الاستمرار بهذا الشكل لفترة طويلة وكان من المحتم أن تسقط أمام اى هجوم بيزنطى منظم إن عاجلاً أم آجلا. فقد كانت هذه الثغور صغيرة وموقعها مكشوف وما كانت تستطيع الاستمرار لوقت طويل دون دعم عسكرى ومالى كبير من جانب الحكومة المركزية فى بغداد .

كانت الامبراطورية البيزنطية والخلافة العباسية يشكلان نوعاً من توازن القوى فى القرن التاسع الميلادى يشبه الى حد بعيد ذلك التوازن الذى وجد بين البيزنطيين والفرس قبل ظهور الاسلام والفتوح الكبرى وكانت منطقة الحدود بين هذين العالمين المتناقضين تمتد من شرقى طرابيزون Trebizond على البحر الاسود (شمالا) ، فى خط متعرج يتجه جنوبا الى اقليم قليقية وبالتحديد الى غرب طرسوس على البحر المتوسط الا أن القرن العاشر الميلادى (الرابع الهجرى) شهد تحولا خطيرا فى العلاقات بين البيزنطيين والمسلمين . فالأول مرة منذ ثلاثة قرون تقريبا (منذ الفتوح الاسلامية الكبرى فى القرن السابع الميلادى) أخذ ميزان القوى يتغير لصالح الامبراطورية البيزنطية ، تلك الامبراطورية التى كانت طوال قرون ثلاثة تقريبا فى وضع دفاعى امام الحملات الكبرى والاغارات التى قام بها وبشكل مستمر العرب المسلمون لقد صمدت الامبراطورية البيزنطية لضغط [illegible] الاسلامية واجتازت المحنة بسبب عمقها الجغرافى ، وحصانة وشاهقة عاصمتها

القسطنطينية ، وتمكنت من إمتصاص طاقة تلك الهجمات الاسلامية واحتوائها، ثم جددت بيزنطة شبابها بدماء جديدة واستغلت الضعف والانحلال الذى أصاب الشرق الادنى الاسلامى والذى تمثل فى انحلال السلطة المركزية للخلافة العباسية وظهور الكيانات السياسية الصغيرة التى كانت أعجز من أن تدافع عن نفسها وهكذا انتهزت الامبراطورية البيزنطية هذه الفرصة ، فاتخذت سياسة الهجوم ونبذت سياسة الدفاع ، وعملت على فرض نفوذها على الشرق الادنى الاسلامى .

لقد بدأ هجوم الامبراطورية البيزنطية المنظم ضد دار الاسلام فى الربع الثانى من القرن العاشر الميلادى ، الا أن مقدمات هذا الهجوم تعود الى عهد الامبراطور ميخائيل الثالث (٨٤٢-٨٦٧م)،ففى عهد هذا الامبراطور بدأت بيزنطة ترد على الاغارات الاسلامية ، باغارات مماثلة على منطقة الثغور الشامية ، واغارات بحرية ضد موانىء مصر . (٩) كذلك اهتمت الادارة الامبراطورية فى عهد ميخائيل الثالث بتدعيم التحصينات فى آسيا الصغرى ، فقد تم إعادة بناء تحصينات أنقرة التى دمرها الخليفة المعتصم من قبل ، كما تم تقوية دفاعات نيقية . وفى سنة ٨٦٣م ، وفى اثناء احدى الاغارات التى قام الامير عمر بن عبيد الله الاقطع على قلب آسيا الصغرى والتى عبر فيها الثيم الارمينى الى بافلاجونيا *Paphlagonia* حيث وصل الى ساحل البحر الاسود ، قررت القيادة العسكرية البيزنطية التصدى لها . وفى يوم ٣ سبتمبر سنة ٨٦٣م وفى موقع يعرف باسم أرز من مرج الاسقف ، ويقع على حدود

ثيمى أرمينيا وبفلاجونيا التقى الطرفان فى معركة فاصلة ، استطاع فيها الجيش البيزنطى احراز نصر حاسم وقضى على الجيش الاسلامى وقتل فى هذه المعركة الامير عمر بن عبيد الله الاقطع أمير ثغر ملطية الاسلامى . وتعتبر هذه المعركة نقطة تحول هامة فى الصراع البيزنطى الاسلامى اذ كانت مقدمة لانتهاج الامبراطورية لاستراتيجية جديدة بعد أن اضحى ضعف المسلمين ظاهرا للعيان (١٠)

والجدير بالذكر أن الهجوم البيزنطى الكبير على ثغور دار الاسلام تأخر بعض الوقت لسببين : السبب الاول هو انشغال الامبراطورية البيزنطية فى عهد باسيل الاول (٨٦٧-٨٨٦م) بالقضاء على البوليصين *Paulicians* (وهم هراطقة من اصل ارمينى رفضوا المذهب الصحيح لكنيسة القسطنطينية). (١١) وكان البوليصون قد اتخذوا من منطقة الحدود الشرقية للامبراطورية البيزنطية المتاخمة للمسلمين ، مناطق ارتكاز لهم ، وتحصنوا هناك فى عدد من القلاع أهمها قلعة تفريك *Tephrike* وسيطروا على الاقليم المحيط بها ، واخذوا يغيرون من معاقلهم هذه على أقاليم الامبراطورية فى آسيا الصغرى (١٢) ويلاحظ أن هؤلاء البوليصين كانت تربطهم روابط طيبة بجيرانهم المسلمين فى أمارة مليطة . على أية حال ، فى سنة ٨٧٥م وبعد حرب استمرت عدة سنوات ، نجح الامبراطور باسيل الاول فى النهاية فى القضاء عليهم واستولى على معاقلهم وأهمها قلعة تفريك *Tephrike* وكل الاقليم الذى كان خاضعا لهم وضمه الى الامبراطورية . (١٣) وبهذا العمل أصبح القطاع الاوسط من

الحدود الشرقية للامبراطورية يتاخم حدود إمارة ملطية الاسلامية .

أما السبب الثانى الذى جعل الادارة الامبراطورية تؤجل هجومها الكبير على ثغور دار الاسلام ، فهو انشغال الامبراطورية البيزنطية بالتصدى للسياسة العدوانية التى اتبعتها دولة بلغاريا فى عهد القيصر سيميون Symeon (٩٣ ,-٩٢٧م) الذى كانت تحدوه احلام الاستيلاء على القسطنطينية كى يصبح امبراطور البلغار والرومان على أية حال اندلعت الحرب بين بلغاريا وبيزنطة طوال الفترة من ٩١٣-٩٢٤م واستطاعت الادارة الامبراطورية بقيادة الامبراطور رومانوس الاول ليكابينوس Romanos Iekapenos (٩٢٠-٩٤٤م) اجتياز محنة الحرب البلغارية بنجاح . (١٤)

ورغم المشاكل التى صادفت الامبراطور ليو السادس (المعروف بالعاقل) Leo VI (٨٨٦-٩١٢م) فى الداخل والخارج ، الا أن هذا الامبراطور يرجع اليه الفضل فى القيام بعمل تنظيمى هام بالنسبة لادارة الثيمات فى آسيا الصغرى (١٥) فقد قام ليو السادس باصلاح ادرى عسكرى فى تنظيم الثيمات بهدف الخروج بنظام موحد اكثر فعالية فى اداء الدور الدفاعى للثيمات وفى نفس الوقت يدفع الحدود الشرقية للامبراطورية مزيدا إلى الشرق وكان نظام الثيمات قبل عهد ليو السادس يقوم على أساس أن عدد من الأقاليم تتبع إداريا وعسكريا أحد الثيمات ويتولى قيادة كل ثيم قائد عسكرى برتبة ستراتيجوس . وكان كل ثيم ينقسم إلى عدد من المناطق العسكرية تعرف كل واحدة باسم تورما Tourma (أى كتيبة) ويتولى المسئولية فيها قائد كتيبة برتبة Tourmarch وهو مرؤوس للاستراتيجوس وكان هذا شيئا طبيعيا فاذا كان الثيم الواحد تستقر فيه فرقة عسكرية ، فان الفرقة العسكرية تضم عدد من الكتائب ، تستقر كل كتيبة فى منطقة من المناطق التى يضمها الثيم الواحد.

وإلى جانب الثيمات كانت توجد وحدات ادارية عسكرية أصغر حجماً وتوجد غالبا على الحدود الشرقية وتسمى كليزورات (وهى جمع كليزورا Kleisoura) ويتولى قيادتها قائد عسكرى برتبة Kleisourarch .

على أية حال يتلخص اصلاح الامبراطور ليو السادس فى قيامه بتحويل الكليزورات الى ثيمات جديدة وحتى يجعل هذا ممكنا ضم عدد من المناطق التى تعرف كل واحدة منها باسم تورما Tourma والتى كانت تتبع ثيمات قديمة الى الكليزورا Kleisoura التى حولها الى ثيم جديد وكان غرض ليو السادس من هذا تصغير حجم الثيمات بفصل بعض المناطق عنها ، هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى زيادة حجم الوحدات الادارية العسكرية الواقعة على الحدود مباشرة والتى تسمى كليزورات وذلك بضم مناطق جديدة (تورمات) بكتائبها العسكرية اليها اى زيادة قدرتها العسكرية بتحويلها إلى ثيمات جديدة وبهذا يتوحد التنظيم الادارى والعسكرى لاقاليم آسيا الصغرى ويصبح كله عباره عن ثيمات ، قد تكون أصغر حجما ولكنها بفرقها العسكرية المكونة من الفرسان والمشاة ستكون متناسقة واكثر مرونة وأسرع حركة وأفضل اداءاً (١٦) ونتج عن تطبيق إصلاح ليو السادس هذا أن امتدت ممتلكات الامبراطورية البيزنطية الى الشرق بالتدريج . ومن النتائج المباشرة لهذا الاصلاح الادارى العسكرى انشاء ثيم الجزيرة Mesopotamia سنة ٩٠٠م . ولقد حددت الادارة الامبراطورية حدود هذا الثيم لتشمل اقليم تكيس Tekis الارمينى الذى كان تابعا للامير الارمينى

مانويل *Manuel* والذي كان خاضعا للنفوذ الاسلامى فى الماضى ولقد نجحت الادارة الامبراطورية فى اقناع مانويل *Manual* بالتنازل عن هذا الاقليم للامبراطورية البيزنطية . ثم قامت الادارة البيزنطية بجعل هذا الاقليم وحدة ادارية عسكرية « كليزورا » *Kleirouta* ، ثم قام ليو السادس بتحويل هذه « الكليزورا » الى ثيم الجزيرة بعد أن ضم اليها « تورما كلتزين » *Tourma Keltzine* من ثيم خالديا *Chaldia* ، « وتورما كماخة » *Kamacha* من ثيم كولونيا *Kolonia* (١٧)

لاشك أن هذا التعديل الذى أدخله ليو السادس على التنظيم الادارى العسكرى فى الثيمات ، قد زاد من فاعلية دورها الدفاعى أمام أى اغارات إسلامية ، ولكن يجب الا ننسى أن تلك الثيمات الجديدة التى انشأها كانت قواعد هامة للتوسع فى المستقبل ليس فقط على حساب المسلمين بل أيضا على حساب الارمن . (١٨)

على أية حال بمجرد أنتهاء خطر البلغار وأطماع القيصر العظيم سيميون *Symeon* سنة ٩٢٦م ، انتهزت الادارة الامبراطورية فرصة الضعف الذى أصاب الخلافة العباسية وبدأت التوسع فى اتجاه الشرق على حساب جيرانها المسلمين . كان ذلك فى عهد الامبراطور رومانوس الاول ليكابينوس *Romanus I Lekapenus* . وعهد الامبراطور بالقيادة العسكرية العليا إلى القائد الارمينى الاصل يوحنا كوركواز *John Kourkouas* ، الذى كان يشغل منصب الدمستق *Domestikos ton scholon* والذى ظل يتولى القيادة

العسكرية لمدة اثنتين وعشرين عاما وسبعة اشهر . (١٩) وبفضل قيادته أخذت بيزنطة زمام المبادرة وهاجمت ثغور دار الاسلام بكل قوة

ففى سنة ٩٢٦/٩٢٧م هاجم الجيش البيزنطى بقيادة كوركواز ملطية ونجح فى اقتحامها حيث نهبها واحتلها لمدة ستة عشر يوما . (٢٠) وفى ٩٢٨/٩٢٩م أجبر البيزنطيون الامارات الاسلامية الصغيرة شبه المستقلة فى اخلاط *Khliat* وبدليس *Bitlis* على الخضوع للسيادة البيزنطية وأمام ضغط الجيوش البيزنطية لاذ سكان بلدة أرزن *Arzen* بالفرار . (٢١) ونتج عن هذا الفتح البيزنطى أن أصبح اقليم الجزيرة بصفة عامة ومنطقة دياربكر بصفة خاصة مكشوفة أمام البيزنطيين وأمام إحساس سكان منطقة الثغور بحجم الخطر البيزنطى ، أخذت الوفود القادمة من ملطية وغيرها من الثغور تتوافد على بغداد طلبا للمساعدة العسكريه من الخليفه العباسى دون جدوى (٢٢) فقد ولت أيام قوة الخلفاء وغيرتهم على الاسلام . ويبدو أن سكان منطقة الثغور الاسلامية كانوا فى حالة من الخوف والرعب لدرجة انهم أخذوا يعرضون على الادارة الامبراطورية دفع الجزيه لها

ويلاحظ أنه فى سنه ٩٣٠م نقضت ملطية ماسبق أن اعلنته من خضوع وتبعيه لبيزنطه ولما كان موقع ملطيه له أهميه أستراتيجيه كبيرة بالنسبه لأمن حدود الامبراطورية الشرقية ، لهذا اتجه اليها يوحنا كوركواز على رأس الجيش البيزنطى من جديد ، وأقتحمها وأستولى عليها ٩٣٠م. وبعد ذلك قامت الادارة الامبراطورية بضمها نهائيا الى الممتلكات الامبراطورية . (٢٣)

ويمكن القول أنه خلال عقدين من الزمان تقريباً (٩٢٦ ـ ٩٤٤م) استطاع القائد البيزنطي الكبير كسر حلقة التحصينات التي أقامها العرب المسلمون على حدود الامبراطورية الشرقية واتخذوها قواعد لاغاراتهم على آسيا الصغرى . واخذ يضم إلى الكيان الامبراطوري كل اقليم أو حصن يستولى عليه وبهذه العمليات الحربية كشف يوحنا كوركواز عن مدى الضعف والاضمحلال الذي تردى فيه الشرق الادنى الاسلامي .

إن البحث في أسباب اتجاه التوسع البيزنطي تجاه الشرق على حساب المسلمين في الفترة من ٩٢٦ ـ ٩٤٤م ومرة أخرى من ٩٦٠ ـ ٩٧٥م والانتصارات العسكرية التي حققتها بيزنطة في هذا الاتجاه ، لابد وأن يقودنا إلى طبقة الارستقراطية العسكرية والدور الذي لعبته والمعروف أن أسماء العائلات التي شكلت طبقة الارستقراطية العسكرية في الاناضول بدأت تظهر في المصادر البيزنطية منذ القرن التاسع الميلادي وفي القرن العاشر ازدهرت هذه الطبقة وأصبحت تشكل مركز قوة خطير داخل الامبراطورية .

ولكن قبل ظهور وازدهار طبقة الارستقراطية العسكرية ، وخلال الفترة الممتدة من نهاية القرن السابع وحتى الربع الاول من القرن العاشر الميلادي ، كانت هناك طبقة صغار المزارعين الاحرار ، وكانت هذه الطبقة هي الطبقة الرئيسية في آسيا الصغرى كما كانت موضع إهتمام الحكومة المركزية في القسطنطينية لسببين السبب الاول ، أن آسيا الصغرى كانت الاقليم الذي استمدت منه الادارة الامبراطورية معظم الضرائب الزراعية (التي

كانت تشكل المصدر الاول للدخل العلم فى الامبراطورية) التى كانت تدفعها مجتمعات صغار المزارعين الاحرار . والسبب الثانى ، لأن صغار المزارعين الاحرار كانوا يشكلون معظم جنودالفرق العسكرية فى ثيمات آسيا الصغرى ولهذا كان بقاء هؤلاء المزارعين الاحرار كطبقة له أهمية حيوية بالنسبة لمركز الامبراطورية المالى والعسكرى. (٢٤) ولكن الاخطار كانت تتهدد هؤلاء المزارعين البيزنطيين الاحرار من ثلاثة اتجاهات من جانب جباة الضرائب الامبراطوريه الذين لايعرفون الرحمه ، ومن جانب العرب المسلمين الذين اعتادوا الاغارة على حقولهم وقراهم فى آسيا الصغرى،واخيرا من جانب جيرانهم كبار الملاك وكان الخطر من جانب كبار الملاك دائما لانهم طمعوا فى الاستيلاء على أراضى صغارالمزارعين الاحرار بكل الطرق غير المشروعة ليزيدوا من مساحة ملكياتهم الزراعيه

لقد سبقت الاشارة إلى أنه فى سنه ٩٢٦م بدأ الجيش البيزنطى هجومه الكبير على الثغور الاسلاميه . ولقد استمر هذا الهجوم بشكل متقطع لمدة قرن من الزمان تقريبا تقدمت خلالها حدود الامبراطوريه الشرقيه مزيدا الى الشرق . ففى سنه ٩٣٤م استولت الامبراطوريه على ملطيه وتم ضمها إلى الكيان الامبراطورى . ولكن وفى نفس الوقت يلاحظ أن طبقه المزارعين الاحرار البيزنطيه تعرضت بشكل واضح لخطر الاضمحلال لأن اعتداء كبار الملاك على أراضى صغار المزارعين أخذ يتكرر ومن المرجح أن القانون الذى صدر فى الامبراطوريه سنه ٩٣٤م هو أول القوانين

التى أصدرها أباطرة بيزنطة فى القرن العاشر الميلادى بهدف حماية مجتمعات صغار المزارعين الاحرار وملكياتهم من اعتداء كبار الملاك. (٣٥) ومن المرجح أن صدور هذا القانون فى نفس العام الذى استولت فيه الجيوش البيزنطيه على ملطيه سنه ٩٣٤م لم يكن صدفه تاريخيه، بل كان الناتج الطبيعى لعدد من العوامل.

لقد سبق أن أوضحنا فى الفصل السابق كيف اضمحلت الطبقة الارستقراطية القديمة فى الامبراطوريه بسبب الظروف التى تعرضت لها فى القرنين السابع والثامن من الميلاد. (٣٦) كما بينا أن إعادة تنظيم اقاليم آسيا الصغرى على أساس ثيمات أدى إلى ظهور طبقه ارستقراطيه جديدة، ألا وهى الارستقراطيه العسكريه التى أكتملت ملامحها وازدهرت فى القرن العاشر الميلادى. فكيف حدث هذا؟

لا شك أن الظروف التى تعرضت لها آسيا الصغرى هى التى ساعدت على ظهور ونمو هذه الطبقه الارستقراطيه العسكريه. فقد زاد أعتماد السكان المحليين ـ سواء من قطن منهم المدن الصغيرة أو القرى الكثيرة المنتشرة فى آسيا الصغرى ـ على العسكريين فى الفترة ما بين القرنين السابع والعاشر من الميلاد. فسكان الريف كان عليهم الاعتماد على الضباط العسكريين فى ثيمات آسيا الصغرى من أجل الحمايه لانهم كانوا يتمركزون فى القلاع والاماكن الحصينة ويتولون عملية الانذار المبكر لسكان الريف من خطر إغارات العرب المسلمين.

كذلك يجب أن نلاحظ أن الاغارات العربية المستمرة على آسيا الصغرى سهلت زيادة مساحة الملكيات الزراعية فى أيدى هؤلاء الضباط العسكريين فى كل ثيم فانعدام الامن والامان يسبب إغارات العرب وقيامهم بالسلب والنهب والتخريب كان له تأثيرة على المجتمعات الزراعية بشكل اكثر حدة من تأثير ذلك على المجتمعات ذات الاقتصاد الرعوى (فى وسط هضبة الاناضول مثلا). (٢٧). ولاشك أن الضباط العسكريين المحليين (بعد أن استقروا بجنودهم فى الثيمات المختلفة)، وخاصة كبار الضباط فى كل ثيم، كانوا هم المجموعة الوحيدة التى كانت تستطيع حماية مصالحها فى ظل ظروف الاغارات العربية المستمرة وانعدام الأمن والامان فى اقاليم آسيا الصغرى وبالذات الاقاليم الشرقية لقد كانت تحت أيديهم الموارد الضرورية الوحيدة المتاحة فى ظل تلك الظروف، فضلا عن القوة العسكرية المطلوبة للدفاع عن المناطق التى تدخل فى نطاق ادراتهم المدنية والعسكرية

من الناحية النظرية، كانت الاراضى التى يهجرها أصحابها أو تلك التى يعجز مجتمع المزراعين الاحرار المقيم فيها عن دفع ضرائبها (بالتضامن) تنتقل ملكيتها إلى الحكومة البيزنطية حيث تسجل أما أرضا عامة للدولة أو أرضا تابعة للتاج. وفى ظل الظروف التى سادت ثيمات آسيا الصغرى فى القرنين السابع والثامن من الميلاد كانت حالات الاراضى التى هجرها أصحابها أو عجزوا عن دفع ضرائبها كثيرة. ومن المحتمل أن بعض تلك الاراضى وضعها أصحابها تحت حماية الضباط العسكريين قبل أن يتركوها فى النهاية

بسبب الافتقار الى الأمن أو العجز عن دفع الضرائب . فوضع العسكريون ايديم عليها وضموها إن ممتلكاتهم قبل أن يصل أى موظف من قبل الادارة المالية للحكومة البيزنطية ويسجلها أرضا مهجورة وتصبح ملكا للدولة ويجب الا ننسى أن تسجيل الاراضى من قبل الحكومة المركزية توقف لبعض الوقت فى ظل ظروف الغزو العربى المستمر وانقطاع الطرق ، هذا من ناحية .

ومن ناحية أخرى ، يمكن أن نفترض أن الاراضى التى كانت تقع على الطرق التى سلكتها الاغارات العربية ، أو تلك التى كانت هدفا لاغاراتهم كل عام ، اضطر اصحابها الى عرضها للبيع باثمان زهيدة واذا كان هذا كذلك ، فلا شك أن الضباط العسكريين انتهزوا هذه الفرص واشتروها رغم أن هذا محرم علي موظفى الدولة البيزنطية من الناحية النظرية . (٢٨) واذا كان هذا مجرد افتراض ، فالمرجح أن الضباط العسكريين المحليين امتلكوا من الموارد الكثير ، وكانوا يستطيعون فرض ارادتهم على جيرانهم من المزارعين الأحرار ذوى الملكيات الصغيرة ، الذين تعرضوا للكوارث وافتقروا الي القوة ومن المحتمل أن كبار الضباط العسكريين اهتموا فى ضياعهم الضخمة بالاقتصاد والرعوى اكثر من الاقتصاد الزراعى . لان الرعى كان — فى ظل ظروف القرنين السابع والثامن من الميلاد — استثمارا افضل . فتربية الماشية والاغنام كانت تحتاج الى ايدى عاملة أقل من الزراعة ، كما أنها كانت استثماراً أقل عرضة للخطر لان قطعان الماشية والاغنام كان من

السهل نقلها إلى أماكن آمنه بعيدا عن السو والمرجح أن الاقتصاد الرعوى كان هو السائد فى ثيمي قبدوقيا *Kappadocia* ، وخرشنة *Charsianon*.(٢٩) وهكذا يمكن القول أن اغارات العرب المسلمين على أقاليم أسيا الصغرى ساعدت على زيادة الاعتماد على الاقتصاد الرعوى ، وفي الوقت نفسه أعطت هذه الظروف الفرصة للقادة العسكريين المحليين ليقيموا الملكيات الزراعية الضخمة والضياع ، فازدادوا قوة وثراء ، وكونوا عائلات حملت أسمائهم سرعان ما برزت على السطح فى ثيمات آسيا الصغري فى القرن التاسع الميلادى . وهكذا كانت الظروف التى تعرضت لها أقاليم آسيا الصغرى فى الفترة المظلمة هى المسئولة عن هذا التطور .

على أية حال فى القرن العاشر الميلادى ساد هؤلاء العسكريون الارستقراط كل أنشطة المجتمع البيزنطى ولهذا فليس غريبا أن عدداً كبيراً من القوانين التى صدرت فى القرن العاشر الميلادى بما فيها ذلك القانون العنيف الذى اصدره الامبراطور باسيل الثانى ، استهدفت الحد من اطماعهم فى الارض والسلطات(٣٠). لقد أمتلكت عائلات مثل فوقاس *Phoka* ، ومالينوس *Malinos* ، ودوقاس *Dukas* ، ومليسنوس *Meli* ، وتزيمسكس *Tzimiskes* وكوركواز *Kourkouas* الخ ملكيات زراعية ورعوية ضخمة فى اسيا الصغرى وبالذات فى الثيمات الرئيسية التى كانت تشكل خط الدفاع الاول لحدود الامبراطورية الشرقية (٣١) ويلاحظ أن أبناء هذه العائلات الارستقراطية برزوا فى مناصب القيادة العسكرية حين ذكرتهم المصادر

البيزنطية المرة الاولى. (٣٢) وأستمروا فى مناصب القيادة العسكرية للجيوش البيزنطية طوال القرن العاشر الميلادى . فمثلا يمكن القول أنه منذ عهد الأمبراطور قسطنطين السابع *Const ntine VII Porphyrogenitus* (٩١٣-٩٥٩م) وحتى عهد الامبراطور باسيل الثانى (٩٧٦-١٠٢٥م) ، تولى أبناء عائلة فوقاس مناصب القيادة العليا للجيش البيزنطى فى الشرق، واحتكروا حكم ثيمى الاناضول *Anatolikon* وقبدوقيا *Coppadocia* .(٣٣)

والجدير بالذكر أنه عند الحديث عن الارستقراطية العسكرية ، فهناك ملاحظتان هامتان يجب التأكيد عليهما الاولى ، أن ولاء هؤلاء العسكريين للارستقراط لم يكن دائما لشخص الامبراطور ، إذ لم يخلصوا للتاج الامبراطورى بل أن عددا منهم ، فى سعيه لمزيد من القوة والسلطان ، حاول اغتصاب هذا التاج وفى القرن العاشر الميلادى ، نجح بالفعل أثنان من أبناء هذه الطبقة فى أغتصاب العرش الامبراطورى وهما نقفور فوقاس (٩٦٣-٩٦٩م) وتوحنا تزيمسكس *J hn Tzimisk s* (٩٠٩-٩٧٦م) .

أما الملاحظة الثانية ، فهى أن هذه العائلات الارستقراطية الكبيرة اذاوجب فيما بينها ، ونتج عن ذلك أن كل الخبرة والمهارة العسكرية البيزنطية ظلت محتكرة فى أطار أبناء هذه الطبقة . (٣٤) وبفضل التقاليد التى وضعوها أصبحوا يشكلون طائفة عسكرية استطاعت أن تسود كل آسيا الصغرى .

والجدير بالذكر أن هذا الجيش البيزنطى ازداد قوة وصلابة بفضل وجود قوة صغيرة جيدة التسليح

من الحرس الامبراطورى ، ثم تجنيد أفرادها من بين أشد الامم والشعوب التى تحيط بالحدود الامبراطورية ، وكانت الادارة الامبراطورية تدفع لافرادها اجورا مجزية. ومن بين العناصر التى ضمتها قوات الحرس الامبراطورى، كان هناك الشماليون من اسكندنافيا وروسيا (وكان من بين أسلحتهم المميزة البلطة ، ولهذا عرفوا بحاملى البلط) . ويلاحظ أن هذا العنصر أصبح بارزا ومفضلا منذ القرن العاشر الميلادى فى الحرس الامبراطورى. (٣٥) ولكن تظل الحقيقة باقية وهى أن فرق الصدام أو القوة الضاربة للجيش البيزنطى فى عصر التوسع ، كانت فرق الفرسان الثقيلة البيزنطية التى تكونت من سكان الامبراطورية . وكان الفرد منها يلبس هو وحصانه الزرد أو الجلد . وكانت الاسلحة الهجومية هى الرمح ، السيف أو قضيب حديدى لكسر الدروع ، والقوس وكان الفارس يعيش من إنتاج عقاره الزراعى الممنوح له (فى ظل نظام المنح ممنوع التصرف فيها *Stratiotika Ktemata*) أو المملوك له ملكية كاملة . وكان أقرباؤه أو والديه يقومون بزراعة هذا العقار الزراعى له ، ومن عائده يقوم والديه بامدادة بالحصان والسلاح (٣٦). أما هو (الفارس) فكان باستمرار يتدرب فى فصيلة تضم أصدقائه وجيرانه من نفس البلدة أو المنطقة ، وكان الفارس يعرف ضباطه المحليون جيداً وبلا تكلف .

وليس هناك شك فى أن الانجازات العسكرية العظيمة التى تمت فى عصر

التوسع والفتح كانت النتيجة الطبيعية لاداء عسكرى ممتاز قام به أولئك العسكريون الارستقراط . لقد اعتمد نجاحهم على سياسة محددة وعلى قواعد دقيقة للنظام العسكرى أهتمت أساسا بالتدريب وبرفع الروح المعنوية للجند . ويمكن القول أن أحد المظاهر الواضحة فى تاريخ الاسرة المقدونية ، كان المحاولات المستمرة من قبل طبقة الارستقراطية العسكرية لاحتضان وتفضيل الجندى الوطنى المقاتل فى الجيش المرابط فى كل أقليم وتميزه هو وأقرانه كصفوة مميزة بين سكان الريف ، رغم المعارضة المستمرة من قبل الحكومة المركزية فى العاصمة . ولقد توقف التوفيق الذى ميز عصر التوسع على نجاح هذه السياسة . ويمكن القول أنه كلما كان الامبراطور قادرا على السيطرة على طبقة الارستقراطية العسكرية ، أو على استرضائها على الاقل ، كلما كان تحت أمره من اجل التوسع والفتح قوة عسكرية يمكن وصفها بانها كانت أعظم من أى جيش آخر فى ذلك الوقت سواء بالنسبة للتدريب العسكرى او الحالة المعنوية .

ويتضح هذا كله من الفقرة التالية التى اقتبسناها من المصدر العسكرى الهام المعروف باسم « حرب المناوشات [illegible] الامبراطور » *[illegible] [illegible]atione Bellica Nicephori Augusti* وهو مصدر هام أهتم بشكل رئيسى وبالتفصيل بالاستراتيجية البيزنطية الدفاعية على الجبهة الشرقية ، فى مواجهة الإغارات العربية السنوية [illegible] كاتب هذا المصدر العسكرى مجهول الا أنه من المرجح أن الامبراطور نقفور فوقاس ،

الذي اغتصب العرش من سنة ٩٦٣-٩٦٩م ، هو الذى أمر بتأليفه . (٣٧) وهذا المصدر يعكس بلا شك الأحوال السياسية والعسكرية فى الامبراطورية البيزنطية حوال منتصف القرن العاشر الميلادى وإن الفقرة التالية التى اقتبساها منه تظهر فى شكل أمر عسكرى أرسله الامبراطور نقفور فوقاس إلى حكام الثيمات وهى تعبر عن افكاره وأفكار طبقة الاستقراطية العسكرية التى يمثلها :

« (أيها القائد) انى أصدر اليك أمرا بأن يتلقى جنودك رواتبهم دون أى تأخير فضلا عن منح مالية اضافية أخرى ، فوق كل مايقضى به القانون والعرف ، حتى يتمكنوا ـ بلا أى إرتباك مالى ـ من شراء أفضل الخيل لانفسهم فضلا عن بقية اسلحتهم بنفس المستوى وهكذا يمكنهم ، وهم فى أكمل حالة معنوية ، أن يجازفوا بحياتهم بشجاعة وسعادة من أجل اباطرتنا المقدسين ومن أجل كل مجتمعنا المسيحى . إن اكثر الاشياء أهمية والحاحا من أجل ضمان شجاعتهم ، هو أن تكون عائلاتهم واتباعهم الاخرين معفيين جميعا من الضرائب ، وهذا الامتياز تم منحه وحفظه له منذ البداية ، وانك ستجد هذا شيئا اكدة الاباطرة المقدسين المباركين فى الازمنة الماضية، وكتبوه فى مؤلفاتهم العسكرية اكثر من هذا ، فبالاضافة الى مثل هذه الاعفاءات فان الجنود يجب أن يتلقوا حقهم من الاحترام بلا أى إزدراء او إحتقار . وإننى لاشعر بالخجل وانا اقول لك إننى اعلم ان هؤلاء الرجال يتم جلدهم أحيانا . إن هؤلاء الابطال الذين يقدمون حياتهم من اجل اباطرتنا المقدسين

وفى سبيل الحرية ومن أجل الدفاع عن المسيحيين ، إن هؤلاء الرجال .. وأنا اكرر القول - يتم جلدهم بنذالة على يد جماعة من جباة الضرائب السفلة الذين لايسهمون بشىء من أجل الصالح العام ، بل يضطهدون الفقير ببساطة ويظلمونه . ومن دماء الكثيرين من الرجال الفقراء ، يكدسون الذهب لانفسهم بالمئة رطل ظلما وعدوانا ايها القائد يجب الا يتعرض جنودك لهذا ، وألا يقعوا تحت رحمة السلطة المدنية فى الاقاليم ،فلا يتم القبض عليهم او جلدهم مثل العبيد ، ولايثقلوا بالقيود والاطواق الحديدة ، فان هؤلاء الجنود هم الابطال ، وبفضل الله هم منقذى ومخلصى العالم المسيحى. وإن القانون نفسه ينص بوضوح على ان يكون كل ضابط سيد جنده ، وأن يكون هو نفسه قاضيهم . من يكون إذا سيد جند الاقليم إلا حاكم الإقليم العسكرى فاذا إسترد جيش إباطرتنا المقدسين مكانته القديمة ، وإذا تمت إزالة كل الوان القسوة التى إصابته بالفاقة ، فان روحة المعنوية وحماسته ستتجدد بفضل راحة البال وعلي هذا فانه سيقاتل بشجاعة وتصميم ويصبح جيشا لايقهر وبهذا يتمكن اباطرتنا المقدسين من الدفاع عن ممتلكاتهم ، بل أكثر من هذا يصبح فى إمكانهم اخضاع أى مساحة من اقاليم العدو » . (٣٨)

لاشك أن هذا النص يعتبر من النصوص الهامة التى تلقى الضوء على التاريخ الاجتماعى للامبراطورية البيزنطية فى القرن العاشر . فهو يصور بوضوح تصميم العسكريين الارستقراط علي رفع ضباطهم وجنودهم إلى طبقة اجتماعية

متميزة . وإن عصر التوسع ليدين لنجاح وتطبيق هذه السياسة خلال فترة زمنية أستمرت مائة وخمسين عاما .

وان هذا النص الهام يقودنا الى مزيد من التأمل لهذا المصدر (حرب المناوشات *De Velitatione Bellica*) العسكرى الهام وكما سبق أن اوضحنا اهتم مؤلف هذا الكتاب بالاستراتيجية الدفاعية الامبراطورية على حدودها الشرقية ، وتكتيك التصدى للاغارات الاسلامية فى عمق آسيا الصغرى . ولاشك أنه مامن باحث يرغب فى فهم فن الحرب والقتال البيزنطى فى القرن العاشر الميلادى يستطيع أن يهمل دراسة هذا المصدر الهام . والجدير بالذكر أن فقرات عديدة من هذا المصدر (خاصة فى الجزء الاخير منه) تم نقلها مباشرة من كتاب فن الحرب والقتال *Taktika* الذى كتبه الامبراطور ليو السادس (العاقل) سنة ٩٠٣م ، (٣٩) وهناك اشارات صريحة الى هذا فى كتاب « حرب المناوشات » . ويلاحظ أن الفرق بين الكتابين يظهر واضحا . فكتاب الامبراطور ليو السادس كتبه رجل مدنى ، بينما كان كاتب ذلك المصدر الذى ينسب الى نقفور فوقاس ضابط عسكرى إن مؤلف كتاب « حرب المناوشات » يعرف من البداية ماذا يقول بدقة ، فهو يدخل فى التفاصيل العسكرية الخاصة بمواقع القوات وتموينها ، وكيفية نجدة القوات المتقدمة ، فضلا عن تركيزه على التدريب والنظام واهتمامه الدقيق بكل التفصيلات التى نتوقعها من أفضل نموذج لضابط الجيش . كذلك يلاحظ إصرار المؤلف على أن الضابط عليه أن يقود قواته ويعتنى بجنوده . (٤٠) فالقائد عليه قيادة

رجاله فى ميدان الحرب ، وعلى القائد العام فى ساعة الهزيمة الا يكون أول من يسعى إلى الهرب بل عليه الانتظار حتى يتأكد أن رجاله قد انسحبوا فى آمان .

كانت مثل هذه المبادىء الهامة وراء الانتصارات الهامة لنقفورقوقاس ويوحنا تزيمسكس وكان عدم الاخذ بها وراء ذلك الاداء الفاشل لضباط الجيش البيزنطى فى اكثر من هزيمة عسكرية وقعت خلال حرب بيزنطة ضد سيميون Symeon قيصر بلغاريا فى الحرب التى دارت بين عامى ٩١٣-٩٢٠م. ففى تلك الحرب البلغارية نجد أن كبار ضباط الجيش البيزنطى كانوا أول من أداروا ظهورهم وولوا الادبار - حين كانت الهزيمة توشك أن تقع - وتركوا رجالهم فى الميدان يواجهون الموت ، بدلا من البقاء فى أرض المعركة لاصدار القرارات التى كان فى الامكان أن يؤدى بعضها الى تحويل الهزيمة الى نصر إن تأمل ماحدث فى هذه الحرب البلغارية فى الربع الاول من القرن العاشر الميلادى ، يجعل الباحث يدرك المعانى الهامة التى وردت فى كتاب « حرب المناوشات » (٤١) ان النص الذى اقتبسناه من ذلك الكتاب ، يصور لنا بوضوح التقليد الهام الذى ساد عائلات طبقة الارستقراطية العسكرية فى آسيا الصغرى والذى اهتم واعتنى عناية خاصة بالجندى المقاتل لقد كانت نتائج هذا التقليد الجديد عظيمة . فمثلا فى جزيرة كريت سنة ٦١ م حين كان نقفور فوقاس — بصفته القائد العام للجيش البيزنطى فى الشرق Domestikos tes Anatoles (بعد ذلك بعامين سيغتصب العرش) — يقود الجيش لاسترداد الجزيرة ، اخذ يحث جنوده وضباطه على الصمود والقتال

من أجل السيد المسيح ومن أجل المسيحية ، وكان رد جنوده وضباطه :
« أننا سنطيع أوامرك ونصيحتك ، ومعك سنظل حتى الموت » . (٤٢)
مثل آخر ، حين حلت الهزيمة بالجيش البيزنطى عند اخليو *Achelous* فى
٢٠ من أغسطس سنة ٩١٧م (على يد القيصر سيميون البلغارى)هرب القائد
ليو فوقاس (القائد العام للجيش البيزنطى *Domestikos ton* Scholon) إلى
ميزمبريا *Mesembria* بدلا من الصمود على رأس جنوده حتى الموت . (٤٣)
لقد اقترف هذا القائد الجريمة الكبرى التى نهت عنها ، بعد ذلك بحوالى
نصف قرن ، أوامر وتوجيهات نقفور فوقاس . إن شجاعة وبسالة القائد فى
الميدان شيء يثير حماس الجند ، لقد تعلم البيزنطيون من تجربة الحرب
البلغارية دروسا هامة

على أية حال يوجد المزيد من قواعد النظام العسكرى الدقيق فى مصدر
عسكرى آخر ، كتبه كاتب مجهول آخر بعنوان De Re Militari وهو
يرجع الى نفس العصر . وفى هذا الكتاب يهتم مؤلفة المجهول بمسائل عسكرية
لها اهميتها مثل إقامة المعسكرات ، والتفتيش المستمر على حالة الخيل والاسلحة
قبل أن يبدأ الامبراطور حملة عسكرية هجومية أو قبل أن يخرج للدفاع عن
أحد أقاليمه (٤٤) . كذلك يقدم هذ المصدر نصائح هامة بخصوص تموين
الجند بالمؤن ، وكيفية الصمود فى مواجهة حصار العدو . (٤٥)

والجدير بالذكر أن نفس هذه القواعد الخاصة بالنظام العسكرى التى

وضعها وسنها نقفور فوقاس ، قام بالدفاع عنها وأكد أهميتها ضابط بيزنطى آخر بعد ذلك بقرن من الزمان تقريبا . ان هذا الضابط ، الذى ينتمى لنفس طبقة الارستقراطية العسكرية ويعتبر خير مثل للضابط المثالى الذى وهب حياته للجندية وخرج من كل هذا بخبرة عسكرية عظيمة ، هو ككومنوس *Keka menos* . (٤٦) ومع أن ككومنوس كتب مؤلفه عن فن الحرب والقتال الذى يعرف باسم *Strategicon* فى النصف الثانى من القرن الحادى عشر الميلادى ، حين كانت الامبراطورية فى طريق الانهيار ، الا أن التقاليد العسكرية السابقة كانت لاتزال موجودة . وفى هذا الكتاب يذكر ككومنوس أن الضابط لا يمكن ان يكون ضابطا نابها اذا كان يجلد رجاله بلا تمييز ، أو اذا كان يحابيهم بلا تمييز أيضا ، لان ما يريده الجندى العادى هو العدل . لهذا يجب أن تكون ترقية الجنود والضباط قائمة على أساس الجدارة والاستحقاق ، لان الجندى إذا أظهر بسالة فى ميدان القتال ولاحظ أنه لم يكافأ بترقية وكان نصيبه الاهمال ، فان روحه المعنوية ستضعف ان مثل هذه المبادىء قد تكون اولية ومسلم بها ، ولكن تأكيد ككومنوس عليها وتكراره لها يبين ان هذه المبادىء التى كانت وراء انتصارات الامبراطورية فى عصر التوسع ، أصبحت فى أيامه (النصف الثانى من القرن الحادى عشر) تواجه خطر عدم الاكتراث بها

إن الفقرة التالية مقتبسة من كتاب فن الحرب والقتال الذى كتبه ككومنوس وهى تبين بوضوح كيف أن ضباط الجيش البيزنطى كانوا

متمرسين ومحنكين ويعرفون واجبهم جيدا

« يجب أن تنبه على جنودك أن تكون لديهم أفضل الجياد ، والسلاح الكامل ، وأن يكون سلاحهم موضع عناية ونظافة ، وأن يكون على جيادهم احزمة سروج مناسبة ، وأن تكون أحذيتهم أيضا مناسبة . فلك أن تتأكد من أنه اذا كان لدى الجندى جواد جيد ، وعليه زى انيق ، ومعه أسلحة جيدة، فانه اذا كان شجاعاً فان شجاعته ستتضاعف، واذا كان هيابا وجلا فانه سيكتسب الشجاعة ويؤدى دوره ولكن اذا كان الجندى غير مهندم وسرج جواده كبير وغير مناسب ، وحذاءه واسع غير ملائم ، وحصانه سيء لا يصلح لشيء ، فلك أن تتأكد أيضا من أنه مهما كان شجاعا فانه لن يفكر فى شيء سوى كيف يؤمن سلامته بالهرب بمجرد ان تسنح له الفرصة »(٤٧)

ويصور انا ككومنوس فى الفقرة التالية ، التى نقتبسها ايضا من كتابه عن فن الحرب والقتال ، القيمة والاهمية التى أعطتها طبقة العسكرين الارستقراط لمقامهم وشرفهم

«لاتنغمس فى العادات المدنية ، فانك لاتستطيع ان تكون ضابطا فى الجيش وانسانا هزليا فى نفس الوقت . فاذا تصرف بعض الضباط بهذا الشكل فان هذا لشيء معيب وشائن ومخالف لطبيعة وشرف الطبقة التى ينتمون اليها . ان الذى يثرثر ويمازح بحمق فان الناس ستنتقده وتحتقره لانه مهرج احمق . فاذا تصرف اى مدنى بحمق وبلاهه فلن يعرفه او يهتم به احد ، اما اذا تصرفت انت ايها الضابط تصرفا معيبا ، فانك تشين وتهين نفسك مهما كان

تصرفك يبدو عاديا او الخطأ فيه طفيفا ، لان كل واحد سيسمع به . وانى اقدم لك مثالا كان باسيل بدياديتيس *Basil Pediaditis* قائدا عاما للقوات البيزنطية فى صقلية ، وفى بعض الأيام التى كان العمل فيها رتيبا وبطيئا ، اعتاد هذا القائد ان يلعب الطاولة وبلغت هذه الاخبار الامبراطور (قسطنطين التاسع مونوماخوس ، ١٠٤٢ ـ ١٠٥٥م) الذى كتب له قائلا : إن جلالتنا ليود أن يهنئك على انتصاراتك فى لعبة الطاولة ، الا ترى ! لقد نسى الامبراطور خدماته العظيمة وتذكر له الخطأ البسيط .(٤٨)

وفى الفقرة التالية والاخيرة التى ننقلها من كتاب ككومنوس يقدم الكاتب نصيحة حكيمة للامبراطور الكسيوس كومنين (١٠٨١-١١١٨م). وفيها يؤكد ككاومنوس إصرار طبقة الارستقراطيه العسكريه على تفوق وسمو الجندى الوطنى البيزنطى فوق اى نوع من الجند المرتزقة مهما كانت شجاعتهم ومهما ارتفع أجرهم

« لاتحاول ترقيه الاجانب الى الرتب العليا او مناصب القيادة الا اذا كانوا ينتمون الى أصول ماكيه فى بلادهم الأصليه . لانك اذا فعلت غير ذلك فتأكد انك تضر بنفسك وبضباطك البيزنطيين . وتأكد أنك اذا رفعت انسانا اجنبيا لاقيمة له الى رتبة قائد كتيبه أو قائد عام ، فماهى الرتب والمناصب التى تبقى لضباطك البيزنطين ؟ انك بهذا العمل تكتسب كراهية ضباطك فقط كذلك فحين يسمع أهل البلد البعيد الذى جاء منه الرجل

الاجنبى أن هذا الرجل تمت ترقيته على أيدينا، فانهم سيضحكون ويقولون: لقد كنا نظن أن هذا الرجل لاقيمة له ولا يعتد به حين كان هنا معنا ، ولكن أنظر ، لقد ذهب الى الامبراطوريه البيزنطيه وحصل على تلك الوظيفة وهذه الرتبة . إنه من الواضح أن الامبراطورية لا يوجد فيها من بين اهلها جنود أكفاء ، لذلك تمت ترقيه ذلك الرجل الاجنبى ، على اية حال ، لم يرفع الاباطرة فى الأيام الماضيه (يقصد أيام الامبراطور باسيل الثانى ٩٧٦-١٠٢٥م) من قدر فرنجى أو نورمانى أو منحود رتبه قائد منطقه او قائد عام. أقصى ما كان يحدث فى النادر جدا هو أن يجعلوه ضابطا صغيرا . أما بقيه الاجانب المرتزقه فكانت تعمل من أجل قوت يومها وكسائها » (٤٩)

على أيه حال ، فى ظل مثل تلك الوصايا والتقاليد العسكريه ، قام قادة الجيش البيزنطى من ابناء طبقه الاستقراطيه العسكريه - الذين حظوا بحب وتملق واحترام رجالهم - بتدريب سلاح فرسانهم الذى لا يقهر ومن المرجح ان الاصلاح قد امتد الى تكتيك سلاح الفرسان ، ويرجع الفضل فى ذلك الى العبقريه العسكريه للامبراطور نقفور فوقاس وإن كان وصف هذا التكتيك يجب إن ننسبه إلى اعظم قواد الامبراطو رباسيل الثانى ، الا وهو القائد نقفور الاورانوس *Nikephorus Ouranos* ويقع هذا الوصف فى فصل صغير لمؤلف عن فن الحرب والقتال اما عنوان هذا الفصل فهو « عن الفرسان الثقيلة *Cataphracts* » (٥٠)

ويلاحظ أنه فى هذا الاصلاح الذى تم إدخاله على تكتيك سلاح الفرسان كانت القوة الضاربة المدمرة للفرسان الثقيلة تنظم وترتب على شكل مثلث وليست فى تشكيل الكتائب التقليدى . وكان الصف الأول من تشكيل المثلث يتكون من عشرين من الفرسان الثقيلة فى صف واحد ، وفى الصف التالى كان يصطف أربعة وعشرين ، وهكذا حتى نصل الى الصف الأخير والذى يتكون من حوالى أربعة وستين من الفرسان الثقيلة جنبا الى جنب . وكان التشكيل الكلى يضم فى أحسن الأحوال خمسمائة فارس . أما اذا كان القائد لا يوجد تحت أمرته مثل هذا العدد من خيرة الفرسان الثقيلة المدربة ، فانه كان يكتفى بعمل تشكيل مكون من ثلاثمائة وأربعة وثمانين . كيفما كان الامر ، كان الفرسان ينظمون فى صفوف ، وكل صف يلى الآخر فى اتجاه المؤخرة يزداد عرضه بأربعة فرسان عن الصف الذى أمامه . وكان هذا التشكيل بهذا النظام يتقدم فى المعركة ككل تجاه هدف واحد ، هو قلب تشكيل العدو ، وكان تقدمه يتم والخيل تعدو عدوا منتظما . وكان يقود هذا التشكيل ويتقدمة فى الامام ، ضابط رفيع الرتبة. وبلا شك كان هذا هو المركز الذى شغله الامبراطور يوحنا تزيمسكس فى هجومه الاخير على الروس فى موقعة سيليستريا *Silistria* فى يوليو ٩٧١م.

وجدير بالذكر أن واحداً من أهم خصائص هذه الفرقة المثلثة من الفرسان الثقيلة هو رمايتها للسهام على العدو ، كما يتضح من الفقرة التالية المقتبسة من الفصل الخاص بالفرسان الثقيلة :

« يجب أن تدرك أنه لابد من وضع رماة سهام (نبالة) بين صفوف الفرسان الثقيلة ، حتى يتمكن الفرسان من حمايتهم . أما الصفوف الاربعة الاولى من تشكيل الفرسان الثقيلة ، فيجب الا تضم فيما بينها رماة سهام ، ولكن من الصف الخامس وحتى المؤخرة يجب وضع عدد مناسب من رماة السهام . فاذا كان عدد فرقة الفرسان يتكون من خمسمائة فارس فان هذا التشكيل يجب أن يضم مائة وخمسين من رماة السهام . أما اذا كان التشكيل يتكون من ثلاثمائه (أربعة وثمانين) ، فانه يجب أن يضم ثمانين من رماة السهام ».(٥٠)

أما بالنسبة للفارس المدرع نفسه ، فانه كان يرتدى ثلاث قطع من الملابس هى قميص مبطن ، زرد له اكتاف ، وعباءة عسكرية خارجية لها أكمام وغطاء رأس كذلك كان الفارس يلبس خوذة من حديد سميكة ، ولما كان وجه الفارس يغطى ويلف بقطعة من القماش ، فلا يبدو منه سوى عينيه . بالنسبة للاسلحة الهجومية الرئيسية التى يحملها فرسان الصفوف الأربعة الاولى فهى عبارة عن قضبان حديدية لكسر الدروع لها رؤوس مدبية ، فضلا عن السيوف . وبالنسبة لأسلحة فرسان الصفوف من الخامس وحتى الصف الاخير فهى عبارة عن الرماح .

أما الحصان الذى يركبه الفارس ، فيجب أن يكون كبير الحجم لانه بالاضافة إلى قيامة بحمل الفارس بثقله وأسلحته ، فان الحصان نفسه يجب أن يكون مغطى بلباد أوجلد عليه زرد . ويجب ان يغطى الجلد والزرد رأس الحصان وكل جسمه حتى الركبتين بحيث لا يظهر من الحصان أى شىء سوي

عيناه وفتحات انفه وساقيه من الركبتين وحتى نهاية الساقين . (٥٢)

ﮩ ﮩ ﮩ

بالنسبة لرماة السهام ، الذين يشكلون مربعا بين صفوف تشكيل الفرسان المثلث ، فملابسهم يمكن ان تكون أقل ثقلا ويكفى كل واحد منهم أن يضع خوذة على رأسه ويحمل درعا لوقايته . وحتى بالنسبة لهم (رماة السهام) كان من الافضل ان تغطى جيادهم بالزرد مثل خيل الفرسان .

إن مثل هذه القوة العسكرية التى تدربت حتى الكمال وكرست نفسها لقادتها كانت تتمتع بروح معنوية مرتفعة أيضا لقد كان من الصعب الوقوف أمامها او مقاومتها وإنه لمن السهل علينا أن ندرك كيف ان قدرة وفاعلية مثل هذه القوة كان يمكن أن يسيطر عليها ويوجهها امبراطور يفهم ويؤمن تماما بفن الحرب والقتال . ولكن مثل هذه القوة الضاربة كانت تكلف الكثير من المال . فتدريب واعداد هذه القوة الضاربة بزيها وأسلحتها كانت تكلفتها باهظة الثمن لقد كان الامبراطور نقفور فوقاس يرى ان المواطنين البيزنطيين يجب ان يدفعوا تكلفتها (٥٣) اما الامبراطور باسيل الثاني فقد أصر ان يقوم الارستقراطيين الاثرياء بدفع تكلفتها (٥٤) ولكن ما ان توفى الامبراطور باسيل الثانى (١٠٢٥م) وتركت يده الفولاذية دفة الادارة والحكم حتى تلاه على العرش الامبراطورى عدد من الاباطرة الخاملين المرفهين . ولقد اعتقد هؤلاء ان هناك اشياء اخرى افضل تستحق ان ينفق عليها ببذخ بدلا من الانفاق على هذه القوة العسكرية الضاربة من الفرسان الثقيلة وربما كانت هناك اشياء اخرى حقا ، ولكنهم تمادوا

فى هذا الاتجاه وتطرفوا ، وكانت النتيجة أن الامبراطورية بعد أقل من خمسين عاما من وفاة باسيل الثانى كانت عاجزة عن الدفاع عن نفسها فى وقت كانت اشد ماتكون فيه حاجة إلى الدفاع

والجدير بالذكر أنه اذا كانت المشكلة الاولى التى واجهت هذا التنظيم العسكرى هى تكلفته ، فان المشكلة الرئيسية الثانية التى واجهته هى نقص الرجال. ومن المعروف أن آسيا الصغرى كانت تعانى باستمرار من النقص فى أعداد السكان وإن أسباب ذلك عديدة ، أهمها الحروب التى تعرضت لها الامبراطورية والتخريب الذى أصاب اراضيها نتيجة لذلك ، ومنها كذلك إزدياد أعداد الرهبان والراهبات الذين وهبوا حياتهم للحياة الديرية وكانت حقوقهم موضع رعاية ولكن يلاحظ ان فتوحات القائد يوحنا كوركواز John Kourkouas ضد المسلمين فى الربع الثانى من القرن العاشر الميلادى ، ساعد ، على إمداد أقاليم الامبراطورية الشرقية فى آسيا الصغرى بعناصر أرمينية وعربية . ومن المعروف كذلك ان الامبراطور باسيل الثانى جند العديد من أسرى البلغار فى صفوف قوات جيشه . ولكن يجب الا ننسى أن هؤلاء لم يكونوا امرتزقة اجانب ولكنهم كانوا مواطنين بيزنطيين ولقد ساعد تجنيدهم بعد تهجيرهم على ملاء بعض الفراغ فى صفوف الجيش البيزنطى .

لقد استطاع الاباطرة البيزنطيون تحقيق انتصارات حاسمة فى عصر التوسع ، وبفضل هذه القوة العسكرية الضاربة من الفرسان كان لهم التفوق

العسكرى فى كل معركة خاضوها . وإن أعلى درجة من الشجاعة والخبرة العسكرية لتشكيلات الفرسان الثقيلة يتضح بالتأكيد فى الحملة العسكرية البارعة التى قام بها الامبراطور يوحنا تزيمسكس ضد الشماليين الروس ، الذين قاموا بغزو بلغاريا وكانوا خطرا كبيرا هدد القسطنطينية . نفسها ان ما فعله الامبراطور يوحنا تزيمسكس سنة ٩٧٠م هو انه تصدى لهم وأجبرهم على الانسحاب الى سيليستريا *Silistria* الواقعة على نهـر الدانوب ، ثم تتعبهـم وأجبرهم على مواجهته ، وهناك الحق بهم هزيمة ساحقـة فى ست معارك منفصلة ان الفقرة التالية مقتبسة من المؤرخ البيزنطى المعاصر ليو الشماس *Leo the Deacon* ، وفيها يصف لنا ليو المعركة الاولى بين الامبراطور تزيمسكس والروس ، ويلاحظ فيها الدور الذى لعبه الفرسان الثقيلة ، التى اعتقد البيزنطيون أنها قوة عسكرية ضاربة تفـوق أى قوة عسكـرية من المشاة مهما كانت شجاعتها . وجـدير بالذكر أن الروس كانوا يقـاتلون بالمشاة فقط . ويقدم المؤرخ المعاصر ليو الشماس الوصف التالى للمعركة الاولى :

« فى الاشتباكات الاولى لم يتغلب أى الجانبين لقد أحس الروس بدقة الموقف فالموقف لايحتمل الهزيمة فى هذه المعركة شكل مخزى أمام البيزنطيين ، خاصة وأنهم (أى الروس) احتفظوا أمام جيرانهم بسجل حافل بانتصارات وبلا هزيمة واحدة ، لهذا فقد قاتلوا بمنتهى الشجاعة أما عن البيزنطين فقد اعتقدوا أنه لعار مشين أن يسمحوا الآن لانفسهم بالهزيمة فى قتالهم ضد أمة من الجنود المشاة الذين لايستطيعون حتى ركوب الخيل ، خاصة وأنهم (أى البيزنطيون) انتصروا فى كل المعارك التى خاضوها ضد الامم المناوئة الاخرى حتى الآن . على أية حال ، لقد وثب الروس وهم يصيحون

بهمجية وتوحش كما لو كانت الأرواح الشريرة قد مستهم ، وهاجموا البيزنطيين الا أن البيزنطيين ثبتوا وقاتلوهم بفن عسكرى رفيع وتخطيط دقيق وكانت خسائر الجانبين كبيرة وحتى نهاية فترة الظهيرة كانت النتيجة غير معروفة ولكن حين اقبل المساء قام الامبراطور يوحنا تزيمسكس بهجومه الاخير بالفرسان الثقيلة على الروس ، وكان التأثير مدمراً لقد صرح الامبراطور فى فرسانه قائلا : انكم رومان ، والان اظهروا بأسكم وشجاعتكم بالعمل . وهكذا تشجع الفرسان واندفعوا بحماس لايقاوم وما أن دوت الابواق معلنة هجوم الفرسان الثقيلة ، حتى دوت صيحة القتال من جانب البيزنطيين ، ثم اهتز الروس وترنحوا ثم ولوا الادبار وكانت خسائرهم رهيبة ». (٥٥)

على أية حال ، تحدد المعركة السادسة والاخيرة بين الامبراطور يوحنا تزيمسكس والروس والتى وقعت فى سيايستريا *Silislria* فى يوليو سنة ٩٧١م ، ذروة الاداء العسكرى البيزنطى وقمة المهارة العسكرية فى عصر التوسع ففى هذه المعركة قامت تشكيلات الفرسان الثقيلة البيزنطية باثنتى عشرة هجمة على الروس الا أنها كانت غير حاسمة ، فقد استطاع الروس حملة البلط فى بسالة نادرة الصمود امامها بل وصدها . وأخيرا ـ وكما يروى لنا المؤرخ المعاصر ليو الشماس ـ بدأت الريح تهب من الجنوب وأثارت معها سحابة من التراب فى وجه الروس وأدرك الامبراطور يوحنا تزيمسكس أن اللحظة المناسبة قد حانت ، فقام بقيادة تشكيلات الفرسان الثقيلة بنفسه فى هجومها الثالث عشر على الروس ومن خلال العتمة والغبار سمع الروس

صوت حوافر لاحصر لها من الخيل وهى تضرب الارض كالطبل ، ثم رأوا أمامهم الامبراطور يوحنا تريمسكس فى دروعه المذهبة ، سيدالامبراطورية بنفسه يظهر امامهم ويتحرك بسرعة تجاههم ، فانهزموا هزيمة ساحقة وولوا الادبار بعد ان سقط منهم الكثيرين .(٥٦) وهكذا قضى الامبراطور نهائيا على خطر هؤلاء الشماليين الروس .

من الواضح أنه خلال القرن العاشر الميلادى،قام أبناء طبقة الارستقراطية العسكرية فى آسيا الصغرى بتدريب جند الثيمات والارتقاء بالفن العسكرى البيزنطى حتى درجة الكمال وكان من الطبيعى نتيجة لهذا كله أن تزداد قوة هذه الطبقة العسكرية وأن يحاول أبناؤها اغتصاب العرش البيزنطى ، وفي الفترة من سنة ٩٦٣ـ٩٧٥م نجحت الارستقراطية العسكرية فى اغتصاب التاج الامبراطورى كما سبقت الاشارة كان أول من اغتصب العرش هو نقفور أحد أقطاب اسرة ووقاس الاقطاعية الكبيرة ولقد تبعه على العرش مغتصب آخر من نفس الطبقة هو يوحنا تزيمسكس . لقد كان كلا من نقفور ويوناحنا ممثلين صادقين لطبقة الاقوياء dynatoi (وهو الاسم الذى كان يطلق على طبقة الارستقراطية العسكرية) ، وكان اعتلائها للعرش دليل على أهمية ونفوذ هذه الطبقة التى احدت تسود المجتمع البيزنطى فى القرن العاشر الميلادى . وهناك ملاحظة هامة جديرة بالاهتمام وهى أن السياسة الخارجية التى اتبعها نقفورفوقاس ويوحنا تزيمسكس تميزت فى المقام الاول بالاتجاه الشرقى ، وهناك ، وعبر حدود بيزنطة الشرقية حقق ابناء طبقة الارستقراطية العسكرية اعظم انتصارات الامبراطورية

وإن قيام أبناء طبقة الارستقراطية العسكرية ، الذين احتكروا قيادة الجيوش البيزنطية والذين نجحوا فى اغتصاب العرش البيزنطى بتوجيه فتوحاتهم نحو الشرق وعلى حساب دار الاسلام لظاهرة تثير التساؤلات حقيقة أن الادارة الامبراطورية لم تهمل الجبهة الشمالية ، بل أن الامبراطورين نقفور فوقاس ويوحنا تزيمسكس كثيرا ما تركا الشرق لمواجهة الاعمال العدوانية للبلغار والروس . ولكن يلاحظ أنه ما أن يتم التصدى للخطر الذى يتهدد الامبراطورية فى الجبهة الشمالية ، حتى يعود الاهتمام بالتوسع والفتح على حساب المسلمين . والسؤال الذى يفرض نفسه هنا : هل هناك خطة عدوانية من جانب الامبراطورية البيزنطية استهدفت فتح الشرق الادنى الاسلامى والنيل من الاسلام والمسلمين ؟ وهل يمكن اعتبار حملات نقفور فوقاس ويوحنا تزيمسكس مقدمات للعدوان الصليبي ضد الشرق الادنى الاسلامي ؟

لقد تعرض عدد من المؤرخين المحدثين لهذا الموضوع ، ويرى البعض أن هناك شواهد على الحماسة الدينية التى حثت البيزنطيين فى صراعهم ضد المسلمين فقد كان نقفور فوقاس متحمسا للغاية وبالنسبة له كانت الحرب ضد دار الاسلام مهمة مقدسة .(٥٧) .

ويرى البعض الآخر أنه على الرغم من أن الرأى العام فى بيزنطة لم يفرق بين الاستشهاد فى ساحة المعركة أثناء الدفاع عن الامبراطورية ضد العرب المسلمين أو ضد البلغار المسيحيين ، رغم أن الكنيسة البيزنطية لم تعط مثل

هذا الاستشهاد أية امتيازات ، فقد أعلن كل من نقفور فوقاس ويوحنا تزيمسكيس أن الصراع ضد المسلمين الآن هو صراع من أجل مجد المسيحية ولاسترداد الاماكن المقدسة ، ومن أجل القضاء على الاسلام والمسلمين . (٥٨)

لقد كشف نقفور فوقاس عن وجهه القبيح ودوافعه الحقيقية ، وأوضح الروح الصليبية التى اكتنفت حروبه ، فى رسالة مهينة ارسلها الى الخليفة العباسى المطيع قبل أن يبدأ حملة بسنة ٩٦٤م ضد المسلمين وكانت هذه الرسالة على شكل قصيدة نظمها على لسانه احد كتابه باللغة العربية ، وقد اشتهرت باسم القصيدة الارمينية . (٥٩) وفى هذه الرسالة ، خاطب نقفور الخليفة العباسى باعتباره رأس العالم الاسلامى ، وأمر المسلمين بالعودة الى أرض صنعاء والحجاز واخلاء الاقاليم التى سبق أن استولوا عليها من البيزنطيين. ولقد تباهى الامبراطور بالانتصارات التى حققتها الامبراطورية فى الفترة الاخيرة . واعلن نقفور عن عزمه على استرداد دمشق ، ومصر والجزيرة . وبين رغبته فى القيام بنشر الدين المسيحى فى مشارق الارض ومغاربها . كذلك اوضح رغبته الاكيده فى استرجاع بيت المقدس بل لقد هدد باخضاع مدينة مكة ، فأثار مشاعر المسلمين (٦٠)

ولقد استعمل يوحنا تزيمسكس لغة مشابهة . ففى رسالته التى تصف حملته الكبرى على الشام سنة ٩٧٥م ، والتى كتبها الى حليفه الملك الارمينى أشيوط الثالث اثبت الامبراطور أنه فى محاولته تحقيق هدفه النهائى الخاص باسترداد بيت المقدس من يد المسلمين ، قام بحملة صليبية . (٦١)

على أية حال ، رغم وجود سمات دينية واضحة فى حملات نقفور فوقاس ويوحنا تزيمسكس ، الا أنه من الخطأ وصف هذه الحروب بانها كانت حروبا دينية فقط . فهناك عاملان هامان يجب أن نأخذهما فى الاعتبار عند تقيم تلك الحروب .

العامل الاول : أن هذه الحروب كانت جزءاً من التوسع البيزنطى العام الذى ميز عصر الاسرة المقدونية والذى استهدف الارتقاء بالامبراطورية سياسيا وعسكريا . ولقد بلغت الامبراطورية بالفعل القمة فى عهد الامبراطور باسيل الثانى وحروبه المريرة ضد البلغار والتى انتهت بالاستيلاء على كل بلغاريا واسترداد الممتلكات البيزنطية فى شبه جزيرة البلقان كذلك يجب أن نتذكر هنا ماذكره الامبراطور نقفور فوقاس بعجرفة لليوتبراند Liutprand ، مبعوث الامبراطور الالمانى الى القسطنطينية ، حين قال له فى تكبر : « إن السيادة على البحار من شئونى » وهو قول فسرته الاستاذة هلين ارفيلر H. Ahrweiler على أنه يعنى بوضوح « أن السيادة على هـذا العالم من أختصاصى » (٦٢) . ولقد اكد هذا المعنى المؤرخ البيزنطى المعاصر ليو الشماس Leo the Deacon ، إذ بين أن الاتجاه العام للتوسع لانهاية له . فقد ذكر ليو أنه لو لم يقتل الامبراطور نقفور فوقاس فى سنة ٩٦٩م (فى مؤامرة اشتركت فيها زوجته ثيوفانو Theofhano وصديقه وخليفته يوحنا تزيمسكس) لكان فى إمكانه أن يدفع بجنود الامبراطورية شرقا حتى الهند ، وغربا نهاية العالم المسكون . (٦٣)

العامل الثانى : يجب أن نلاحظ أن قيام الامبراطورية البيزنطية بالإستيلاء

على اقاليم فى الشرق كانت فى أيدى المسلمين ، هو عمل قامت به طبقة الاقوياء *dynatoi* ـ وهو الإسم الذى اطلقه البيزنطيون على طبقة العسكريين الارستقراط - وهى الطبقة التى انجبت نقفور فوقاس ويوحنا تزيمسكس . إن اتجاه ابناء هذه الطبقة الهامة فى المجتمع البيزنطى شرقا من أجل الحصول على الارض ، بمجرد أن اصبح هذا الاتجاه مأمونا للاستثمار ، كان قويا . ويرى بعض المؤرخين أن السبب فى اتجاه العسكريين الارستقراط (الاقوياء) للاستثمار فى الاقطاعيات الزراعية يرجع الى انه كان مجال الاستثمار الوحيد المتاح امامهم لان مجالات التجارة والصناعة كانت من المجالات المقيدة (٦٤) على أية حال اصبحت هذه الارض الزراعية فى آسيا الصغرى جذابة للاستثمار بمجرد أن تخلصت آسيا الصغرى من خطر التعرض للاغارات العربية فى القرن العاشر الميلادى . فقبل القرن العاشر الميلادى ، كان الاستثمار فى مجال الارض الزراعية يختلف من مكان الى آخر حسب درجة الامن والامان الذى تتمتع به

كذلك يجب أن نلاحظ أن الملكيات الزراعية الضخمة التى كانت تشتمل على قصور ريفية فاخرة تحيط بها مبانى المزرعة الاخرى بالتأكيد هدفا رئيسيا للمغيرين على آسيا الصغرى الذين استهدفوا السلب والنهب السهل (٦٥) . وتجدر الاشارة إلى أن قواد من أمثال يوحنا كوركواز ، ونقفور فوقاس ، وبرداس فوقاس ، وايستاثيوس مالينوس Eustathios Maleines ، ويوحنا تزيمسكس ، وبرادس سكليروس Pardas Skleros وتقريبا كل اولئك القادة الذين قادوا الحرب ضد العرب المسلمين ، كانوا من سكان المناطق القريبة

من الحدود البيزنطية الاسلامية . فقد عاش هؤلاء القادة هم وعائلاتهم وامتلكوا الملكيات الزراعية الضخمة فى تلك الثيمات الرئيسية التى تقع الى الخلف من الحدود البيزنطية الشرقية مباشرة (٦٦) ولاشك أن ممتلكاتهم تعرضت للكوارث من جانب الاغارات العربية المتكررة كل عام فى القرن التاسع الميلادى وأوائل العاشر . فاذا كان المغيرون العرب قد دمروا قصورهم الريفية ، وهدموا مبانى مزارعهم ، وغنموا اقطعان ماشيتهم وتسببوا فى هرب وتشتت العاملين فى اقطاعياتهم الزراعية (سواء الاحرار منهم أو العبيد) ، فان أبناء هذه العائلات الارستقراطية لابد وأن يكون لديهم دافع شخصي دفين للاتجاه بالفتح والتوسع شرقا بهدف الانتقام من العرب والقضاء عليهم وتأمين ثرواتهم الزراعية .

إن هذه السياسة الخاصة بالتوسع فى اتجاه الشرق وعلى حساب المسلمين ، كانت تخدم مصلحة طبقة الارستقراطية العسكرية فى الصراع الاقتصادى الاجتماعى على الجبهة البيزنطية الداخلية . فكى تظل هذه الطبقة قوية سائدة كان لابد أن يظل اعتماد الادارة الامبراطورية عليها فى مجال الحرب لان أبناء هذه الطبقة هم قادة جيوش الامبراطورية فى آسيا الصغرى كما انهم احتكروا الخبرة العسكرية كما سبق أن أوضحنا وعلى هذا فاستمرار حالة الحرب يعنى استمرار الاعتماد عليهم والحاجة لهم ، وكى تظل هذه قوية متمتعة بنفس النفوذ كان لابد وأن تزداد ثروتها الزراعية بشكل منتظم وكان التوسع العسكرى شرقاً بالذات أحد وسائل زيادة الملكية الزراعية

لابنائها ، لانهم كانوا يستولون على اراضى كانت تجاور ملكياتهم على الجانب الآخر من الحدود .

على أية حال ، فى البداية كان الاتجاه شرقاً بهدف تأمين آسيا الصغرى من اغارات العرب المسلمين ولكن حين أدى النجاح الى مزيد من النجاح وحين تم تحقيق النصر ، اصبحت سياسة الامبراطورية البيزنطية فى عهد كل من نقفور فوقاس ويوحنا تزيمسكس اكثرعدوانا ، واصبحت الاهداف اكثر طموحاً . لقد اعطى الامبراطوران لحملاتهم الكبيرة ضد المسلمين سمة دينية ليلهبوا مشاعر رعاياهم ، ويبرروا التكاليف الباهظة لحملاتهم العسكرية التى استهدفت الاستيلاء على الشرق الادنى الاسلامى ، هذا إذا كان علينا أن نصدق كل ماورد فى رسالة الامبراطور البيزنطى الى الخليفة العباسى المطيع

كانت الخلافة العباسية ، كما سبقت الاشارة ، فى طور الضعف والاضمحلال ، وأدى انهيار السلطة المركزية للخلفاء العباسيين الى وقوف الشرق الادنى الاسلامى عاجزا أمام الحملات البيزنطية المدمرة خلال الفترة من ٩٦٠ ـ ٩٧٥م . ولقد ترك لنا الجغرافى العربى المعاصر ابن حوقل النصيبي (كتب مؤلفة حوالى سنة ٩٧٨ م)وصفا لم ترتب على الهجوم البيزنطى على شمال الشام والجزيرة . وقد أرجع ابن حوقل اسباب انتصار البيزنطيين على المسلمين الى انشغال هؤلاء فى خصوماتهم وحروبهم المحلية بدلا من تكوين جبهة اسلامية متحدة ضد العدو البيزنطي (٦٧) ورغم الضعف الذي

عم الشرق الادنى الاسلامي بسبب تفرق كلمة المسلمين الا أن المسلمين لم ينسوا مبدأ الجهاد في سبيل الله ، واننا نجد دعاة اهتموا بحث المسلمين على طرح خلافاتهم المحلية والجهاد في سبيل الله والدفاع عن ديار الاسلام ضد البيزنطيين . وكان من أبرز الشخصيات التي قامت بمجهود كبير في الدعوه للجهاد هو الخطيب والفقيه المعاصر ابن نباتة الفارقي ، الذي عمل على تقوية الروح المعنوية عند المسلمين وحثهم على الجهاد دون جدوى . (٦٨) اذ لم تفلح المحاولات التي بذلها ابن نباتة وامثاله من الدعاة الى الجهاد ، ولا الانتصارات التي احرزها البيزنطيون وتقدمهم في البلاد الاسلامية ، في ايجاد حركة رد فعل عامة أو يقظة تنتهي بتكوين جبهة إسلامية متحدة تجمع بين المسلمين في الشرق الادنى للجهاد ضد هذا الخطر البيزنطي ومواجهته . حقيقة أنه وجدت بعض الحالات التي تم فيها ارسال نجدات من بغداد لمساعدة المسلمين المحاربين في أقليم الجزيرة ضد البيزنطيين ، الا أن هذه المساعدات كانت محدودة ولم تستمر . وإن الاضطراب الذي ساد أحوال المسلمين السياسية في الشرق الادنى وانقسامهم الى عدد من الكيانات السياسية الصغيرة الضعيفة، وتصارعها مع بعضها في القرن العاشر الميلادي هو الذي يفسر النجاح الذي صادف التوسع البيزنطي من اتجاه الشرق .

على أية حال ، من الافضل الآن أن نلخص نتائج سياسة التوسع شرقاً على حساب المسلمين . في سنة ٩٦١م نجح نقفور فوقاس (وكان يشغل منصب القائد العام للقوات البيزنطية في الشرق) في استرجاع جزيرة كريت بعد أن ظلت تحت الحكم العربي لمدة مائة وخمس وثلاثين سنة (٦٩) . وفي العام

التالى قاد نقفور حملة أخرى على أقليم قليقية حيث استولى على عين زربة (٧٠)، ثم تقدم عبر جبال أمانوس الى شمال الشام وظهر فجأة أمام اسوار حلب وكان ظهوره مفاجأة اذهلت سيف الدولة الحمدانى أمير إمارة حلب الحمدانية، وترتب على ذلك سقوط حلب فى يد نقفور فوقاس وهروب سيف الدولة من المدينة التى وقعت فى قبضة البيزنطيين - باستثناء القلعة - لعدة أيام (٧١). انسحب نقفور بعد ذلك عائدا الى آسيا الصغرى دون أن يعترضه أحد. ويلاحظ أن الهجوم البيزنطى على حلب سنه ٩٦٢م يحدد نقطة تحول هامة فى الصراع البيزنطى العربى. منذ ذلك الوقت لم تعد المسألة هى ما اذا كان العرب يمكنهم القيام بهجوم مضاد أم لا بل أصبحت المسألة ببساطة: مامدى السرعة التى سيعود بها البيزنطيون، والى أى مدى سيتقدم الجيش البيزنطى شرقا وجنوبا، ويلاحظ ايضا انه بينما قام البيزنطيون بنهب مدينة حلب نفسها الا انهم لم يتعرضوا للحقول الزراعية المحيطة بها ويقال ان نقفور قال للمزارعين الذين يفلحون تلك الحقول:

«ازرعوا الارض إنها، أرضنا، وسنعود اليها عما قريب» (٧٢)

فى عام سنة ٩٦٣ م انشغل نقفور بتحقيق مطامعه فى العرش البيزنطى، فبعد وفاة الامبراطور رومانوس الثانى *Romanus II*، وفى ١٦ من اغسطس سنة ٩٦٣م تم تتويج نقفور فوقاس امبراطورا (٧٣) وفى العامين الأولين من عهده اهتم الامبراطور بمنطقة قليقية وخرجت اليها عدة حملات عسكرية. وفى سنة ٩٦٥ م أكمل الامبراطور فتح قليقيه باستيلائه على ثغرين هامين من ثغور المسلمين هناك وهما: المصيصة وطرسوس. (٧٤) وفى نفس العام نجح

الاسطول البيزنطى فى احتلال جزيرة قبرص بالكامل وتم ضمها الى الممتلكات الامبراطورية . (٧٥) وفى سنة ٩٦٦م قام الامبراطور بحملة عسكرية على الفرات الاوسط ومن هناك تقدم جنوبا الى شمال الشام حيث ظهر فجأة أمام أسوار مدينة انطاكية . ولمدة عامين بعد ذلك (٩٦٧م - ٩٦٨ م) انشغل الامبراطور بتسوية بعض المشاكل على حدوده الشمالية ومع نهاية ٩٦٨ م قاد نقفور فوقاس جيشه من جديد إلى قلب الشام حيث هاجم معرة مصرين ، معرة النعمان وتقدم على طول نهر العاصى وقام بنهب عدد من البلاد الصغيرة الواقعة على نهر العاصى مثل كفرطاب ، وشيزر ، وحماه وحمص ثم اتجه غربا الى ساحل البحر المتوسط حيث نهب عرقة ، ومنها إلى طرابلس التى وقف امامها قليلا ، ثم عاد عن طريق الساحل شمالا بعد أن نهب وخرب انطرطوس ، ومرقية ، جبلة ، واللاذقية (٧٦) ثم تقدم فى اتجاه انطاكية والقى عليها الحصار . ولما طال الحصار ، عاد الامبراطور الى القسطنطينية تاركا اثنين من قواده ليكملوا حصار انطاكية ، وعلى غير المتوقع وفى غياب الامبراطور نجح القائدان فى اقتحام مدينة انطاكية فى ٢٨ من اكتوبر ٩٦٩م. (٧٧) وبعد ذلك ببضعة أشهر ، اجبر البيزنطيون امير حلب على عقد هدنة مهينة فى صفر سنة ٣٥٩ هـ/ ديسمبر - يناير ٩٦٩ - ٩٧٠ م (٧٨) . وبمقتضى هذه الهدنة اصبح امير حلب تابعا الامبراطور البيزنطى ، واصبحت كل الاراضى والمدن الواقعة فى نطاق امارته تابعة للسيادة البيزنطية بما فيها حلب . وقامت الادارة البيزنطية بضم الجزء الشمالى الغربى من شمال الشام ، وهو الجزء الواقع الى الغرب من نهر العاصى بما فى ذلك انطاكية الى الكيان الامبراطورى ، وسرعان

فما اصبح ثيما بيزنطيا يعرف بثيم انطاكية أما الجزء الواقع الى الشرق من نهر العاص وقاعدته حلب فقد أصبح بمقتضى هدنة صفر ٣٥٩ هـ يعرف بأرض الهدنة ، وظل أمراء البيت الحمدانى يحكمونه ولكن فى ظل التبعية السياسية للامبراطورية البيزنطية .

على أية حال ، بعد سقوط انطاكية وقبيل هدنة صفر سنة ٣٥٩ هـ ، وقع نقفور ضحية مؤامرة أودت بحياته وأعقبه على العرش قاتله يوحنا تزيمسكس . والمعروف ان تزيمسكس انشغل فى العامين الاولين من عهده بمشاكل داخلية واخرى خارجية فى الغرب والشمال . بالنسبة الغرب فقد تم التوصل إلى تسوية مرضية بترتيب زواج سياسى بين الأميرة البيزنطية ثيوفانو ووريث العرش الالمانى الذى اعتلى العرش بعد ذلك باسم الامبراطور أوتو الثانى Otto II . (٧٩) اما بالنسبة للجبهة الشمالية فقد سبقت الاشارة الى خروج الامبراطور لقتال الروس ، وكيف استطاع الامبراطور تزيمسكس بعد ست معارك حاسمة انتهت فى يوليو سنة ٩٧١م أن يلحق بهم هزيمة فادحة . (٨٠)

كان يوحنا تزيمسكس مثل نقفور فوقاس رجلا عسكريا ينتمي لنفس طبقة الارستقراطية العسكرية وكان مثله مهتما بالتوسع شرقا على حساب دار الاسلام . كيفما كان الأمر بعد أن انتهت مشاغل الامبراطور الجديد ، اصبح فى مقدوره بدءا من سنة ٩٧٢ م أن يوجه انتباهه الى الشرق الادنى الاسلامى . والمعروف أن تزيمسكس قاد بنفسه ثلاث حملات عسكرية،اثنتين ضد اقليم الجزيرة (شمال العراق)، سنتى ٩٧٢م ، ٩٧٤م ، وواحدة ضد الشام سنة ٩٧٥م ، بينما هاجم قائده الدمستق مليح Melias فى سنة ٩٧٣م منطقة ديار بكر باقليم الجزيرة ،

ويلاحظ أنه فى الوقت الذى كانت فيه حملات تزيمسكس الثلاث ناجحة ، الا أن قائده مليح قابل هزيمة ثقيلة على يد المسلمين . (٨١)

فى حملة سنة ٩٧٢م ، هاجم الامبراطور نصيبين ودخلها فى ١٢ من اكتوبر ، ثم قام البيزنطيون بنهبها . وظلت المدينة فى يد البيزنطيين لمدة عشرين يوما حتى وافق امير الموصل ابو تغلب الحمدانى على دفع جزية سنوية لبيزنطة . ولم ينسحب الامبراطور منها الا بعد أن تسلم من الامير الحمدانى جزية عام مقدما اتجه تزيمسكس بعد ذلك الى ميافارقين وحاصرها لبعض الوقت ، ثم أقفل عائدا الى القسطنطينية ويبدو أن العمليات العسكرية البيزنطية فى اقليم الجزيرة ، وما حدث فى نصيبين قد أثارت مشاعر المسلمين ، فتوجه عدد من الناس من سكان اقليم ديار ربيعة واقليم ديار بكر الى بغداد ، واخذوا يستنفرون الناس الى حمل السلاح للدفاع عن دار الاسلام الا أن رد فعل الخليفة العباسى وأمير أمرائه البويهى كان سلبيا .

وفى العام التالى ، صيف ٩٧٣م تقدم مليح *Melias* القائد العام للجيش البيزنطى فى الشرق <u>*Domestikos tes Anatoles*</u> ، تجاه ديار بكر وهاجم مدينة آمد . وفى يوليو قرر الامير الحمدانى ، بعد أن انضم اليه عدد لا بأس به من من المتطوعين الغيورين على الاسلام من بغداد ، التصدى لجيش الدمستق وانتهت المعركة بانتصار الحمدانيين وهزيمة البيزنطيين ووقع الدمستق نفسه اسيراً فى يد المسلمين . (٨٢)

على أية حال ، قاد الامبراطور يوحنا تزيمسكس بنفسه حملة عسكرية جديدة على شمال الجزيرة فى سنة ٩٧٤م لينتقم لهزيمة قائده وفى حملة

سريعة هاجم الامبراطور آمد ، وميافارقين ، ونصيبين والاقاليم المحيطة بها ، وتميزت هذه الحملة بالنهب والتخريب . وتجدر الملاحظة أن تزيمسكس بدأ حملته هذه بالمرور على أرمينيا ، حيث عقد اتفاق تحالف وصداقة مع الملك الارميني أشوط الثالث Ashot III وهذا يمكن اعتبار حملة سنة ٩٧٤م ، مقدمة لحملة الامبراطور الكبرى على الشام في العام التالي .

بدأت حملة تزيمسكس على الشام في ربيع سنة ٩٧٥م ، بظهور الامبراطور في شمال الشام . واتبع تزيمسكس نفس الطريق الذي اتبعه نقفور فوقاس في حملة سنة ٩٦٨م من قبل . ويلاحظ أن بعض شيوخ القبائل العربية في شمال الشام قد انضموا الى معسكر الامبراطور بعشائرهم وعملوا في خدمته كعناصر محالفة : وكان لهذه القبائل العربية أثر هام في سير الاحداث ومساعدة البيزنطيين ، وذلك لما كان لها من خبرة بشئون المسلمين في الشام . (٨٣)

تقدم الجيش البيزنطي من انطاكية - التي اصبحت ثغرا بيزنطيا هاما والقاعدة الرئيسية للبيزنطيين في شمال الشام - واتجه جنوبا متخذا طريق وادي نهر العاصي فمر على افامية ، واستولى على حمص بسهولة ، ثم هاجم بعلبك واستولى عليها عنوة . وحين اقترب الامبراطور من دمشق تم التوصل الى اتفاق بين سكان المدينة والامبراطور ، وكانت النتيجة أن المدينة استقبلت تزيمسكس استقبالا حسناً مع الوعد بدفع جزية سنوية له .

وطبقا للرسالة التى الامبراطور تزيمسكس الى حليفه الارميني أشوط الثالث ، تلك الرسالة التي حفظها لنا المؤرخ الارميني متى الرهاوي

Matthew of Edessa، ما يؤكد أن الامبراطور قد واصل طريقه من دمشق جنوبا ومد عملياته العسكرية الى فلسطين وأنه توغل فيها بهدف الاستيلاء عليها واسترداد بيت المقدس (٨٤) ويلاحظ أن هذه الرسالة يجب أن ننظر اليها بحذر كمصدر للمعلومات لاتتفق مع ما ورد فى المصادر الاخرى المتاحة سواء منها البيزنطى أو الاسلامى . على أية حال من المحتمل أن يكون الامبراطور قد حاول التقدم إلى فلسطين، الا أن مثل هذا المشروع كان فيه مجازفة عسكرية كبيرة لأن البيزنطيين اثناء تقدمهم جنوبا تركوا المدن والمراكز الساحلية دون الاستيلاء عليها . وكان هذا يعنى ان أى تقدم الى فلسطين يعنى تعريض خطوط مواصلات البيزنطيين التى طالت كثيرا، للخطر لذلك غير الامبراطور إتجاهه واتجه الى الساحل وعمل على إخضاع المدن والمراكز الساحلية فى طريق عودته شمالا

على أية حال ، فى الوقت الذى استسلمت صيدا صلحاً ، نجد أن الامبراطور يضطر الى أخذ كل من بيروت وجبيل عنوة وحين حاول الاستيلاء على طرابلس - وكانت القاعدة الفاطمية الرئيسية على الساحل الشامى ، ومركزا للاسطول الفاطمى فى الشام - منى تزيمسكس بالفشل واضطر الى رفع الحصار عن المدينة والاتجاه شمالا . وفى طريق عودته شمالا استولى على بانياس وجبلة (على الساحل) ، كما استولى على حصنى برزويه وصهيون (الى الداخل) (٨٥)

وهكذا أنهى الامبراطور حملته الكبرى على الشام بالعودة الى انطاكية

ثم عاد بعد ذلك الى القسطنطينية ، الا أن الأجل لم يمهل تزيمسكس ليستأنف نشاطه العسكرى ضد المسلمين فى العام التالى ، فقد توفى فى يناير سنة ٩٧٦ م بعد حكم استمر قرابة الست سنوات . (٨٦)

كانت هذه هى انجازات نقفور فوقاس ويوحنا تزيمسكس فى مجال التوسع الخارجى على حساب العرب المسلمين ويجب الا ننسى أنه فى نظرها وفى نظر المعاصرين لعهدها ، لم تكن بيزنطة تقوم بحرب اعتداء ، بل كانت تسترد فقط ما كان حقاً لها بالمشيئة الالهية . ولكن استرداد تلك الاقاليم الواسعة استنزف موارد الامبراطورية . واصبح نقفور فوقاس ممقوتا فى أيامه الاخيرة لقيامه بفرض مزيد من الضرائب ليواجه النفقات العسكرية المتزايدة ، وانتهى الامر باغتياله فى مؤامرة كانت زوجته وصديقه الذى خلفه طرفا فيها (٨٧) . ولم يكتف يوحنا تزيمسكس بتدعيم فتوحات فوقاس بل استمر فى اتجاه التوسع الشرقى وكان عهده امتدادا لعهد سلفه العدوانى ضد دار الاسلام ولاشك ان كلا الامبراطورين قد استغلا الاضمحلال الذى استشرى فى الخلافة العباسية

على أية حال شهد النصف قرن التالى عهدا غير عادي لامبراطور هو بلاشك من أكثر الاباطرة البيزنطيين طموحا وعظمة ، هو الامبراطور باسيل الثانى *Basil II* (٩٧٦ - ١٠٢٥ م) فعهده يحدد قمة العظمة والقوة الامبراطورية فى القرن الحادى عشر الميلادى ، كما أنه يحدد ذروة الجهد الذي بذله أباطرة الاسرة المقدونية ابتداءا من باسيل الاول ، كما أنه عهد

ازدادت فيه فتوحات الامبراطورية وامتد فيه نفوذها السياسي الى آفاق بعيدة .

والسؤال الذى يفرض نفسه هنا ، هل استمر باسيل الثانى فى سياسة التوسع . ضد الشرق الادنى الاسلامى ، تلك السياسة التى سار عليها نقفور فوقاس ويوحنا تزيمسكس ؟ إن الاجابة على هذا السؤال بالنفى ، ولتوضيح ذلك يجب أن نعرض بدقة للعوامل التى حددت فلسفة السياسة فى عهد هذا الامبراطور المعجزة .

يمكن القول أن السنوات الاولى لعهد باسيل الثانى ، وبالتحديد السنوات الثلاث عشرة الاولى الممتدة من ٩٧٦ – ٩٨٩ م ، كانت حاسمة ومسئولة بالاحداث التى وقعت فيها عن تحديد معالم سياسته فى الداخل والخارج . لقد شهد الامبراطورية خلالها عدداً من المحن والكوارث تحملها الامبراطور الشاب ذو الثمانية عشر ربيعا بأعصاب فى قوة الصلب ، وتمسك بالامل وسط ظلام مواقف كانت فى كل التقديرات ميئوس منها ، وبارادة قوية حول الهزائم الى انتصارات الا أن هذه الكوارث التى واجهها ، كان لها أعظم الأثر فى تحديد دوافع سياسته وتسلسل أولوياته ونشاطه فى الداخل والخارج (٨٨) .

- كانت حقوق كل من باسيل وقسطنطين ، ولدا رومانوس الثانى (٩٥٩-٩٦٣ م) ، فى العرش مرعية من الناحية الشكلية فى عهد كل من نقفور فوقاس (٩٦٣ – ٩٦٩ م) ويوحنا تزيمسكس ، فقد حكم كلاهما فى ظل البيت المقدونى ولكن يلاحظ أن كل السلطة كانت فى يد الامبراطور الفعلى فلم

يكن في يد الامبراطور الشرعي أي سلطان ولا شك أن نجاح كل من نقفور فوقاس ويوحنا تزيمسكس في اعتلاء العرش مع الاحتفاظ بالحقوق الشرعية لممثلي الاسرة المقدونية الشرعيين قد أدى بالتدريج الى نمو فكرة أن التاج الامبراطوري يجب أن يكون في الواقع لمن يملك القوة والثروة وليس لمن له الحق الشرعي فقط (٨٩) وعلى هذا كانت العودة الى الاسرة المقدونية ذات الصفة الشرعية في الحكم، ممثلة في كل من باسيل الثاني وقسطنطين الثامن سنة ٩٧٦م، تشكل تحديا قوياً للطبقة الارستقراطية أو طبقة الاقوياء dynatoi وهكذا كان الصراع حتمياً بين الامبراطور الشرعي باسيل الثاني والعسكريين الارستقراط.

لقد قام اثنان من أبناء هذه الطبقة - برداس سكليروس Bardas skleros وبرداس فوقاس - بالثورة على الامبراطور باسيل الثاني وحاولا إغتصاب العرش كل على حدة وخلال تلك الحروب الاهلية التي عمت الامبراطورية طوال الفترة الممتدة من ٩٧٦ - ٩٨٩ م ضاعت هيبة الامبراطورية في الخارج وانتهز البلغار الفرصة وقاموا بقيادة قيصرهم صموئيل بالثورة ضد الامبراطورية. وحين وجدوا أن احوال الامبراطورية في الداخل تسير من سيء الى اسوأ اجتاحوا ممتلكات الامبراطورية في شبه جزيرة البلقان واصبح الموقف جد خطير. وأمام تلك الكوارث التي صاحبت السنوات الاولى لعهد باسيل الثاني والتي زلزلت عرشه وكادت تقضي عليه، تملكت الامبراطور الشاب مشاعر الكراهية الشديدة للعسكريين الارستقراط الذين اغتصبوا حقه في العرش الامبراطوري منذ وفاة ابيه رومانوس الثاني، مرتين الأولى

على يد نقفور فوقاس والثانية على يد يوحنا تزيمسكيس. وهاهم يحاولون بعد أن أصبح امبراطورا - اغتصاب حقه من جديد بثورتي برداس سكليروس وبرداس فوقاس. (٩٠)

وجدير بالذكر أن أباطرة القرن العاشر الميلادي حاولوا تقوية الروابط بين العاصمة والاقاليم وتأكيد السلطة المركزية للادارة. ولكن هذه المهمة لم تكن سهلة فالمسافات البعيدة التي تفصل بعض الاقاليم عن العاصمة، فضلا عن الاتجاهات المحلية لدى كبار الملاك في الاقاليم والنزعات الاستقلالية لدى القادة العسكريين من حكام تلك الاقاليم، كان يعني أن السلطة الامبراطورية المركزية كانت في أحسن أوقاتها ضعيفة غير مستقرة، أما في وقت الازمات أو الحروب في الداخل أو الخارج فكان لاوجود لها بالمرة (٩١). وأثناء الحرب الاهلية التي صاحبت ثورتي برداس سكليروس وبرداس فوقاس كانت السلطة الامبراطورية لاوجود لها خارج العاصمة. ولهذا قرر باسيل الثاني التصدي لهذه المشكلة أي تأكيد سلطته المركزية على كل أركان الامبراطورية، في محاولة جادة لترجمة السلطات النظرية للامبراطور الى واقع عملي. ولمدة عشرين عاما تقريبا عمل الامبراطور الشاب باسيل الثاني بكل قوة على الحد من نفوذ وسطوة طبقة كبار الملاك في الاقاليم واستخدم في سبيل تحقيق هذه الغاية كل سلاح، فاستخدم السيف والقانون على حد السواء. ومما قام به الامبراطور بهذا الخصوص أنه أصدر في يناير سنة ٩٩٦ م مرسوما أعلن فيه انه يجب أن تعود كل الممتلكات التي أخذت من أصحابها الحقيقيين بدون اثباتات شخصية منذ صدور قانون رومانوس الاول ليكابينوس، الخاص بقواعد

بيع أراضي صغار المزارعين ، في سنة ٩٣٤ (٩٢) .

وفي فترة الحروب الاهلية التي وقف فيها باسيل الثاني بحزم أمام ثورتي برداس سكليروس ، وبرداس فوقاس ، يلاحظ اشتراك قوى اجنبية الى جانب طرف أو آخر من أطراف الصراع على السلطة في الامبراطورية . فقد سعى سكليروس الى كسب تأييد الخلافة العباسية والبويهيين في العراق ، وكان في صفوف قواته بعض عرب قبائل شمال الشام وأعالي الجزيرة فضلا عن الأرمن . كذلك وقف بعض امراء أيبيريا *Iberia* الى جانب فوقاس في ثورته ضد الامبراطور (٩٣) . وأمام كل هذا اضطر الامبراطور باسيل الى طلب العون من فلاديمير *Vladimir* أمير كيف *Kiev* الروسي الذي ارسل اليه فرقة قوية من الشماليين الروس قوامها ستة الآلاف جندي استطاع الامبراطور بمساعدتهم انقاذ عرشه في أحلك لحظات الخطر . (٩٣)

على أية حال خلال سنوات المواجهة بين باسيل الثاني والعسكرين الارستقراط وبعد أن حقق عليهم النصر النهائي في معركة ابيدوس *Abydos* في ابريل من سنة ٩٨٩ م ، بدا واضحا للامبراطور ، الذي صقلته تجربة الحروب الاهلية المريرة ، أنه اذا كان عليه أن يستمر كامبراطور مستقل الارادة مطلق السلطة فانه في حاجة الى جنود وضباط ليس لهم أية تطلعات طبقية أو مصالح شخصية غير تلك المصالح الخاصة بالامبراطور أدرك باسيل أنه في حاجة الى جنود مخلصين له بلا تردد طالما أن رواتبهم مرضية ومنتظمة ، ويشترط أن تكون كفاءتهم العسكرية عالية وتفوق أية كفاءة أخرى . لقد بدت العناصر الشمالية الروسية مناسبة وتنطبق عليها هذه

المواصفات . ولهذا فاننا نلاحظ منذ عهد باسيل الثانى ، أن العناصر الشمالية اصبحت تشكل قوة أساسية فى جيش باسيل الثانى . (٩٥)

لقد أشرت من قبل الى أن صراع باسيل الثانى ضد العسكرين الارستقراط وجهوده لاخضاعهم، فضلا عن تطور ثورة بلغاريا وتهديدها المتزايد للامبراطورية، هى عوامل حددت معالم سياسة هذا الامبراطور فى الداخل والخارج على حد السواء فحين سحقت الادارة الامبراطورية ثورة برداس سكليروس فى اكواساراقناى *Aquae Saravenae* فى ٢٤ من مارس سنة ٩٧٩ م لجأ الثائر البيزنطي إلى دار الاسلام والتمس عون امير الأمراء البويهى فى بغداد (٩٦).

ولقد سبب هذا الحادث مشكلة للادارة الامبراطورية فى القسطنطينية كما أدى الى الاتصال الأول والوحيد بين باسيل الثانى والبويهيين فى العراق . وخلال السنوات الثلاث (٩٨٠ - ٩٨٣ م) تبادلت القسطنطينية وبغداد السفارات بهدف تسوية الخلافات فيما بينها وللوصل الى تسوية شاملة ، كان كل مايهم باسيل الثانى خلال تلك المفاوضات هو تحقيق شئ واحد : أن تقوم بغداد بتسليمه الثائر برداس سكليروس . وجدير بالذكر أنه أثناء تلك المفاوضات بين بغداد والقسطنطينية تتضح حقيقة هامة ، وهى أنه فى الوقت الذى كان فيه باسيل الثانى على استعداد لقبول بعض شروط بغداد من أجل الوصول إلى تسوية شاملة ، نجد أن ممثلى الطبقة الارستقراطية العسكرية ، وكانت لا تزال فى أيديهم القيادة العسكرية للجيش ، ولهم نفوذ كبير ، يقفون ضد كل صلح أو هدنة أو سلام مع بغداد ، كما رفضوا التخلى عن شبر من الارض التى استولت عليها الامبراطورية خلال الفترة نفسها شيئا

حتى لو كان هذا فى مقابل استرداد الامبراطورية لثائر خطير مثل سكليروس الذى أشاع بثورته الفوضى والاضطراب ، وكاد يعصف بحكم الاسرة المقدونية. وكان موقف العسكريين الارستقراط هذا من اسباب تعثر المفاوضات وتوقفها فى النهاية (٩٧)

على أية حال كان على باسيل الثانى أن يتعلم من الكوارث والمحن التى أصابت السنوات الاول لعهده فمنذ سنة ٩٧٦م حين إعتلى العرش (وله من العمر ١٨ سنة) وحتى سنة ٩٨٥ م واجه الامبراطور الشاب محنة الحرب الأهلية الأولى التى صاحبت ثورة برداس سكليروس ، كما تحمل العبء النفسى لوصاية عمه الخصى باسيل (البراكوىموحنوس *Parakoimomenos*)(٩٨). ومن سنة ٩٨٦ م وحتى سنة ٩٨٩ م واجه الامبراطور مزيداً من المحن ، فقد الحقت به القيصر البلغارى صموئيل *Samuel* الهزيمة ، كما ثار ضده برداس فوقاس والحق به أيضا الهزيمة. صمد الامبراطور لثورات العسكريين الارستقراط ، ولاعتداءات بلغاريا فى صبر وشجاعة. وخلال الفترة التى واجه فيها تلك الكوارث ، وجد الامبراطور الشاب أخيراً الاجابة على السؤال الذى طالما حيره وذلك باتخاذ إجراءين هامين هما :

أولا : بما أن العسكريين الارستقراط استمدوا قوتهم من ملكياتهم الزراعية التى امتلكوها ومن تلك التى وضعوا أيديهم عليها ، ومن عناصرهم العسكرية كقادة للجيوش البيزنطية ، لهذا قرر الامبراطور باسيل الثانى كسر احتكارهم للقيادة العسكرية بأن يقود جيشه بنفسه الى ميدان القتال ،

وفضلا عن ذلك قرر تشكيل فرقة من الجند المرتزقة ذو الكفاءة العسكرية من الروس هذا من ناحية . ومن ناحية أخرى بدأ الامبراطور أعنف هجوم على الطبقة الارستقراطية العسكرية بالتشريعات التى أصدرها والتى استهدفت كسر شوكتهم وتأميم ممتلكاتهم (٩٩)

ثانيا : بما أن العسكريين الارستقراط يتركزون فى آسيا الصغرى التى كانت حتى ذلك الوقت مركز الثقل الاقتصادى فى الامبراطورية ، لهذا لا بد من كسر قبضتهم على هذا الاقليم الحيوى . ومن أجل تحقيق هذا قرر الامبراطور أن يوجد مصدراً جديداً للموارد الاقتصادية فى شبه جزيرة البلقان مماثل ذلك الموجود فى آسيا الصغرى .

وفى الحقيقة يبدو أن باسيل الثانى حاول أن ينقل مركز ثقل وقوة الامبراطورية من الأناضول الى شبه جزيرة البلقان (١٠٠) .

ومع أن الارستقراطية العسكرية كانت موجودة فى الاقاليم الاوربية من الامبراطورية الا أنها نمت بشكل معين وتطورت فى نطاق محدود ولم يكن لها نفس الاهمية التى كانت للارستقراطية العسكرية فى آسيا الصغرى بالنسبة للكيان السياسى والاجتماعى للدولة البيزنطية . كذلك فان غزوات البلغار المستمرة أثرت على نمو الملكية الزراعية هناك . (١٠١)

لقد جذبت شبه جزيرة البلقان انتباه باسيل الثانى منذ السنوات الاولى لعهده . فثورة برداس سكليروس الاولى (٩٧٦ - ٩٧٩ م) فى آسيا الصغرى اضعفت الادارة المركزية للامبراطورية ، وأدت الى تطور خطير للموقف

فى شبه جزيرة البلقان ! فقد تفجرت ثورة فى غرب بلغاريا ، قادها صمويل البلغارى سرعان ما تطور لتأخذ شكل حرب تحرير وانتشرت فى كل مقدونيا وحاول البلغار فيها استقطاع معظم شبه جزيرة البلقان من الامبراطورية البيزنطية . (١٠٢)

وأدرك باسيل الثانى أن استيلاء بلغاريا على شبه جزيرة البلقان وتهديدها القسطنطينية هو المشكلة الرئيسية التي تهدد الامبراطورية وتحتاج الى حل جذرى ولهذا قرر الامبراطور أن يخلص الادارة الامبراطورية من مشكلة بلغاريا من جذورها ، واعتبر باسيل الثانى هذه المهمة لها الأولوية الاولى . وطوال عهده كرس الامبراطور نفسه وحياته وموارد الامبراطورية فى تصميم شديد من أجل قهر بلغاريا والاستيلاء عليها واعادة الحكم البيزنطى وحكمه الشخصى على كل شبه جزيرة البلقان . (١٠٣)

كان الامبراطور يعلم تماماً أن الامبراطورية البيزنطية — وبعد كل التجارب التى مرت بها فى علاقتها بدولة بلغاريا — يجب ألا تقبل وجود دولة بلغارية قوية على حدودها . ومن وجهة نظره كانت شبه جزيرة البلقان حيوية بالنسبة للامبراطورية ، وكان الموقف فيها خطيرا بسبب اعتداءات بلغاريا ، وكان الموقف يحتاج الى حل عسكرى وحاسم ويلاحظ أنه اذا كان التوسع شرقا على حساب المسلمين لصالح طبقة الاقو[illegible] matoi

[illegible]

[illegible] صلبه بل [illegible] الحكومة المركزية فى القسطنطينية ، واستهدف أساسا [illegible] اخضاع كل الاقاليم الواقعة بين مقدونيا والدانوب ، وبين البحر الأسود

والبحر الأدرياتي ، وضم بلغاريا وجعلها اقليما امبراطوريا مثل أي اقليم آخر في الدولة البيزنطية كذلك كان اخضاع كل شبه جزيرة البلقان والعودة بحدود الامبراطورية إلى ما كانت عليه أيام جستنيان يستهدف ايضا ايجـــاد مصدراً آخر للمواد الاقتصادية يكون تحت تصرف الحكومة البيزنطية وبعيداً عن متناول طبقـة العسكريين الارستقراط في آسيا الصغرى (١٠٤) .

إن حرب باسيل الثاني ضد بلغاريا بتفاصيلها تحتاج الى بحث قائم بذاته وسنكتفي هنا بالقاء نظرة سريعة عليها . حقق البلغار في أول الامر انتصارات كثيرة على البيزنطيين فقد تقدموا دون أن يعترضهم أحد عبر تساليا Thessaly ، واتيكا Attica الى مضيق كورنثا Corinth حيث عبروه الى شبه جزيرة البلوبونيز . كذلك استطاع البلغار الايقاع بجيش باسيل الثاني في كمين سنه ٩٨٦م وهزموه ونجا باسيل الثاني من الوقوع في ايديهم بصعوبة (١٠٥) . وفي السنوات التالية نجح البلغار في استرداد مدن برسلاف [illegible] وبليسكا Plisko ، ثم تقدموا غربا واستولوا على ديراخيوم D[illegible] على ساحل البحر الادرياتي ، واصبح لهم منفذا في الغرب كان مصدر تهديد لمركز الامبراطورية الاستراتيجي في البحر الادرياتي .

ويلاحظ أن هذه الانتصارات البلغارية الأولى كانت ترجع الى تعاطف السكان السلاف معهم في العديد من الاقاليم التي فتحها البلغار ، (١٠٦) كما كانت ترجع الى انشغال باسيل الثاني بثورتي برداس فوقاس ، وبرداس سكليروس (الثانية) من ناحية ، وبتوتر اضطراب العلاقات البيزنطية

الروسية من ناحية أخرى . بالنسبة لبرداس فوقاس فقد تم سحق تمرده في معركة أبيدوس الفاصلة (ابريل سنة ٩٨٩ م) ، كذلك تم ازالة التوتر الذى اصاب العلاقات بين القسطنطينية وامارة « كيف » الروسية بالوسائل الدبلوماسية وذلك بتعميد فيلاديمير *Vladimir* الذى اعتنق المسيحية أولا ، ثم الموافقة على زواجه من أخت الامبراطور الشقيقة (١٠٧) . أما ثورة برداس سكليروس الثانية فقد انتهت سلميا بتسليم الثائر فى اكتوبر ٩٨٩م بعد أن قبل عرض الامبراطور المغرى مقابل تسليم نفسه . ولا شك أن هذه النهاية لثورة برداس سكليروس الثانية ، كانت لصالح كل من الامبراطور والثائر على حد السواء . فقد أدى الحل الدبلوماسى السريع والبارع لمشكلة سكليروس الى تخلص الامبراطور من كل مشاكله الداخلية واصبح بالتالى متفرغا لمواجهة القيصر البلغارى صمويل الذى اصبح يشكل خطرا جسيما على الامبراطورية . أما بالنسبة لسكليروس الذى كان قد استعان بالبويهيين فى العراق - فقد قرر التسليم والتنازل عن المطالبة بالتاج الامبراطورى لان السن تقدمت به ، كما انهكته الثورة طول تلك السنين ، كما انه ادرك استحالة نجاح مشروعه . كذلك فان آماله واحلامه فى الحصول على عون عسكري من قبل أمير الامراء البويهى فى بغداد سرعان ماتبددت مع طول انتظاره خاصة وان الاحوال اخذت تتردى فى بغداد من سىء الى ماهو أسوأ (١٠٨) .

على أية حال بمجرد أن انتهت الحرب الاهلية فى آسيا الصغرى ، بدأ باسيل الثانى صراعه الطويل ضد اخطر اعدائه جميعا ، القيصر البلغاري

صمويل . ويلاحظ انه من الصعب أن نقرر متى اعتبر باسيل الثانى القضاء على مملكة بلغاريا هو هدف حياته الاول . ولكن يمكن القول أن أحداث وطبيعة تلك الحرب الدمويه في البلقان ، والمخاطر التي اكتنفتها لابد أن تكون قد شكلت فكر باسيل وساهمت فى تطور شخصيه وحولته من ذلك الامبراطور الشاب الذى يفتقر إلى الخبرة والذى لقى هزيمه ثقيله أمام صمويل البلغارى فى المعركه المعروفه ببوابة تراجان *Trajan's Gate* فى سنه ٩٨٦م ، إلى تلك الشخصية المرعبه والمألوفه لنا كسفاح البلغار .

كان انتقام باسيل الثانى من البلغار ، والذى تميز بالعنف والقسوة ، واضحاً فى المعركه الفاصلة من أجل السيادة على مقدونيا والتى وقعت فى ٢٩ من يوليو سنه ١٠١٤ م . واصبحت هذه المعركه اعنف المعارك وأكثرها التصاقا بالذاكرة بالنسبه لتاريخ البلقان . فبعد انتهاء المعركه بانتصار الامبراطور ، أمر باسيل الثانى بسمل أعين كل الاسرى البلغار البالغ عددهم حوالى اربعه عشر الفاً ، باستثناء أسير واحد في كل مائة ، اذ أبقى له على عين واحدة كى يقود زملائه عائداً الى القصير صمويل . (١٠٩)

ويلاحظ أن هذه المعركه الفاصلة من أجل مقدونيا تصور اكتمال التنظيم العسكرى البيزنطى الدقيق وروعه فن الحرب والقتال التى جعلت من باسيل الثانى قائداً لايقهر متى قاد جيشه فى الميدان (١١٠) ويلاحظ أيضا أن العنف والتدمير والقسوة التي ميزت القتال فى السنوات الاخيرة من الحرب البلغاريه ، كان دليلا على أن الامبراطور لم يكن راغبا فى أيه تسويه أو صلح ، وبالتالي كان تسليم وخضوع بلغاريا غير المشروط هو

النتيجة الطبيعية فى النهاية. وبالفعل انتهت الحرب بانتصار الامبراطور باسيل الثانى سنة ١٠١٨ م، ودخل الامبراطور فى احتفال مهيب مدينة اوخريدا Ochrida عاصمة المملكة البلغارية، وهناك تسلم له كل من تبقى على قيد الحياة من أفراد الاسرة الملكية البلغارية. وهكذا بلغ باسيل الثانى هدفه. وعادت البلقان من جديد جزءا من الامبراطوريه البيزنطية. (١١١)

على أية حال كان البلقان من وجهة نظر باسيل الثانى له الاهمية الاولى، تماما كما كانت دار الاسلام بالنسبة لكل من نقفور فوقاس ويوحنا تزيمسكس ورغم انشغال باسيل الثانى بالحرب الطويلة ضد البلغار والتى كانت لها الأولويه الاولى، الا أنه لم ينس واجباته فى الشرق. فسياسته تجاه الشرق الادنى الاسلامى كانت واضحة ومميزة. فهو لايرغب بتاتا فى التوسع شرقا على حساب المسلمين كما فعل فوقاس وتزيمسكس من قبل، ولكنه، فى نفس الوقت، كان حريصا ومصراً على الاحتفاظ بكل الممتلكات البيزنطيه فى الشرق تماما كما ورثها من اسلافه. لهذا اكتفى باسيل الثانى فى سياسته تجاة الشرق الادنى الاسلامى، بتدعيم الممتلكات البيزنطية فى شمال الشام والاحتفاظ بها تماما كما كانت عند نهاية عهد يوحنا تزيمسكس، والعمل على الدفاع عن المصالح الامبراطوريه هناك، ودعم التحصينات في الجناح الجنوبى الشرقى لحدود الامبراطوريه الشرقيه ويمكن تفسير سياسه باسيل هذه واحجامه عن استئناف التوسع الشرقى على حساب دار الاسلام، ذلك التوسع الذى سار عليه كل من نقفور فوقاس ويوحنا تزيمسكيس، في ضوء العوامل الآتيه

أولا : كان القضاء على مملكة البلغار ، فى نظر باسيل الثانى ، له الاهمية الكبرى الاولى بالنسبة لأمن الامبراطورية واسترِدادها لسلطانها كاملا على كل شبه جزيرة البلقان . وكان باسيل الثانى يرى ان هذا العمل حيويا من أجل سلامة الامبراطورية اقتصاديا وسياسيا ، تماما كما كان الدفاع عن الثيمات الشرقية حيوياً بالنسبة لاسيا الصغرى بل والامبراطورية فى الفترة ما بين القرنين السابع والعاشر من الميلاد

ولما كانت الحروب على جبهة البلقان تتطلب موارد بشرية ومادية كبيرة ، لهذا لم يكن باسيل الثانى يستطيع أن يأمل فى اكثر من الاحتفاظ بالممتلكات البيزنطية فى شمال الشام والجزيرة كما ورثها دون أى توسع جديد على حساب المسلمين ، هذا اذا أراد بالطبع أن يتجنب القتال فى جهتين فى وقت واحد .

ثانيا من ناحية الحجم ، كانت مملكة البلغار فى أقصى اتساع لها لاتزيد عن حجم واحدة من ولايات الخلافة العباسية وفى زمن باسيل الثانى كان الجيران المسلمين للامبراطورية هما الخلافة العباسية ، التى كانت تمتد اسميا من السند شرقاً وحتى حدود الشام غربا ، والخلافة الفاطمية ، التى كانت تمتد من وسط الشام شرقاً إلى شمال افريقية غربا . وكانت الخلافة العباسية والخلافة الفاطمية رغم تناقض مصالحهما ـ من الناحية النظرية اكبر قوتين فى العالم الغربى المعاصر فى ذلك الوقت ، وكانتا أيضا اكثر مناطق هذا العالم من حيث الكثافة السكانية لأن وديان أنهار العراق ومصر كانت تقع فيهما ،

في وقت كانت كل من العراق ومصر لاتزال اكثر اقاليم العالم القديم في الانتاج الزراعي .

لهذا يلاحظ أن الاضمحلال المؤقت الذي أصاب دار الاسلام وضياع بعض الاقاليم (الثغور) والمدن التي سقطت في يد البيزنطيين كنتيجة للتوسع والفتح الذي قامت به الادارة الامبراطورية بين عامي ٩٦٠ - ٩٧٥ م ، كان طفيفاً اذا أخذنا في الاعتبار أن ما تكبدته الامبراطورية ماليا واقتصاديا واجتماعيا في سبيل هذا التوسع الشرقي كان باهظ التكلفة وفي نفس الوقت أصبح من الواضح امام الادارة الامبراطورية أنه لا أمل أبدا في أن تستطيع الامبراطورية استرداد ممتلكاتها في آسيا وافريقية والعودة بحدودها الى ما كانت عليه قبل سنة ٦٠٤ م أو خلال الفترة الممتدة بين عامي ٦٢٩ ـ ٦٣٣ م . (١١٢)

ثالثا : كانت دار الاسلام في نظر الادارة الامبراطورية تعني كيانا سياسيا مناوئا له دينه المختلف وتنظيمه الاجتماعي المغاير . وكان البيزنطيون يعتبرون المسلمين في الشرق ، أكثر الاعداء أهمية وخطراً . ففي نظر الامبراطور ليو السادس (العاقل) فاق المسلمون كل الشعوب الاجنبية الاخرى في الذكاء والتنظيم العسكري وفن الحرب والقتال . (١١٣)

على أية حال اذا كان على باسيل أن يتوسع على حساب المسلمين فقد كان عليه أن يعتمد على نفس الطبقة التي كان يعمل جاهدا من أجل القضاء عليها ، الا وهي طبقة الارستقراطية العسكرية . وكان الاعتماد عليهم

ضروريا فى قتال المسلمين بسبب الخبرة العسكرية التى اكتسبوها فى الحروب الطويلة التى اعتادوا عليها فى الجبهة الشرقية .

وحتى اذا استطاع باسيل الثانى تطبيق تنظيمه العسكرى الدقيق على الجبهة الشرقية ، فانه قد يستطيع تحقيق انتصارات عسكرية ولكنه لن يتمكن من الاحتفاظ بأية فتوحات هناك . وكيف يستطيع الاحتفاظ بمناطق ذات كثافة سكانية فى الشام سواء فى الريف أو الحضر . لقد كانت محاولات فوقاس وتزيمسكس السابقة دروسا مستفادة . فالحملات التي قام بها فوقاس وتزيمسكس والانتصارات التى حققوها لم تضمن لهم ملكية العديد من البلاد والمدن التى استولوا عليها على طول نهر العاص فى شمال الشام وفى أعالى الجزيرة . حمص مثلا استولت عليها الجيوش البيزنطية عدة مرات بين عامى ٩٦٨ - ٩٩٩م ولكنها لم تخضع نهائيا للحكم البيزنطى وحتى حلب عاصمة الحمدانيين ، التى استسلمت لنقفور فوقاس سنة ٩٦٢ م ، ثم اضطرت الى قبول المدنة البيزنطية المهينة التى فرضت عليها فى صفر سنة ٣٥٩ هـ/ ديسمبر يناير ٩٦٩ - ٩٧٠ م لم تقم الادارة البيزنطية بضمها الى الامبراطورية أبداً وحين حث قسطنطين شقيق باسيل الثانى أخاه على ضم حلب الى الكيان الامبراطورى سنة ٩٩٥ م رفض باسيل الثانى رغم أن ذلك كان فى إمكانه (١١٤) .

رابعاً : يلاحظ أن باسيل الثانى - على خلاف نقفور فوقاس ويوحنا تزيمسكس - لم تتملكه أية حماسة دينية لقتال المسلمين . فالروح الصليبية التي ميزت فتوح فوقاس وبدرجة أقل فتوح تزيمسكس يصعب أن نجنها

فى عهد باسيل الثانى ، والسبب فى ذلك واضح فالحماسة الدينية لقتال المسلمين ميزت طبقة العسكرين الارستقراط فى آسيا الصغرى ، الذين ارتبطوا ولسنوات عديدة بقتال العرب المسلمين على الحدود الشرقية

على أية حال يجب الا ننسى ان الحرب ضد المسلمين أصبحت مهمة مقدسة فى بيزنطة - فى الفترة من ٩٦٠ - ٩٧٥م - ليس استنادا إلى عقيدة دينية صحيحة ، لكن لان الحرب كانت صراعا من أجل بقاء وازدهار طبقة هى الارستقراطية العسكرية ، ومن أجل الحصول على المزيد من الأرض ، التى ظلت هى الوسيلة العملية الوحيدة للاستثمار بالنسبة لهذه الطبقة

وهكذا فليس غريب أن نلاحظ أنه فى الوقت الذى كان نقفور فوقاس مكروها من قبل معاصريه المسلمين (١١٥) ، نجد أن باسيل الثانى ، سفاح البلغار ، تمتدحه المصادر الاسلامية بسبب عدله وحبه المسلمين (١١٦) .

لم تقتصر فتوح باسيل الثانى على بلغاريا ، بل امتدت أيضا الى أرمينيا وايبريا *Iberia* ويعتقد بعض المؤرخين أن الانتصارات العسكرية التى حققتها الامبراطورية البيزنطية فى القرن العاشر الميلادى قد شجعت الامبراطورية على التوسع على حساب جيرانها المسيحيين (١١٧) . ولقد بدأ هذا فى سنة ٩٦٨ م بضم اقاليم طارون *Taron* الارمينى ، وانتهى بضم كل الامارات الارمينية وبعض اقاليم أيبريا فى الفترة الممتدة من سنة ١٠٠٠م الى سنة ١٠٤٥م .

ولكن من الصعب أن نجزم بأن ضم أرمينيا وجزء من أيبيريا كان من بين أهداف الامبراطور باسيل الثانى فى الفتح والتوسع ، والمرجح أن توسعه هناك جاء نتيجة تطور أحداث معينة استفاد منها الامبراطور . (١١٨)

ويمكن القول أن التوسع على حساب الأرمن لم يكن فتحا بالمعنى الدقيق ويجب الا يقارن بفتح بلغاريا ، فما تم بالنسبة لارمينيا كان توسعا سلميا سرعان ما تطور فى عهد باسيل الثانى الى تقليد انتهجه الامراء الارمن وبعض أمراء أيبريا وذلك بجعل الامبراطور البيزنطى وريثهم فى ممالكهم ويلاحظ أن انتهاج الارمن وبعض امراء ايبريا لهذه السياسة ، كان بدافع التقرب وكسب ود الامبراطور لا بهدأ ، ونادرا ماينسى اساءة اولئك الذين اخطأوا واتخذوا جانب أعدائه هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى كان هذا بدافع الحصول على حماية الامبراطورية البيزنطية القوية المستقرة. أما بالنسبة للامبراطور فقد كان قبوله لدعوة الملوك والامراء الأرمن والايبريين بأن يصبح وريثهم ، وسيلة لفض المنازعات فيما بينهم ، وأهم من ذلك للحيولة دون قيام أى قوة سياسية كبيرة على حدوده الشمالية الشرقية .

ويلاحظ أنه بينما كانت أرمينيا فى طور الاضمحلال فى ذلك الوقت ، أخذت ايبريا *Iberia* تتوحد ، وتظهر كقوة لها أهميتها فى منطقة القوقاز . وكان الفضل فى ذلك يرجع الى الامير داود *David* أمير الجزء الغربى من أيبريا والذى يعرف منذ العقد الاخير للقرن العاشر بالقربلاط داود العظيم

على أية حال اصطدم باسيل الثانى بهذه القوة السياسية الجديدة الواقعة على حدوده الشمالية الشرقية.

ففى الفترة من سنة ٩٨٧ م - ٩٨٩ م، إندلعت ثورة برداس فوقاس ضد الامبراطور باسيل الثانى، كما سبقت الاشارة. وقرر الأمير داود مساعدة الثائر بأن أرسل اليه قوة من ٢٠٠٠ فارس، وتحرج موقف الامبراطور واضطر أمام هذا الموقف الجديد الى طلب مساعدة الامير الروسى فلاديمير *Vladimir* أمير « كيف » *Kiev* الذى أرسل له فرقة عسكرية مكونة من ستة آلاف من العناصر الروسية الشمالية، واستطاع باسيل الثانى بهذه القوة الجديدة أن يلحق ببرداس فوقاس وحلفائه الايبريين الهزيمة الساحقة فى معركة أبيدوس فى ابريل سنة ٩٨٩ م (١١٩) ولم ينس باسيل عون ايبريا لعدوه اللدود برداس فوقاس، وبمجرد أن حقق نصره فى أبيدوس وقتل فوقاس، أرسل باسيل حملة عسكرية لمعاقبة داود وبقية الأمراء الايبريين الآخرين

وحين بلغت أنباء انتصار الامبراطور ومقتل فوقاس الى الامير داود، وخوفا من إنتقام باسيل الثانى، قرر داود كسب ود الامبراطور بأن دعاه كى يكون وريثه على كل ممتلكاته التى تضم إمارته فى غرب ايبريا فضلا عن مساحات أخرى كان داود قد اكتسبها فى ارمينيا. وعلى الفور قبل الامبراطور الدعوة وسامحه ومنحه لقب قرپلاط *Kouropalates*. (١٢٠) وكان لهذا الحدث الهام أكبر الأثر على مستقبل ارمينيا فى القرن الحادى عشر الميلادى

على أية حال توفى القربلاط داود فى ربيع سنة ١٠٠٠ م (وربما كان لباسيل يدفى وفاته) ، وبمجرد أن بلغت الانباء الامبراطور وكان فى طرسوس فى ابريل سنة ١٠٠٠ م ، أسرع بجيشه إلى شمال ارمينيا ، وفى قلعة هفكيك *Hawkik* ، وقف ملوك وأمراء أرمينيا وأيبريا لاستقبال الامبراطور وكان على رأسهم بقراط الثالث *Bagrat III* ملك ابخازيا *Abasgia* وأبوه جورجين *Gurgen* ملك أيبريا وغيرهما من أمراء الارمن وبعد مراسم الاحتفال الرسمى ، وقبل أن يسمح الامبراطور لهم بالعودة إلى ممالكهم وإماراتهم ، حدد باسيل الاقاليم التى آلت له بالميراث حسب وصيه داود وأعلن ضم كل ممتلكاته الى الامبراطورية البيزنطيه ولم يكن أمام الأرمن والأيبريين سوى القبول كارهين (١٢٢) وبهذه التسوية ضمت الامبراطوريه اقاليم شاسعه فى غرب ايبريا وفى أرمينيا وامتدت بهذا حدودها الشماليه الشرقية . على أية حال لم تكن هذه اكثر من تسويه مؤقته ، فقد أدى إنتقال جزء هام من أيبريا ومساحات اخرى فى أرمينيا الى الكيان الامبراطورى ، فضلا عن إتحاد أمراء أيبريا إلى أن اصبحت المواجهه بين باسيل الثانى ومملكه ايبريا أمراً لامفر منه .

ففى سنه ١٠٠٨ م خلف بقراط الثالث *Bagrat III* (ملك ابخازيا *Abasgia*) أباه فى أيبريا *Iberia* ، ولأول مرة فى التاريخ توحدت مملكتى أبخازيا *Abasgia* وأيبريا ، وأصبح بقراط الثالث أول ملك على مملكه جورجيا *Georgia* الكبرى الموحدة : وحين توفى سنه ١٠١٤ م كانت مملكه

جورجيا أقوى كيان سياسى فى منطقة القوقاز . (١٢٣)

وجدير بالذكر أنه بينما أبقى بقراط الثالث على علاقاته الطيبة بالامبراطور واحترم تسوية سنة ١٠٠٠ م مع الامبراطور البيزنطى ، تحدى ابنه جورج الأول George I (١٠١٤ - ١٠٢٧ م) الامبراطور باسيل الثانى وطالب بذلك الجزء الغربى من أيبريا الذى آل لباسيل الثانى بالميرات حسب وصية القربلاط داود . وأدى ذلك التطور الى انهيار تسوية سنة ١٠٠٠ م ، وقام جورج بمساعدة الأرمن بغزو غرب أيبريا التابع للامبراطور (١٢٤) .

إنزعج الامبراطور باسيل الثانى بسبب تلك التطورات الجديدة التى أعقبت ظهور قوة جورجيا الموحدة ، ولم يستطع الامبراطور إحتمال وجود دولة قوية على حدوده الشمالية الشرقية . وفى حملتين كبيرتين سنة ١٠٢١ م ، سنة ١٠٢٢ م ، استطاع الامبراطور استرداد ما ورثه من اقاليم فى غرب ايبريا ، ولكنه لم يتوقف ، اذ هاجم قلب أيبريا وهزم الملك جورج الاول الذى اضطر الى إرسال ابنه الى الامبراطور كرهينة ، كما قبل التنازل عن عدد من القلاع الهامة فى ايبريا مقابل أن يتركه الامبراطور فى سلام . (١٢٥)

ويلاحظ أنه قبل أن تنتهى حروب باسيل الثانى ضد جورج الاول ملك جورجيا ، تطورت الاحداث فى أرمينيا لصالح باسيل الثانى . ففى سنة ١٠٢٠ م توفى جاجيك الأول ملك أرمينيا ، وبدأ بموته الفصل الاخير فى تاريخ مملكة أرمينيا . وأعقب وفاته تقسيم المملكة بين ولديه يوحنا سمباط الثالث John Smbat III ، وأشوط الرابع Ashot IV (١٢٦) . وسرعان ما نشب القتال

بين الأخوين وتورط فيه ملوك جورجيا ، وفاسبوركان *Vaspouakan* وأدى تردى الأحوال فى أرمينيا الى قيام أمراء اذربيجان بغزو أرمينيا سنة ١٠٢١ م ، وحوالى نفس الوقت تقريبا أخذت جماعات من التركمان والسلاجقة تقوم باغارات على مملكة فاسبوركان *Vaspcurakan* . وأمام ضغط تلك الاغارات والغزوات الخارجية ، قام الملك سناخريب ـ يوحنا *Sennacherib - John* ملك فاسبوركان ـ وهي مملكة أرمينية مستقلة صغيرة تقع في جنوب أرمينيا ـ بالتنازل عن مملكته « ذات العشرين مدينة ، والاثنتين وسبعين قلعة ، والاربعة آلاف قرية » ، للامبراطور باسيل الثاني سنة ١٠٢١ م . وعلى الفور قبل باسيل الثاني الذي كان يعسكر بجيشه في فصل الشتاء في طريزون *Trebizond* على البحر الاسود أثناء حربه ضد جورج الأول ـ هذه الهدية . وفى مقابل تنازل سناخريب ـ يوحنا عن مملكته قام باسيل بمنحه إقطاعيات فى قبدوقية ، كما منحه لقب ماجستير . وهكذا وفي شتاء ١٠٢١ ـ ١٠٢٢ م تم ضم اقليم فاسبوركان *Vaspouakan* الى الامبراطورية ، وأصبح ثيماً جديداً يعرف بثيم فاسبوراكانيا *Vaspouakania* . (١٢٧)

وجاء الدور بعد ذلك على مملكة أرمينيا الرئيسية ، وذلك حين كرر يوحنا ـ سمباد الثالث ملك أرمينيا ، الخطأ الذى وقع فيه القربلاط ـ داود من قبل . فقد ساعد يوحنا ـ سمباد الثالث هذا ، الملك جورج الاول ملك جورجيا أثناء حربه ضد الامبراطور باسيل . وحين إنتصر الامبراطور ، خشى الملك الأرمينى من انتقامه ، لهذا حاول كسب ود الامبراطور ، فأرسل اليه ـ وكان لايزال في طريزون فى مطلع سنة ١٠٢٢ م يعرض عليه أن يصبح وريثه

على مملكة أرمينيا بعد وفاته . وقبل باسيل الثانى العرض ، ومنحة لقب ماجستير . اما ممتلكاته فى أرمينيا فقد انتقلت بالفعل الى الامبراطورية بعد وفاته ، وبالتحديد فى سنة ١٠٤٥ م فى عهد الامبراطور البيزنطى قسطنطين التاسع مونوماخوس *Constantine IX Monomachus* (١٠٤٢ - ١٠٥٥ م) . (١٢٨)

على أية حال ، كان ماحققه الامبراطور باسيل الثانى فريداً بلاشك ، فأى صنف من صنوف الرجال كان هذا الرجل المعجزة ، الذى استطاع أولا أن يخضع لحكمه طبقة الارستقراطية العسكرية القوية التى كان يصعب السيطرة عليها من قبل ، ثم يقوم بعد ذلك بهزيمة البلغار والارمن والايبريين ويحتفظ رغم كل مشاغله هذه بكل ما اكتسبته الامبراطورية من فتوح على حساب المسلمين أيام اسلافه ؟ فى الفقرة التالية نقتبس وصفاً لشخص باسيل الثانى كتبه أحد معاصريه وهو المؤرخ الفيلسوف ميخائيل بسلوس *Psellos* الذى كان فى إمكانه أن يتذكر ملامح الامبراطور فى أواخر أيامه

« بالنسبة لقوام الامبراطور ، كان طول باسيل تقريبا أقل من الطول المتوسط ، ولكن جسمه كان متناسق تماما وقامته معتدلة . وحين كان يقف على قدميه فانه كان عاديا فى شكله ، ولكن على ظهر جواده فقد كان يصعب مقارنته بأى شخص آخر . فقد كان يبدو وسرج حصانه ككتلة واحدة ، مثل شكل تمثال راكب منحوت بيد مثال ممتاز . وحين كان يطلق العنان ويغمز جواده بالمهماز ، فانه كان يجلس منتصب القامة دائما دون أن ينحنى . وحين كان يسحب اللجام ليوقف جواده ، كان جسده يرتفع الى أعلى مع

الجواد كما لو كان طائرا بجناحين وكان باسيل يحافظ على تأسس جلسته العمودية القائمة حتى حين كان الجواد يندفع الى الامام . بالنسبة لوجهه (كما أذكره) فقد كانت لحيته خفيفة ولكن شعر وجنتيه كان غزيرا وكان ينمو خشنا كثيفا على وجنتيه ليكمل دائرة الشعر بالكامل حول وجهه . وكان من عادته برم شعر وجنتيه حين يكون فى حالة تأثر أو اثناء المداولة أو المفاوضات أو حين يكون مستغرقا فى التفكير . ومن عاداته أيضا ، قيامه بثنى ذراعيه ووضعهم خلف ظهره ... ولم يكن باسيل يتحدث بطلاقة أو بلغة بليغة أو يقول جمل صحيحة كاملة ، بل كان يتحدث بخشونة واختصار ، وهو بهذا الشكل كان يبدو كفلاح اكثر منه كرجل متعلم ، وكانت ضحكته همجية مزعجة وتهز كل جسدة » . (١٢٩)

كان هذا هو باسيل الثانى ، القائد العظيم الذى إنتهى فى عهده عصر التوسع والفتح البيزنطى باخضاعه الكامل لكل بلغاريا وباعادة الحدود الشمالية للامبراطورية الى ما كانت عليه أيام جستنيان العظيم ، وبتوسعه فى الشرق والشمال الشرقى على حساب الارمن والأيبريين حتى جعل الحدود البيزنطية تقع الى ماوراء بحيرة فان *Van* . لقد توفى باسيل الثانى دون أن يتزوج فى ١٥ من ديسمبر سنة ١٠٢٥ م ، وبدا حينذاك أنه لانهاية لاى توسع بيزنطى آخر . كانت جيوش الامبراطورية فى عهده لاتقهر ولاتغلب ، وترك باسيل خزانة الامبراطورية تفيض ، ولو كان قد عاش قليلا فان ايطاليا كانت

وجهته التالية من أجل الفتح والتوسع . (١٣٠)

كانت هذه المحاولة الثانية لاسترداد أقاليم الامبراطورية الرومانية القديمة، على المدى البعيد، ليست اكثر نجاحا من المحاولة الاولى التى قام بها جستنيان العظيم فى القرن السادس . فمع أن الامبراطورية البيزنطية كانت عظيمة وقوية وغنية فى سنة ١٠٢٥م، الا أنه وبعد أقل من خمسين عاماً من هذا التاريخ، ومع حلول سنة ١٠٧١م تحطمت قوتها بشكل لا يعوض فى معركة مانتزكرت *Mantzikert* . ونتج عن هذه الكارثة تشتت جيوش الامبراطورية ووقوع بعض اقاليمها فى يد الاتراك السلاجقة والتركمان ، والنورمان . فقد استولى السلاجقة على هضبة الاناضول فى قلب آسيا الصغرى، وفى نفس الوقت تقريبا استولى النورمان على آخر المعاقل الامبراطورية فى جنوب ايطاليا . فلماذا حدث كل هذا ؟

لقد قدم المؤرخون أسبابا وشروحاً عديدة لهذا الانهيار الكلى الفجائى ، فانتقد بعض المؤرخين ضم بلغاريا وجزء من ايبريا *Iberia* ومعظم ارمينيا الى الامبراطورية ، لان سياسة الضم هذه حرمت الامبراطورية من كيانات سياسية كانت تشكل دولا حاجزة *buffer States* بين الامبراطورية والقوى الاخرى المجهولة الواقعة الى الخلف منها (١٣١) ولقد كتب أحد المؤرخين المحدثين معلقا على نتائج عصر الفتح والتوسع ، فأكد هذه الفكرة حين قال :

— « انتصارات فى كل مكان ولكن ما أفدح الثمن ، وها هى الامبراطورية

وقد أحاطت بها حدود مجهولة وليس أمامها إلا المزيد من الفتح والتوسع ، كريت كان لابد من حصارها لمدة ثمانية أشهر كاملة قبل أن يضطر المسلمون الى التخلي عنها . ولقد إحتاج الامبراطور باسيل الثاني الى عشرين عاما ليخضع بلغاريا ، وفي النهاية تم ضم بلغاريا إلى الامبراطورية ، ولكن فى الحال ظهر غزاة جدد من الشمال ، وسرعان ماقاموا بعبور نهر الدانوب . لقد تم ضم أرمينيا ، ولكن على الفور إستولى الاتراك السلاجقة على مدينة آنى *Ani* (فى قلب أرمينيا) . أما فى الغرب فقد كان فى امكان بيزنطة أن تستفيد من الفراغ الواقع بين الدولة الكارولنجية والدولة الالمانية (امبراطورية أوتو) ولكن النورمان كانوا هم المستفيدين الرئيسيين . وفى الشرق كان فى إمكان بيزنطة أن تستفيد من اضمحلال الخلافة العباسية ، ولكن الأتراك استفادوا من هذا الحدث . وفى منتصف القرن الحادى عشر كان كل شيء عظيماً من أوجه عديدة ، حين بدا وكأن الزمن قد توقف ساكنا بالنسبة لبيزنطة ، فهل كانت بيزنطة مع كل هذا سيدة مصيرها ومستقبلها ؟» (١٣٢)

ونعود الى السؤال الذى سبق أن طرحناه ، كيف حدث هذا الانهيار الكامل والفجائى ، ولماذا حدث بعد أقل من خمسين عاماً على وفاة باسيل الثانى ؟ واحد من هذه الاسباب سبق أن أشرنا له من بعيد ، الا وهو حقد طبقة البيروقراطية المدنية على طبقة الارستقراطية العسكرية التى اعتمدت الامبراطورية على قوتها وكفاءتها . وحين استولت البيروقراطية المدنية فى القسطنطينية على السلطة أهملت تسليح الجيش ، وأهملت الحالة المعنوية للجند البيزنطيين ، واستعملت بدلا منهم مرتزقة أجانب لا يعتمد عليهم .

سبب آخر : من المعروف أنه طوال تاريخ الامبراطورية البيزنطية

كانت السلطة وأمور الحكم تتركز دائما فى يد شخص الامبراطور وعدد محدود من رجاله الذين يتولون الادارة الحكومية وحين كان يحدث أى تغير فى تركز هذه السلطة ، أو حين كان يتولى الامبراطورية امبراطور يفتقر الى الكفاءة الادارية والمهارة العسكرية ، كان من الطبيعى أن ينعكس هذا على الادارة والجهاز الحكومي كله ، فتفقد الادارة قبضتها على الامور وتنتشر الفوضى . ويلاحظ أنه فى الفترة الواقعة بين موت باسيل الثانى سنة ١٠٢٥م وإعتلاء الكسيوس الأول كومنين *Ali ius I Komnenos* العرش فى سنة ١٠٨١ م كان هناك خللا فى القيادة العليا للامبراطورية . فخلفاء باسيل الثانى كانوا عاجزين عن إحكام قبضتهم على طبقة كبار الملاك الارستقراط فى الاقاليم ، ونتج عن ذلك ان اختفاء طبقة صغار المزارعين الاحرار (الذين كانوا عصب جند الثيمات ، ويدفعون الضرائب عن أراضيهم بانتظام) سار بخطى سريعة ، وأثر هذا بالتالى على دفاعات الامبراطورية ونظامها الضريبي . فقل عدد جند الثيمات وزاد الاعتماد على الجند المرتزقة فى وقت قلت فيه السيولة النقدية لدى الادارة الامبراطورية .

ولكن لاشك أن هناك أسبابا أخرى ساهمت فى هذ الانهيار ، ستكون موضع بحثنا فى الفصل التالى . ولكن مهما كانت هذه الاسباب فما لاشك فيه أن الامبراطور باسيل الثانى حين توفى سنة ١٠٢٥ م ، فانه كان قد رفع الامبراطورية البيزنطية الى قمة تذكرنا بالايام العظيمة لروما القديمة .

هوامش

الفصل الرابع

١ – *Ostrogorsky* *State*, 257 *and* 332 – 33.

٢ – *Ostrogorsky* *State*, 314

٣ – بالنسبة للأرمن وتجنيدهم فى جند فرق الثيمات ، وانصهارهم فى الكيان الامبراطورى ، أنظر

Charanis *Armenians* 17 — 28.

٤ – *Vita Euthymii*, 2 *Cf. also* *Vasiliev*, *Basil the Macedonian*, 148 – 65.

٥ – *Adontz*, *L'Age et l'Origine* 475 — 77, 223 26

٦ – *Psellos*, *Chron.*, *I*, 117.

٧ – المسعودى التنبيه والاشراف ، ص ٣٠٧.

٨ – *Toynbee*, *Constantine Porphyogenitus*, 382.

٩ – عن إغارات بيزنطة على ثغور المسلمين فى عهد ميخائيل الثالث ، وبالذات تلك الحملة التى قادها بتروناس *Petronas* خال الامبراطور

سنة ٨٥٦ م أنظر

Vasiliev, *Byz. et les Arabes*, I, 318 — 19 ; *Grégoire*, *Epopée byzantine* 36 37

وعن اغارات البحرية البيزنطية علي ميناء دمياط سنة ٨٥٩ م
وقبل ذلك سنة ٨٥٣ م أنظر

Fahmy, *Sea Power*, 31 — 32

والمعروف أن المصادر الاسلامية أشارت الى هذه الاغارات كما
يتضح فى كل من الطبرى وخطط المقريزى ، والكندى .

١٠ ـ عن هذه المعركة الهامة أنظر الطبرى تاريخ الرسل والملوك
جـ ٩ ص ٢٦١ وأنظر أيضاً

Vasiliev, *Byz. et les Arabes*, I, 251 — 55 *Grègoire*, *Michel III*, 331 — 33 *Grégoire*, *Neuviéme Siécle*, 534 — 37

وأنظر أيضاً

Bury, *Cabpadocia*, 124 — 29 .

١١ ـ يعتبر مؤلف بطرس الصقلى *Peter of sicily* المصدر الرئيسى عن البوايصيين وفكرهم الدينى ، أنظر

Peter of Sicily, *Manichaeum*. Cols 1240 — 1309

وعن البوليصيين أنظر أيضا

Grégoire, Sources, 95 — 114; *Lemerle*, *Paulicians*, I 144 *Garsoian*, *Heresy*. 27 — 29 Toynbee, *Constantine Porphyrogenitus* , 652 — 98

وعن معاقل وقلاع البوليصيين فى الحدود الشرقية ، أنظر

Bryer, Excursus . 83 — 85 .

١٢ ـ *Vasiliev*, *Byz et les Arabes*, II, *pt*. 1, 27 — 28

Toynbee *Constantine Porphyrogenitus*, 112 — 113

١٣ ـ عن حملات باسيل الأول ضد البوليصيين ومقتل زعيمهم *Chrysokheir* أنظر

Theoph. Cont. 267 and 274 — 76

أنظر أيضا :

Genesius , 122 — 26

١٤ – رغم أن سنة ٩٢٤ م شهدت نهاية الحرب الفعلية بين الامبراطورية البيزنطية ودولة بلغاريا ، إلا أنه لم يتم عقد معاهدة سلام إلا فى سنة ٩٢٧ م عقب وفاة القيصر سيميون Symeon ففى تلك السنة اشترى الامبراطور رومانوس ليكابينوس السلام من بلغاريا ، أنظر

Theoph Cont. 413 — 15 Sym Mag , 740 — 41

Georg. Mon Cont 905 — 6

١٥ – شهدت الامبراطورية فى عهد الامبراطور ليو السادس عدداً من المشاكل فى الداخل والخارج ففى الداخل أثار زواج الامبراطور للمرة الرابعة السخط ، وفى الخارج واجهت الامبراطوريه عدداً من الهزائم على يد العرب المسلمين ، فى الغرب سقطت آخر المعاقل البيزنطية فى جزيرة صقلية فى يد المسلمين كما سبقت الاشارة كذلك أحرز العرب بعض الانتصارات فى أرمينيا ، ولكن الكارثة التى وقعت فى عهد هذا الامبراطور تتمثل فى قيام المسلمين بهجوم بحرى كبير على مدينة سالونيكا Thessalonika واحتلوا على المدينة لبضعة أيام فى سنة ٩٠٤ م وقاموا بنهبها .

أنظر عن هجوم المسلمين على سالونيكا الوصف التفصيلى الذى سجله المؤرخ البيزنطى كامنياتس Cameniates الذي وضع مؤلفا

خاصا بهذا الحدث

Cameniates *De EXP.*

وأنظر أيضا نقد المؤرخ الروسى كاجدان لهذا المصدر ، والذى صدر أخيراً

Kazhdan , *The Authenticity* . 301 — 314

أنظر أيضا عن المشكلة التى أثارها الامبراطور بزواجه للمرة الرابعة ،

Ostrogorsky , *State* , 259 — 60 .

١٦ — *Jenkins* *Byzantium* . 207 , *Ahrweiler* , *Recherches* . 78 88 ; *Oikonomidès*, *Préséance* 344 — 63 ; *Ostrogorsky*, *State* . 47 n 3.

ويبدو أن هذا التنظيم الجديد استهدف أيضا تقوية سلطة الحكومة المركزية على الاقاليم الادارية العسكرية بتصغير حجم الثيمات من ناحية ، وتحويل الوحدات الادارية الأصغر إلى ثيمات جديدة كذلك يتضح من كتاب الامبراطور قسطنطين السابع الخاص بالمراسم الامبراطورية ، أن الادارة البيزنطية كانت تدفع مرتبات الى قواد الثيمات Strategoi ، منذ أواخر القرن التاسع الميلادى . فقد تضمن كتاب المراسم االامبراطورية قائمة بمرتبات قواد الثيمات

Strategoi وقواد الوحدات الادارية العسكرية الأصغر *Kleisourarksi* وهي ترجع الى عهد الامبراطور ليو السادس . أنظر هذه القائمة الخاصة بالمرتبات فى

Constantine Porphyrogenitus *De Cer. II* , 696 – 97

١٧ – *Constantine Porphyrogenitus, De Them.*, 73 and 139 40; *DAI.* , I, 238 – 39 and II (*Commentary*), 189 90 ; *Honigmann Ostgrenze* , 69 – 70 *Oikonomidés* , *Préséance* 349 ; *Oikonomidés Organisation* , 74

وأنظر أيضا

Jenkins Laourdas Mango, Orations, 15.

١٨ – أصبح أقليم طارون *Taron* الارمينى يقع بجوار ثيم الجزيرة الجديد (إلى الغرب من بحيرة فان *Van*) . وبعد انشاء الثيم الجديد فرض الجوار نوعا من التقارب بين الاقليم الارمينى والامبراطورية وبعد أن نجحت الامبراطورية فى ضم ملطية سنة ٩٣٤م ، ازدادت الصلات وأخذت الادارة الامبراطورية بالدبلوماسية البارعة تمد نفوذها إلى اقايم طارون بالتدريج وجدير بالذكر أن الامبراطور قسطنطين

السابع قد خصص فصلا عن هذا الموضوع فى كتابه عن الادارة الامبراطورية DAI . وفى هذا الفصل يشرح الامبراطور بالتفصيل مصالح بيزنطة فى منطقة طارون الارمينية الاستراتيجية الهامة على أية حال ، فى سنة ٩٦٦م نجحت الامبراطورية بفضل جهودها الدبلوماسية أخيراً فى ضم أقليم طارون الارمينى إلى الكيان الامبراطورى فى عهد الامبراطور نقفور فوقاس ، وتم تعويض أمرائها الارمن بممتلكات أخرى فى قلب آسيا الصغرى ، أنظر

Constantine Porphyrogenitus , DAI , 188 - 98 .

وأنظر أيضا :

Honigmann , *Ostgrenze* 148 - 49 ; *Toumanoff*, *Georgia*, 616 Toumanoff , *Background* , 14.

١٩ — *Theoph. Cont.* , 426.

٢٠ - مسكويه تجارب الامم ، ج ١ ص ١١٧ وأنظر أيضا

The Eclipse, IV, 164 . *Cf. Vasiliev, Byz. et les Arabes* , II , *pt.* II , 69.

٢١ — Toynbee , *Constantine Porphyrogenitus*, 121 cf *Vasiliev*, *Byz. et les Arabes* , II, *pt.* II , 151.

٢٢ - ميسكويه : تجارب الامم ، جـ ١ ، ص ١٤٧ ، وأنظر أيضا

The Eclipse, IV 164

٢٣ - عن الفتح البيزنطى لملطية وضمها الممتلكات الامبراطورية أنظر

Theoph. Cont., 415 — 16 ; Sym. Mag., 741 — 42.

وعن مدينة ملطية بعد الفتح البيزنطى لها سنة ٩٣٤ م ، أنظر

Tinnefeld Melitene, 486 ff.

٢٤ - Ostrogorsky Agrarian Conditions, 21.

٢٥ - Toynbee, Constantine Porphyrogenitus, 151.

٢٦ - Lopez, Role of Trade 84

٢٧ - كانت تتعرض للحرق بشكل مستمر من جانب العرب أثناء إغارتهم المستمرة ، كذلك كان العرب يسلبون المحاصيل أو يدمروها ، وفى مثل تلك الظروف وجدت المجتمعات الزراعية فى آسيا الصغرى أن الحياة شبه مستحيلة ، لدرجة أن سكان بلدة سيزيون Sision قرروا أن يهجروا بلدتهم إلى منطقة أخرى أكثر أمنا ، فى سنة ٧١١ م .

ولا شك أن هذا المثل يبين أثر الاغارات الاسلامية على حياة ممتلكات أهل الريف واقتصادهم الزراعى ، وأثر هذا كله على حالتهم المعنوية ، أنظر

Lilie , **Reaktion**, 119 / n. 50.

٢٨ - *Lemerle*, Esquisse 60 — 61 *and* 263 .

وأنظر أيضا

Ahrweiler , **Recherches** , 13 — 14 .

٢٩ - أنظر مثلا رواية الراهب ميخائيل مالينوس *Michael Maleinos* (وهو أحد أبناء أسرة مالينوس الارستقراطية والتى كانت بعض ممتلكاتها الشاسعة تقع فى ثيم خرسشنة) ، الذى وزع ممتلكاته من ماشية وأغنام على الفقراء (فى ثيم خرسشنة) وكان هؤلاء الفقراء فيما يبدوا رعاة وليسوا مزارعين ، أنظر

Maleinos ; 557

والمعروف عن اقليم قبدوقيا أنه منذ زمن الرومان كان يعتبر أفضل اقليم لرعى الخيل ، وكانت توجد فيه مراع لتربية الخيل خاصة بالامبراطور .

٣٠ ـ أصدر الأباطرة فى القرن العاشر الميلادى عدداً من القوانين بخصوص الملكيات الزراعية . والجدير بالذكر أن تكرار صدور هذه القوانين التى استهدفت حماية ممتلكات صغار المزارعين الأحرار، لهى دليل قانونى على مدى قوة وسطوة طبقة الأقوياء dynatoi (الارستقراطية العسكرية) فى القرن العاشر الميلادى ، عن هذه القوانين ، أنظر

Vryonis , *Time of Troubles* , 193 — 214 , *and* 397 — 402.

وأنظر أيضاً

Toynbee , *Constantine Porphyrogenitus* , 145 — 27 ;

Morris . *Tenth - Century Byzantium* 3 — 27

٣١ ـ كانت الملكيات الزراعية الكبيرة الخاصة بعائلة فوقاس توجد فى ثيم قبدوقيا بينما كانت أراضى عائلة مالينوس موزعة فى أكثر من ثيم ، مثل ثيم قبدوقيا وثيم خرسشنة ، أنظر

Vryonis , *Time of Troubles* , 174 *Maleinos* , 550

٣٢ ـ *Vryonis* , *Decline* , 160 *ff*

أنظر أيضا الدراسات الحديثة التي صدرت عن هذه العائلات الارستقراطية

Djuric , Phocas. 195 — 291 ; *Vannier* , *Les Argyroi* ;

Laiki , *Die Skleroi* .

٣٣ — *Vryonis* , *Time of Troubles* , 174 ; *Rambaud* , *l'Empire*

Grec . 421.

٢٤ — ربط الزواج والتحالف بين عائلة فوقاس وعائلة ما لينوس وبين عائلة

تزيمسكس وكل من فوقاس ، وكوركواز ، وسكليروس ، وللمزيد

عن هذة الروابط الاسرية بين العائلات الارستقراطية ، أنظر :

Vryonis , *Time of Troubles* 174 , and 181

٣٥ — *Blondal* , *Varangians* . 32 — 5 .

٣٦ — أنظر

Ostrogorsky . *State* , 98 , 133

٣٧ — *Farag* , *Basil II* , 30

٣٨ — *Niceph.* , *De Vel. Bell.* , 239 — 41

٣٩ — وتجدر الاشارة إلى أن ليو السادس اعترف فى كتابه عن فن الحرب

والقتال *Taktika* أن الخطر العربى الاسلامى ممثلا فى الاغارات

السنوية التي شنها العرب على آسيا الصغرى هي التي دفعته إلى كتابة هذا المؤلف (*Taktika*) ، أنظر :

Leo , *Tact.* , *Col.* 1093 .

٤٠ — *Niceph.* , *De Vel. Bell.* , 231

٤١ — عن الحرب البيزنطية البلغارية ، أنظر :

Runciman, *Bulgarian Empire* , 51 – 70 ; *Browning*, *Bulgaria* , 49 50 ; and 53 - 68

٤٢ — *Theoph. Cont* , 478 .

٤٣ — *Theoph. Cont.* , 389

٤٤ — *Incert . Script* , 49 50

٤٥ — *Incert. Script* 37 - 38 .

٤٦ — كتب القائد ككومنوس كتابه *Strategicon* في الفترة ما بين ١٠٧٥ و ١٠٧٨ م . وينتمي ككومنوس إلى طبقة الارستقراطية العسكرية ، ويعتبر مؤلفه على جانب كبير من الأهمية لأنه يروي تجاربه

الشخصية كقائد عسكرى ، وهى تجارب فيها الكثير من الفوائد والعبر . ويلاحظ أن كتاب ككومنوس ، يتضمن فى نهايته ، فصلا صغيرا كتبه بعد ذلك بفترة ، وفيه نصائح هامة لامبراطور بيزنطى يعتقد أنه الكسيوس كومنين (١٠٨١ — ١١١٨ م) أنظر

Ostrogorsky , *State* , 317 - 18 .

٤٧ — *Kekaumenos* , *Strategicon* , 21.

٤٨ — Kekaumenos , *Strategicon*, 20

٤٩ — *Kekaumenos* , *Strategicon* , 65

٥٠ — *Praecepta Militaria* , 10 12

٥١ — *Praecepta Militaria* , 11

٥٢ — *Praecepta Militaria* , 12 .

٥٣ — *Cedrenus* , II , 373 - 74

٥٤ — *Psellos* *Chron.* I 10

٥٥ – *Leo Diaconus*, 140 - 41

٥٦ – *Leo Diaconus*. 153 - 56

٥٧ – Ostrogorsky, *State*, 288

٥٨ – Runciman *Crusades*, I 32

وجدير بالذكر أن الامبراطور نقفور فوقاس حاول إقناع البطريرك بوليكتوس Polyeuktos بأن توافق كنيسة القسطنطينية على إعتبار أن من يموت فى « الحرب المقدسة » يستحق الارتقاء إلى مرتبة الشهداء . ولكن البطريرك رفض ، وتمسكت كنيسة القسطنطينية بنص الدين المسيحى وتعاليم السيد المسيح التى حرمت القتال . فبالنسبة للكنيسة الشرقية كانت الحرب هى عمل من أعمال القتل مهما كانت ضرورتها ، أنظر

Zonaras, III 506

٥٩ – أنظر النص الكامل لرسالة الامبراطور إلى الخليفة المطيع ، وهى الرسالة المعروفة باسم « القصيدة الارمينية » ، فى :

– ابن كثير : *البداية والنهاية* ، ج ١١ ، ٢٤٤ — ٢٤٧

– وأنظر أيضا: عمر كمال توفيق مقدمات العدوان الصليبي ، ص ٨٩ ، هامش ١

٦٠ - ابن كثير البداية والنهاية ، جـ ١١ ، ص ٢٤٥ — ٢٤٦ .

وأنظر أيضا :

Schlumberger , Un Empereur 347 - 50 .

٦١ - أنظر نص الرسالة كاملا ، فى كتاب المؤرخ الارمينى متى الرهاوى :

Matthew of Edessa , 16 - 28

وأنظر أيضا تعليق فازيليف :

Vasiliev , Byz . Empire , I, 3 0

٦٢ - Ahrweiler , l'Idéologie , 46 Ahrweiler la Mer . 119

٦٣ - Leo Diaconus . 81

٦٤ - Toynbee , Constantine Porphyrogenitus , 54 ; and 146 .

٦٥ - Toynbee , Constantine Porphyrogenitus . 53

٦٦ - أنظر الهامش السابق (فى هذا الفصل) رقم ٣١ .

٦٧ - ابن حوقل صورة الارض، ص ١٠٧ ، ١٧٩ ، ١٨٠ ، ١٨٠ ، ١٨٩
١٩٧ - ١٩٨ ، وص ٢٢٣

٦٨ عن خطب الجهاد هذه أنظر
ابن نباتة ديوان خطب ابن نباتة ، ١٧٧ - ٢٤٠ ، وأنظر بالذات
من ص ٢١٤ - ٢١٧
وأنظر كذلك :

Vasiliev , *Byz . et les Arabes* , II, pt II , 292 - 94 .

٦٩ - عن استرداد نقفور فوقاس لجزيرة كريت ، أنظر :

Leo Diaconus , 27 ; *Scylitzes* , 249 - 50 ;
Yahya of Antioch , *Histoire* , 782

٧٠ - استولى نقفور فوقاس على أذنة أيضا وأكثر من عشرين حصنا ،
أنظر

Leo Diaconus , 52 ; *Honigmann* , *Ostgrenze* , 93 ; *Bar Hebraeus*, *Chronography* , I , 167 - 68 ; *Yahya of Antioch* , *Histoire* 784

٧١ - احتل نقفور مدينة حلب لعدة أيام (حوالى ثمانية أيام) ، أنظر

Yahya of Antioch , *Histoire* , 784 - 87 Cf

Bar Hebraeus , *Chronography* , I , 168 - 69

٧٢ - الذهبي تاريخ الاسلام (مخطوط) ، ٠ رقة رقم ٢ (أ) . وانظر ايضا:

Bar Hebraeus , *Chronography* , I , 169 .

٧٣ - *Leo Diaconus* , 48

٧٤ - *Leo Diaconus* , 53 , and 55 - 61 *Scylitzes* , 268 -69

Yahya of Antioch , *Histoire* 795 - 97 ; *Honigmann*,

Ostgrenze 93

٧٥ ـ عن استرداد البيزنطيين لجزيرة قبرص ، انظر :

Scylitzes . 270 Yahya of Antioch , *Histoire* , 794 ,

انظر كذلك :

ابن حوقل : صورة الارض ، ص ٢٠٣

٧٦ ـ عن حملة نقفور فوقاس سنة٩٦٩ م على الشام انظر :

Leo Diaconus, 70 - 74 *Yahya of Antioch*, *Histoire*. 811 16.

أنظر أيضا

ابن العديم : زبدة الحلب ، جـ ١ ، ص ١٥٨ ١٥٩

وأنظر كذلك

Honigmann, *Ostgrenze* 9 *Canard*, *Histoire* I 831 - 32.

٧٧ — عن فتح انطاكية ، انظر :

Leo Diaconus, 81 - 82; *Scylitzes* 271 - 73; *Yahya of Antioch*, *Histoire*, 822 23 *Bar Hebraeus* *Chronography*. 172 - 73; *Canard*, *Histoire*, I, 832; *Honigmann*, *Ostgrenze*, 94

وانظر ايضا :

ابن العديم : زبدة الحلب ، جـ ١ ص ١٦٢ — ٦٣ .

٧٨ — انظر نص هذه المدنة فى :

ابن العديم : زبدة الحلب ، جـ ١ ص ١٦٣ — ٦٨ .

انظر تعليقاتي على هذه المدنية في .

Farag , Truce 2 5

٧٩ — Jenkins, Byzantium, Ostrogorsky , State, 296 - 97

298 — 95 .

٨٠ — عن الحرب بين تزيمسكس والروس في سنة ٩٧١ م ، انظر تفاصيلها في :

Leo Diaconus . 128 — 56 Scylitzes . 294 302 ,

and 304 — 9 .

٨١ — وتجدر الاشارة إلى أن حملة الامبراطور تزيمسكس على الجزيرة (شمال العراق) سنة ٩٧٢ م ذكرتها المصادر الاسلامية فقط . وبينما ذكر كل من متى الرهاوي ليو الشماس أخبار حملة الامبراطور الثانية سنة ٩٧٤ م ، نجد أن المصادر الاسلامية لا تشير اليها . أما عن حملة الدمستق مليح Melias سنة ٩٧٣ م قد ذكرتها المصادر الاسلامية كما ذكرها متى الرهاوي وبالنسبة لمشكلة تأريخ وترتيب حملات يوحنا تزيمسكس على الجزيرة (شمال العراق) انظر

Dolger , Chronologie , 275 — 9 . Canard , Expéditions,

99 ff. Canard, Histoire , I 338 — 43

وانظر ايضا عمر كمال توفيق مقدمات العدوان الصليبي ،

ص ١١١ - ١٤٠

٨٢ - عن اسر الدمستق ، انظر :

مسكوية تجارب الامم ، ج ٢ ، ٢١٢ - ٣١٣ .

وانظر ايضا :

Bar Hebraeus, Chronography, I, 174 Matthew of Edessa.

14 .

٨٣ - ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٠

٨٤ - Matthew of Edessa, 16 - 23 , esp 20

انظر ايضا :

عمر كمال توفيق مقدمات العدوان الصليبي ، ص ١٥٠ - ١٥٣ .

٨٥ - Leo Diaconus , 166, 168 ; Matthew of Edessa, 21 - 22,

Yahya of Antioch Histoire, 369 Honigmann,

Ostgrenze . 102 .

انظر ايضا

ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٤ .

٨٦ - عن ظروف وفاة الامبراطور يوحنا تزيمسكس فى العاشر من يناير ٩٧٦ ، انظر :

Leo Diaconus , 176 — 78 ; Scylitzes , 311 — 1 .

٨٧ - Leo Diaconus . 63 — 65 , and 84 — 92 Scylitzes, 279 — 80 .

٨٨ - انظر مقالى (تحت الطبع) فى مجلة كلية الآداب جامعة المنصورة العدد الثالث (اكتوبر ١٩٨١) بعنوان :

« Basil II « The Bulgar Slayer » 976 - 1025 : The factors which determined the Policies of his reign » .

٨٩ - Ostrogorsky , State , 298

٩٠ - عن ثورة برداس سكليروس ضد الامبراطور باسيل الثانى ، انظر :

عبد الرحمن محمد عبد الغنى ثورة برداس سكليروس ، ص ١ - ١٢ .

وانظر ايضا :

Farey , Basil II , 71 — 166

٩١ — Morris, Tenth - Century Byzantium, 5

٩٢ — عن المرسوم رقم ٢٩ الصادر فى أول يناير سنة ٩٩٦ م انظر :

JGR (Zepos), I, 262 272 ; cf. Dolger, Regesten.

I, no. 788.

وانظر أيضا :

Morris, Tenth - Century Byzantium, 13 ; Toynbee, Constantine Porphyrogenitus, 167 ff Ostrogorsky, State. 306 — 7 ; Jenkins, Byzantium, 319 — 20.

٩٣ — مثل الامير داود David الذى عرف بعد ذلك بالقربلاط داود ، فقد أمد داود برداس فوقاس بعون عسكرى مرتين ، الأولى حين كان فوقاس مكلفا من قبل باسيل الثانى بالقضاء على ثورة برداس سكليروس الأولى (٩٧٦ — ٩٧٩ م) ، والمرة الثانية حين قام فوقاس نفسه بالثورة بعد ذلك على الامبراطور (٩٨٧ — ٩٨٩ م) انظر :

Badridzé, Contribution, 168 Seibt, Die Skleroi, 44 — 47 ; Honigmann, Ostgrenze, 153.

٩٤ — Blondal, Varangians, 43, n. 2.

٩٥ — *Blondel, Varangians*, 41 — 2.

٩٦ — Seibt, Die Skleroi, 47.

عن تفاصيل المعركة انظر

Scylitzes 326 — 27 *Zonaras*, 545 — 46 ; *Psellos, Chron.*, 6 ; *Honigmann*, *Ostgrenze*, 51, n. 6.

٩٧ — *Farag*, *Basil II*, 85 — 125.

٩٨ — كان الخصى باسيل ، ابنا غير شرعى للامبراطور رومانوس ليكابينوس والمعروف أن ابنة رومانوس كانت زوجة الامبراطور قسطنطين السابع جد باسيل الثانى ، انظر :

Brokkaar, *Basil Lacapenus*, 199 — 234

اما عن كلمة براكيموميتوس *Parakoimomenos* فهى تعنى حرفيا الرجل الذى ينام بجوار غرفة نوم الامبراطور *Chamberlain* ، أى الرجل الذى يشرف على غرفة نوم الامبراطور ويقوم بحمايته أثناء نومه . ولكن شاغلى هذه الوظيفة فى القصر الامبراطورى ازداد نفوذهم بالتدريج وتعددت مهامهم . ولقد ظهرت هذه الوظيفة اول مرة مع هذا اللقب فى عهد الامبراطور موريس *Maurice* (٥٨٢ — ٦٠٢ م)

ولكن منذ القرن التاسع وطوال القرن العاشر الميلادى اصبح فى يد البراكيمومينوس سلطات ادارية ضخمة ولقد شغل الخصى باسيل هذة الوظيفة (بسبب كفاءته ودهائه) منذ سنه ٩٤٨ م فى عهد الامبراطور قسطنطين السابع وظل يشغلها فى عهود كل من نقفور فوقاس ويوحنا تزيمسكس وباسيل الثانى . وفى النهاية ضاق به الامبراطور باسيل الثانى فعزله من منصبه ونفاه فى سنة ٩٨٥م . عن وظيفة البراكيموموس ومهامه ، انظر

Guilland, Recherches, I, a 2   Oikonomidès, Préséance

305   Bury, Admin. System, 124 – 25

٩٩ — من أمثلة تلك القوانين التى أصدرها للحد من نفوذ العسكريين الارستقراط ذلك المرسوم الذى يحمل رقم ٩٠ والصادر فى أول يناير ٩٩٦ م ، انظر حاشية رقم ٩٢ من هذا الفصل

بالنسبة لتأميم ممتلكات هذه الطبقة ، فالمعروف أن الامبراطور أمم ممتلكات حوالى عشرة من كبار الملاك ، انظر

Vryonis, Time of Troubles, 400 n. 20

Farag, Basil II, 341   ١٠٠ —

١٠١ — Vryonis, Decline. 161 -62 .

١٠٢ — نتج عن حملة الامبراطور تزيمسكس ضد الروس (الذين قاموا بغزو بلغاريا) أن خضع كل القسم الشرقي من بلغاريا الامبراطورية. اما القسم الغربي من بلغاريا فضلا عن مقدونيا فلم يصل لها الروس ولم تكن تحت الحكم البيزنطي ، انظر

Browning , Bulgaria , 72 - 73 ; Runciman , Bulgarian Empire , 209 - 216

وانظر أيضاً

Tapkova - Zaimova , Frontiere Occidentales , 133 ff .

١٠٣ — Browning , Bulgaria , 74

١٠٤ — Farag , Basil II , 843

١٠٥ - عن حملة باسيل الثانى الفاشلة ضد القيصر صموئيل ، وهزيمة الامبراطور فى المضيق المعروف ببوابة تراجان Trajan's Gate فى ١٧ من اغسطس سنة ٩٨٦ م ، أنظر :

Scylitzes. 330 - 31 ; Leo Diaconus, 171 - 73 ; Zonaras ,

DPII, 5.8 - 49 ; Rozen, Bulgarobrica, 180 - 91, notes 146 and 147

١٠٦ - Browning, Bulgaria, 74

١٠٧ - Blondal, Vgrungians, 43f, Jenkins, Byzantium, 311 ;

عن أهمية تعميد فلاديمير Vladimir واعتناق الروس للمسيحية ، انظر :

Obolensky, Commonwealth, 252-63 poppe, Baptism, 195 - 244.

١٠٨ - Seibt, Die skleroi, 55 - 58 .

١٠٩ - وحين رأى صموئيل Samuel الطابور البشع المخيف لجنوده العائدين سقط على الارض مغشيا . وبعد ذلك بيومين وفى ٦ من اكتوبر سنة ١٠٢٤ م ، توفى . وبموته اصبحت نهاية الدولة البلغارية وشيكة .

عن تفاصيل المعركة ، وانتصار باسيل الثانى الهائل انظر

Runciman, Bulgarian Empire, 240 ff. Obolensky, Commonwealth, 175 f ; Ostrogorsky State, 310 — 11 ;

Browning, Bulgaria, 75. ; Jenkins, Byzantium, 326f.

١١٠ - لقد وصف ميخائيل سلوكي اسلوب باسيل الثاني في القتال ...
... باسيل الثاني يخرج للحرب في الربيع ويعود في نهاية الصيف
... كان مسلط الإمبراطرة بطول ... فبالنسبة لباسيل كان توقيت العودة
مرهون بانجازات الحملة واهدافها التي وضعها في رأسه حين ابتدأ
الحملة العسكرية . لقد كان يتحمل قسوة الشتاء وحرارة الصيف دون
أن يهتم ، فقد عود نفسه على تحمل العطش والجوع والبرد » .
انظر :

Psellos , Chron. , I , 20

وأنظر أيضا

Bury, Basil II , 51

١١١ - Ostrogorsky , State , 310 11 Runciman , Bulgarian Empire , 243 52 ; Jenkins , Byzantium, 327 , Browning Bulgaria , 75

١١٢ - Toynbee , Constantine Porphyrogenitus , 331

١١٣ - Leo , Tact. , Col. 976

١١٥ - ابن كثير : البداية والنهاية ج ١١ ، ص ٢٤٣ - ٢٤٤ .

١١٦ - ابو الشجاع : ذيل تجارب الامم ، ص ١١٧ .

وانظر أيضا :

The Eclipse , VI , 119

١١٧ - Toumanoff , Georgia , 616

١١٨ - Farag , Basil II 358

١١٩ - عن ثورة فوقاس ، أنظر :

Scylitses , 336 38 ; Zonaras , III , 552 — 54 ;
Leo Diaconus , 173 75 ; Psellos , Chron. , I, 7 and
8 — II ; As'olik : Geschichte 188 — 89

١٢٠ - Toumanoff Georgia 615 Toumanoff, Background.
14 , Jenkins , Byzantium , 316

كان لقب قربلاط من بين القاب الشرف البيزنطية في القرن التاسع

ن هذا اللقب البداية لايمنح الا لأفراد أسرة

الامبراطور وظل هذا الوضع ساريا حتى القرن العاشر الميلادى حين

قام الامبراطور ليو العاقل (السادس) بمنحه لحكام أيبريا المحالفين ، ومنذ ذلك الوقت تكرر منح هذا اللقب لحكام اجانب للمزيد عن هذا اللقب ، انظر :

Oikonomidès , *Préséance* , 293 *Bury* , *Admin. System* , 33 — 35 ; *Guilland*, *Curopalate* . 185 - 249.

١٢١ *As'elik*, *Geschichte*, 209, *Toumanoff*, *Background*, 14.

١٢٢ - ولقد منح الامبراطور فى هذه التسوية بقراط الثالث لقب قربلاط Kouropalates ، كما منح أبوه جورجن Gurgen لقب ماجستر Magistros . انظر

As'elik, *Geschichte* , 210 f *Jenkins* , *Byzantium*, 323 .

١٢٣ - *Toumanoff* *Georgia* , 618 f

١٢٤ - *Aristakès de Lastivert*, *Récit* 7 — 8 *Grousset*, *L'Arménie* , 538 — 39

١٢٥ - *Aristakés de Lastivert* *Récit* 12 — 13 and 2[illegible] 34; *Grousset* , *L'Arménie* , 547 f f. 558 f f.

وأنظر أيضا

Blendal, Varangians, 49.

١٢٩ — Aristakès de Lastivert, Récit, 9 f; Grousset, L'Arménie, 541 ff.

١٢٧ — Aristakès de Lastivert, Récit, XXii, and 19 n. 1; Grousset, L'Arménie, 553 — 56

وعن تاريخ بداية إغارات التركمان والسلاجقة على فاسبوركان انظر:

Cahen, Pre — Ottoman, 67 f

١٢٨ — Aristakès de Lastivert, Récit, 10 f; Toumanoff, Georgia, 619 f; Grousset, L'Arménie, 556 — 58.

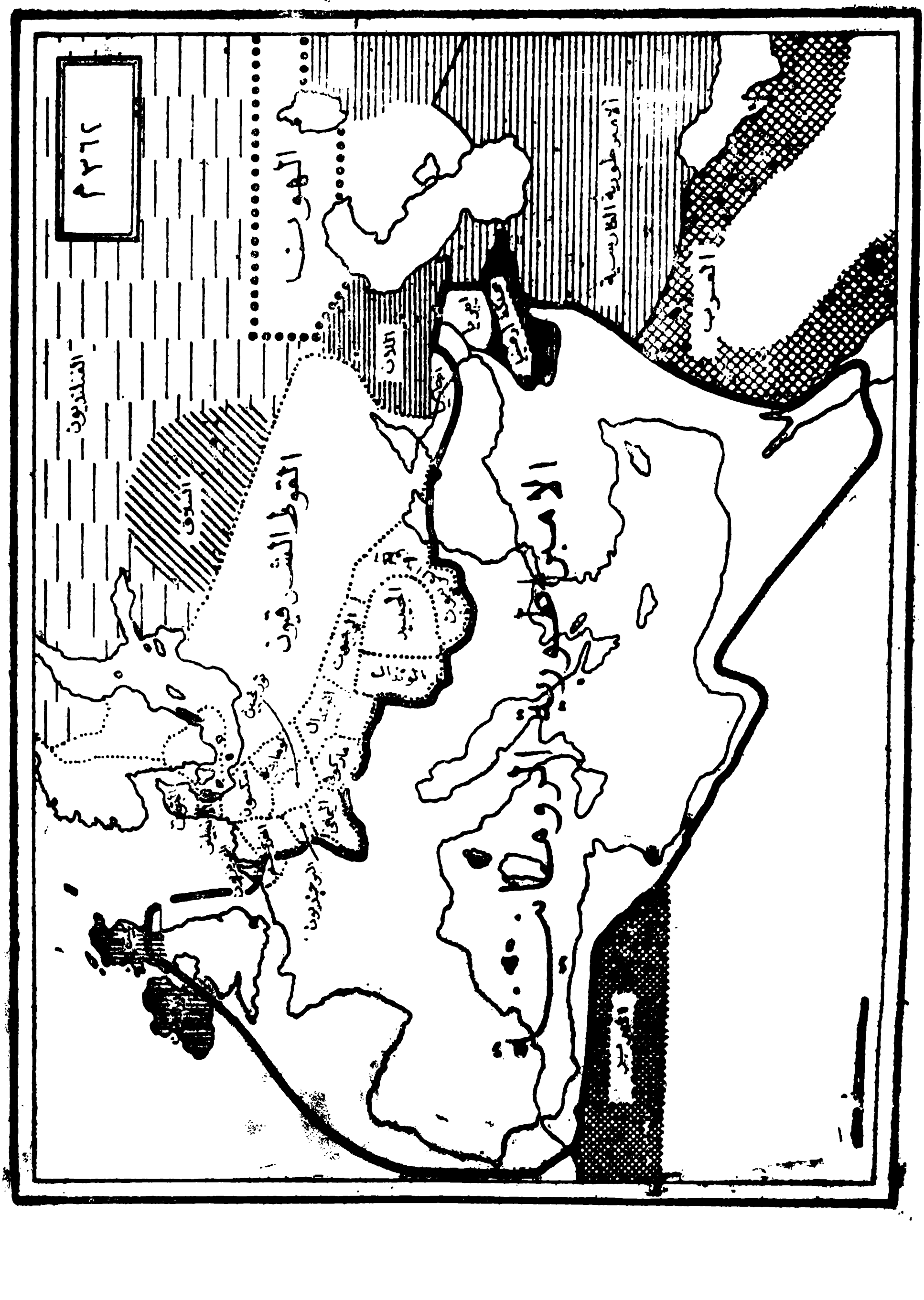
١٢٩ — Psellos, Chron, I, 22 — 23

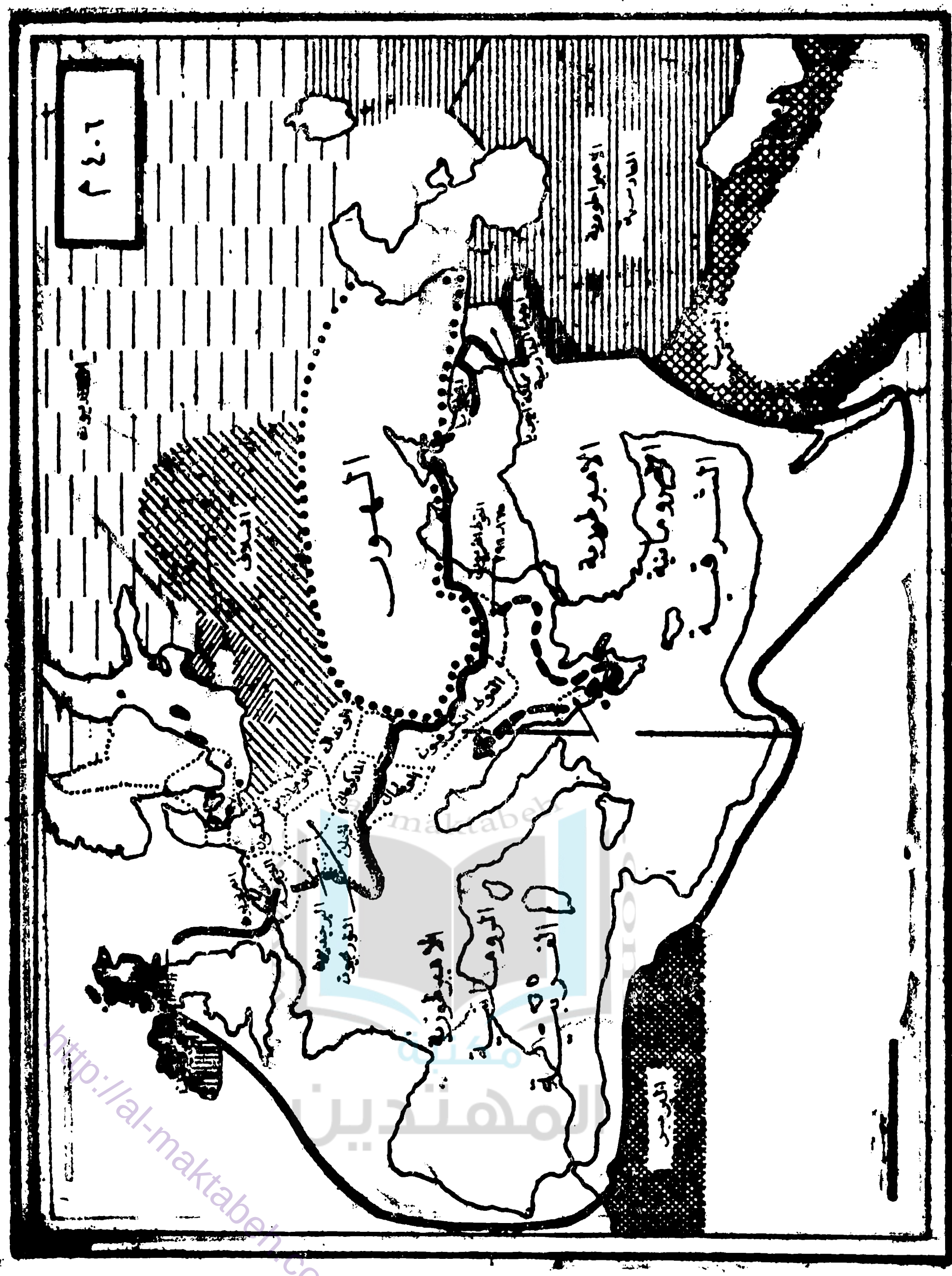
١٣٠ — Ostrogorsky, State, 314

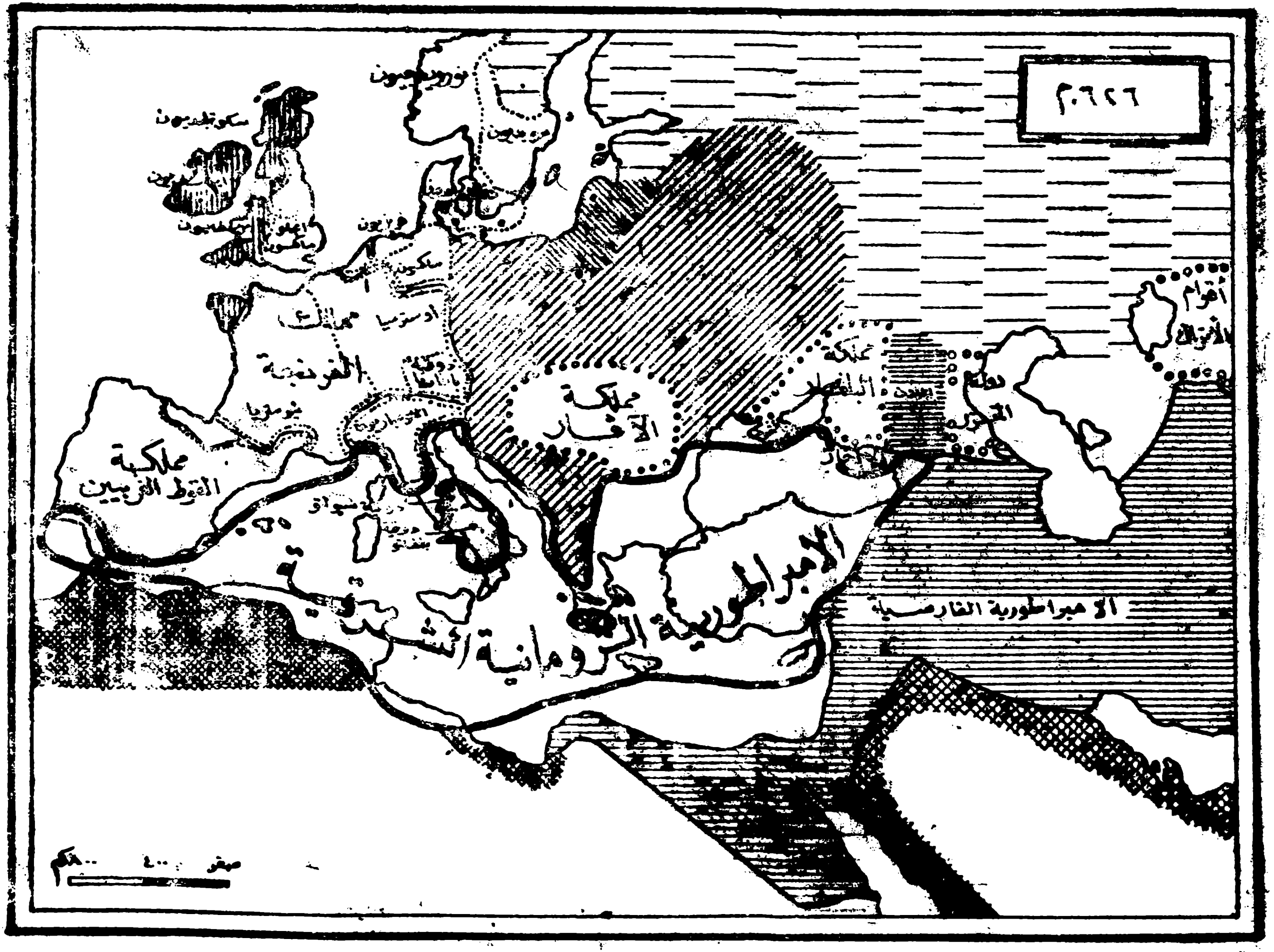
١٣١ — Jenkins, Byzantium, 312

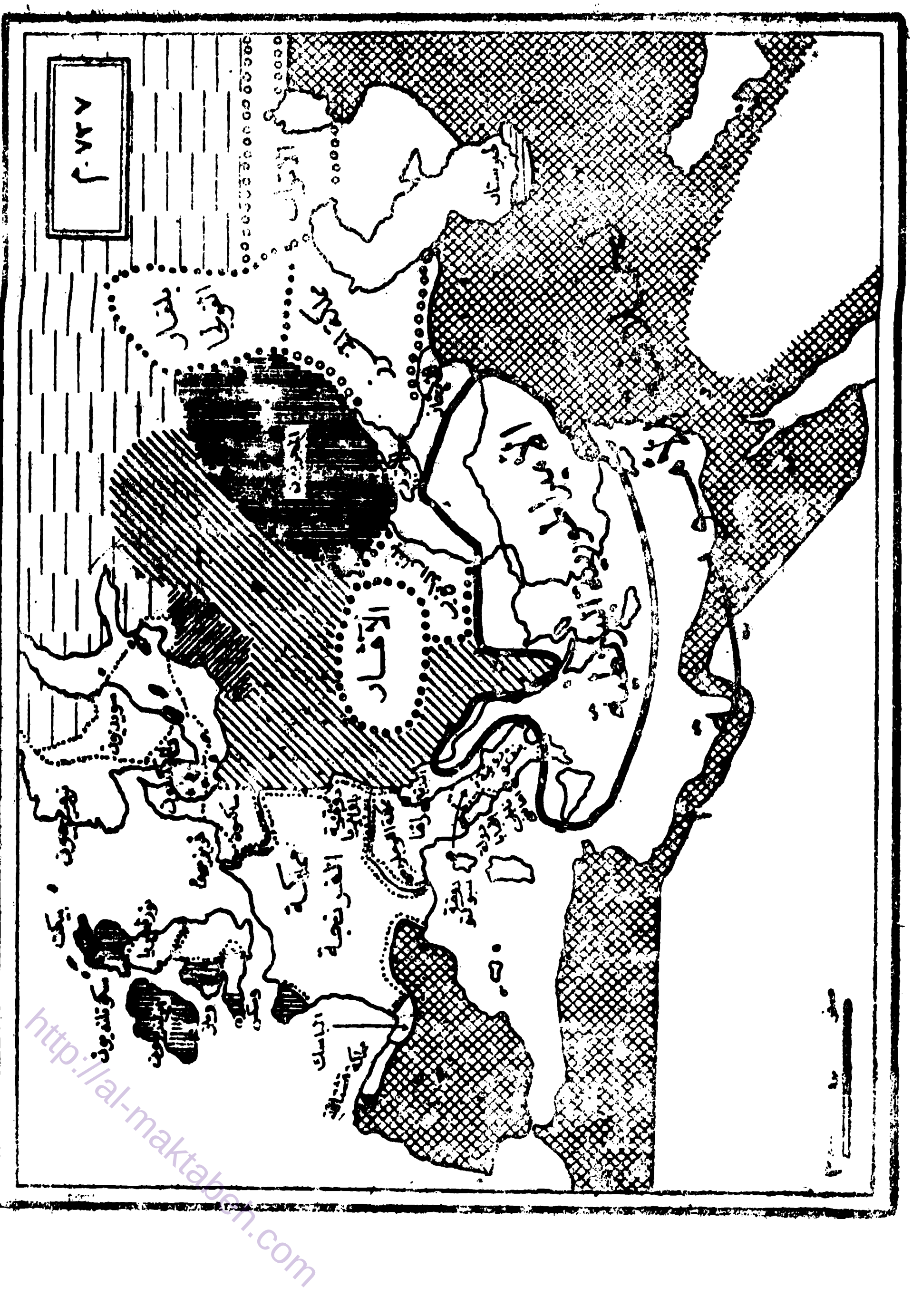
١٣٢ — Lemerle, Leçon, 15.

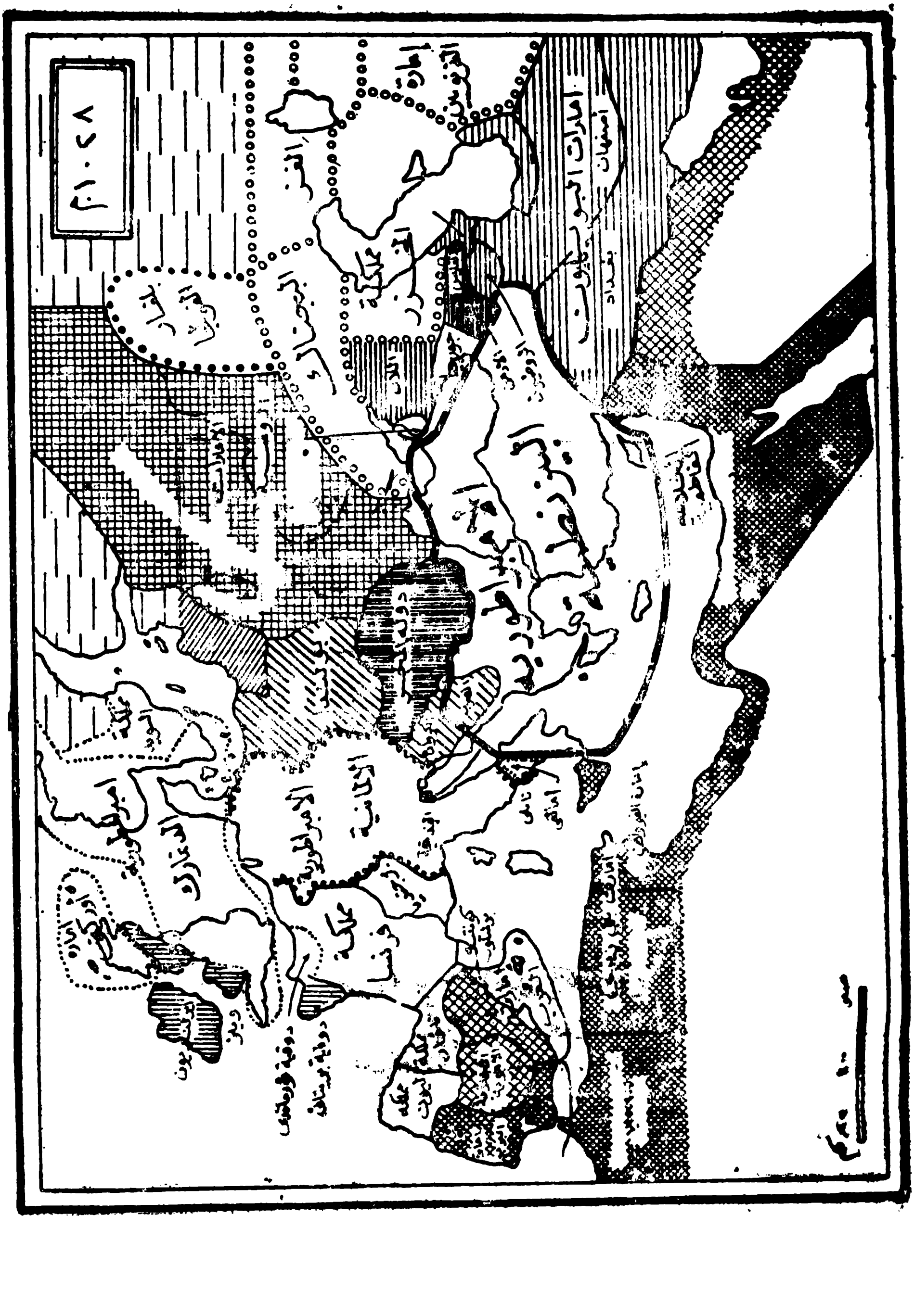
الخرائط


٣٦٢ م
الهون
الفنلنديون
القوط الشرقيون
الوندال
الآلان
الامبراطورية الفارسية




٦٢٦م
الامبراطورية الرومانية الشرقية
الامبراطورية الفارسية
مملكة الآفار
مملكة القوط الغربيين
الفرنجة
مملكة البلغار
دولة الخزر
أقوام الأتراك
سكوتلنديون
نورويجيون
صقم ٤٠٠ كم


٧٣٧م
بلغار الفولجا
الأتراك
مملكة الخزر
الآفار
الإمبراطورية البيزنطية
مملكة الفرنجة
الباسك
بيكت
سكوتلنديون
ويلز


١٠٢٨ م